

موسى وعيسى

الغزوات الكبرى

إعداد
محمد بن أحمد باشميل
رحمة الله تعالى

لجدة الأولى

دار الفضيلة
السعودية

دار الهدى النبوي
مصر



مِن مَعَارِكِ الْإِسْلَامِ الْفَاصِلَةِ

(٦)

عَزْوَةُ خَيْبَرَ

قَدَّمَ لِلْكِتَابِ

الْكُولُونِيَلْ عِبْدُ اللَّهِ السَّلَّ

قَائِدُ مَعْرَكَةِ الْحِفَاظِ عَلَى الْقُدْسِ

عَامَ ١٩٤٨

مقدمة الكتاب

بقلم الكولونيل عبد الله التل
بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد، لقد سرني أن اطلعت على مسودة (غزوة خير).. الكتاب السادس من السلسلة التاريخية التي شرع الأخ الأستاذ محمد أحمد باشميل في إصدارها تحت اسم (معارك الإسلام الفاصلة).

لقد رأيت في هذا الكتاب (كما في غيره من مؤلفات الأخ باشميل التاريخية) كنوزاً ثمينة من التاريخ الإسلامي الطافح بالبطولات والأبجاد.. نقّب عنها قلم الأستاذ باشميل وأزال عنها الأتربة السميقة الحاجة لها.. ثم عرضها على (حقيقتها الأصيلة الناصعة) عرضاً شيقاً وبأسلوب سهل يجعل القراء (على اختلاف درجاتهم الثقافية) يفهمون - دونما عناء أو إرهاق للذهن - حقيقة التاريخ الإسلامي المجيد.

إن الأخ الأستاذ محمد أحمد باشميل لم يأت بجديد في التاريخ (من حيث الجوهر)، فالتاريخ لا يحتمل الاختراع بأن يضيف إليه الكاتب ما ليس في طياته. الأمر الذي ابتعد عنه المؤلف مخالفاً بذلك كثيراً من الكُتاب الذين تناولوا التاريخ الإسلامي بالعرض والتحليل، وسمحوا للخيال (لا الحقيقة) أن يلعب دوراً كبيراً فيما كتبوا كما فعل جورجى زيدان في سلسلته التاريخية المشهورة.

ولكن الجديد الذي أتى به الأخ الأستاذ باشميل هو الاستقراء الدقيق والعرض الواسع الأدق للتاريخ الإسلامي، ولكن داخل إطار جوهر هذا التاريخ.. إذ لم يخرج (في أية ناحية من نواحي عرضه وبجته وتحليله في مؤلفاته) عن إطار هذا الجوهر، الأمر الذي أعطى سلسلته التاريخية هذه قيمة تاريخية أكبر.

لأنه لم يُخرج هذه السلسلة كقصص للتسلية وقتل الوقت، يتخللها الحديث عن الحب الموهوم والغرام المتخيّل بقصد تشويق القارئ وجذبه لا أقل ولا أكثر.. وإنما أخرجها كمراجع حقيقية لتاريخ حقيقي يرجع إليها واثقاً من يريد الرجوع إليها والاستدلال بها.

أسأل الله تعالى أن يجزي الأخ الأستاذ باشميل خير الجزاء على هذا المجهود الذي يبذله خدمة للتاريخ الإسلامي، في وقت يتعرض فيه هذا التاريخ المشرق المجيد لحملات ظالمة يشنها عليه مفكرون محسوبون على العرب والمسلمين، قاصدين من وراء ذلك أن يقطع المسلمون (والعرب خاصة) صلتهم بهذا التاريخ الخالد الوضاء، ولكن الله بالمرصاد لهؤلاء العملاء المأجورين فسيكتبهم انتصاراً لدينه حتى يتقلبوا خاسرين إن شاء الله.

إن معركة خيبر - كما سيراهما القارئ في هذا الكتاب - هي من أعظم المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام، وهي - كما يقول المؤلف - أطول معركة خاضها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام في عهد النبوة. وآخر معركة انتهى بها الوجود اليهودي الذميم في جزيرة العرب.

لقد عرض المؤلف في كتابه هذا لتاريخ اليهود في خيبر - منذ وطئت أقدامهم الدخيلة هذه التربة العربية حتى تم تطهير الجزيرة من أوصارهم بالتصفية العسكرية الشاقة التي قام بها النبي محمد ﷺ وأصحابه والتي هي موضوع هذا الكتاب.

كذلك أثبت المؤلف في الفصل الأول من كتابه هذا أن العنصر اليهودي، عنصر دخيل على الجزيرة العربية، لا تربطه بعرب الجزيرة أية رابطة من دم أو لغة أو دين. كما نوّه عن أحقاد اليهود وتعصبهم وخبثهم وعزلتهم وانطوائهم على أنفسهم ومكرهم وخداعهم، مما جعل صلاتهم بعرب الجزيرة محدودة إلا في مجال التآمر والغدر والتواطؤ مع الوثنيين على ضرب المسلمين والإطاحة بهم.

وعرض المؤلف لأهمية خيبر وخطورتها (في ذلك العهد) على الإسلام والمسلمين، ولاسيما بعد أن نزح إليها من يثرب يهود بني النضير الأغنياء الأقوياء الذين هم (بين اليهود) في منزلة السادة والأشراف.

وقد تحدّث المؤلف في شيء من التفصيل المفيد عن كيف تحولت خيبر إلى قاعدة خطيرة للعدوان والتآمر على الإسلام والمسلمين؟ وكيف كانت هي المخطط والمدير والمنطلق الحقيقي لغزوة الأحزاب الرهيبة التي كادت قوات الأحزاب المتحالفة فيها أن تعصف بكيان المسلمين وتقتلع جذور الإسلام كلياً لولا عناية الله تعالى التي أنقذت الإسلام والمسلمين بمعجزة!

كما فصل الأسباب التي جعلت النبي ﷺ ينتهج سياسة الشدة في معاملة هؤلاء اليهود، ويقرر نقل المعركة إلى عقر دارهم في خيبر لتصفيتهم تصفية نهائية عن طريق الحرب، بعد أن تأكد لديه أن اللين والتسامح مع هؤلاء اليهود لا يزيدهم إلا جرأة في مجال الغدر والعدوان والتآمر على المسلمين.

ثم شرح المؤلف بشيء من التفصيل المرغوب المعارك التي دارت للاستيلاء على حصون خيبر، وأثبت بالأسانيد أن الرسول ﷺ كان قمة في الشجاعة والإقدام، وقدوة في التسامح والرحمة، وأن صحابته - عليه الصلاة والسلام - كانوا نماذج نادرة في التاريخ كله من حيث الصبر والطاعة والإيمان والشجاعة. وأثبت كذلك أن القلة المؤمنة الصابرة تغلب الكثرة الكافرة. فلم يخض المسلمون تحت قيادة محمد - عليه الصلاة والسلام - معركة إلا كانوا فيها قلة مؤمنة منتصرة. ولم يطمس المؤلف الحقائق التي عرفت عن يهود خيبر من حيث شجاعتهم واستماتتهم في الدفاع عن حصونهم، وإنما شرح ذلك بأسلوب صادق صريح جعل للمعارك أهمية ورونقاً وطعماً.

ولكم تمنيت أن يصل هذا الكتاب وكتب الأستاذ باشميل الأخرى إلى أيدي ضباطنا وجنودنا في الجيوش العربية كافة، ليطلعوا على صحائف مشرقة من تاريخ نبهم العظيم وصحابته الأبطال البررة الذين قبسوا من شجاعة الرسول وسماحته وكرم أخلاقه ما جعلهم يوطدون دعائم الإسلام في ظروف قاسية مريرة رغم ما لاقوه من أحقاد اليهود وجبروتهم وطغيانهم ومكرهم وغدرهم، ولكي يقارن ضباط الجيوش العربية وجنودها بين بطولات كتائب المسلمين الأولى وهزائمنا في حزيران يوم هرب أكثر من ربع مليون ضابط وجندي أمام قلة قليلة من هؤلاء اليهود، مما ألحق بالمسلمين عاراً أبدياً لا يحوه إلا عودة هذه الأمة لدينها وتاريخها وأصولها العريقة ونبذ المبادئ الزائفة المستوردة من أعداء أمتنا وديننا.

وتحية إلى الأستاذ محمد أحمد باشميل الذي كرّس حياته للدفاع عن دينه وأمته ووطنه والإسهام في إحياء التراث الإسلامي بأسلوب شائق وقلم حر صادق هو في صراع دائم مع الباطل، راجياً له دوام التوفيق، مؤملاً أن يواصل إصدار الكتب عن معارك الإسلام الحاسمة كالقادسية واليرموك وحطين وعين جالوت.

عمان

عبد الله التل

قائد معركة القدس سنة ١٩٤٨

المقدمة

الحمد لله ولا نعبد إلا إيّاه، وصلى الله وسلم على نبيه ورسوله محمد الذي اختاره لأداء رسالته واجتباؤه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين. وبعد، فهذا هو الكتاب السادس^(١) من سلسلتنا التاريخية (معارك الإسلام الفاصلة) نضعه بين أيدي القراء الكرام، آمليين أن نكون قد وُفّقنا في إخراجهم، ونسأله تعالى أن يجعل كل أعمالنا خالية ومبرأة من شوائب السمعة والرياء وخالصة لوجهه تعالى، إنه مقلب القلوب وهو على كل شيء قدير.

- ١ -

يتضمن هذا الكتاب تفاصيل أطول معركة خاضها المسلمون في العهد النبوي، وهي معركة خيبر التي بانتصار المسلمين فيها تمّ اقتلاع جذور الوجود اليهودي الدخيل في منطقة خيبر التي هي آخر وأقوى معقل للوجود الأجنبي في جزيرة العرب. وامتداداً لاستسلام يهود خيبر (وعدددهم عشرة آلاف مقاتل) للمسلمين، استسلمت للمسلمين بقايا جيوب المقاومة اليهودية في (فدك) و(وادي القرى) و (تيماء) وكل مناطق الشمال.

وبذلك انتهت آخر مرحلة من مراحل الوجود اليهودي العابث الزنيم، الذي ظل يعبث بسكان جزيرة العرب أكثر من ألفي سنة. وبالقضاء على الكيان اليهودي العابث في خيبر، بدأ سكان الجزيرة (في ظل الإسلام الوارف) يتذوقون حلاوة الأمن والاستقرار، وأخذت أقاليم الجزيرة العربية تلفها (بسرعة) أجنحة دولة الإسلام الفتية، فبعد أقل من تسعة أشهر مضت على سقوط خيبر سقط في أيدي المسلمين أعظم معقل للشرك والوثنية وهي مكة المكرمة، ولم تمض سنتان على تطهير المسلمين خيبر من سلطان اليهود حتى دانت كل نواحي الجزيرة العربية بدين الإسلام.

(١) سبق للمؤلف أن أصدر من هذه السلسلة التاريخية كتاباً أربعة وهي: ١- غزوة بدر الكبرى، ٢- غزوة أحد، ٣- غزوة الأحزاب، ٤- غزوة بني قريظة، والكتاب الخامس من هذه السلسلة هو (صلح الحديبية).

- ٢ -

كان النبي ﷺ - منذ هاجر من مكة إلى المدينة، ومنذ دانت يثرب بالإسلام وخضعت لحكمه والتزمت بتعاليمه - وهو يعامل اليهود الموجودين في المنطقة معاملة اللين، وينتهج إزاءهم سياسة الصفح والتسامح كلما قاموا بنقض حلف أو خالفوا نصوص معاهدة، أو حتى لجأوا إلى تدبير مؤامرة تستهدف حياته ﷺ أو هدم أركان النظام الإسلامي الوليد.

فقد كان يستبعد في معاملاته التأديبية (لهؤلاء اليهود عنصر الشدة والعنف) حتى إن كل العقوبات التي أنزلها بهم جزاء تأمرهم وغدرهم ونكثهم للعهود، لم يصل منها شيء إلى سفك الدم وإزهاق الأرواح.

فكان النفي من المدينة مع مصادرة بعض الممتلكات، هو أقصى عقوبة ينزلها النبي ﷺ بهؤلاء اليهود، بالرغم من إدانتهم بما يبيح قتلهم، وبالرغم من قدرة النبي ﷺ على إبادتهم.

لأن الهدف من العقوبة (كما هي روح الإسلام في التسامح) ليس الانتقام وإشفاء الغليل بالولوغ في الدم، وإنما الهدف دفع الخطر وحسم مادة الشر واستئصال أسباب القلق والمشغبة، ليعيش المجتمع الجديد في جو من الهدوء والاطمئنان بعيداً عن حياة الدس والفوضى والأحقاد والضغائن.. حياة ما قبل الإسلام حيث اليهود لهم اليد الطولى في تغذيتها وتضعيدها، لأن كيان هؤلاء اليهود الدخلاء لا يقوم إلا على انتشار الأمراض الاجتماعية الفتاكة التي عملوا (في غفلة من الزمن) على تعميقها في مختلف قطاعات المجتمع العربي الجاهلي الوثني.

وما دام أن حسم شر هؤلاء اليهود ودفع خطرهم يمكن تحقيقه بنفيهم وإبعادهم عن يثرب وأهلها، فقد استبدل النبي ﷺ عقوبة هؤلاء اليهود المستحقين للقتل بنفيهم من المدينة ليذهبوا أحراراً إلى حيث شاءوا من بلاد الله خارج الجزيرة أو داخلها.

- ٣ -

وآخر من عفا عنهم النبي ﷺ واكتفى بنفيهم من المدينة - بعد أن ثبتت إدانتهم بنكث العهد ومحاولة اغتياله - هم يهود بني النضير، الذين حاولوا الغدر به حين شرعوا في عملية اغتياله وهو في ديارهم آمنًا في ظل حلف قائم بينه وبينهم^(١).

(١) انظر تفاصيل محاولة هؤلاء اليهود اغتيال النبي ﷺ بكاملها في كتابنا (غزوة الأحزاب).

لقد اختار يهود بني النضير (عند نفيهم من المدينة) مدينة خيبر، فأقاموا بها وجعلوا منها وطناً لهم بدلاً من المدينة. لأن خيبر بها أعظم قوة حربية لليهود في بلاد العرب. لقد كان من المفروض أن يرعوي هؤلاء اليهود فيجنحوا للسلم ويقدروا روح التسامح التي عاملهم بها النبي ﷺ بالرغم من ثبوت شروعهم في جريمة اغتياله وهو في ديارهم آمناً وفي حالة عهد وتحالف معهم، حيث كفأ عن دمائهم (مع قدرته على سفكها) وسمح لهم عند نفيهم من المدينة أن يحملوا معهم كل ما يقدرون على حمله من الأموال، فحملوا أغلاها، وقد حملوا معهم إلى خيبر شيئاً عظيماً من الذهب والفضة، لأن يهود بني النضير يعتبرون من أغنى الفئات اليهودية في جزيرة العرب.

ولكن طبيعة اليهود (هي.. هي) لا تتغير (غدر، وفتك عند المقدرة، وهدوء واستكانة عند العجز)، طبيعة لا أخلاقية ذميمة تلازمهم في كل عصر وزمان. ولهذا فإنه لم يكذب يستقر بهم المقام في (خيبر) ويشعروا بأنهم على شيء من القوة والمنعة حتى شرعوا في تحويل خيبر إلى قاعدة رئيسية للعدوان والتآمر على المسلمين. وكان من أخطر نتائج هذا التآمر (غزوة الأحزاب الرهيبة) التي تعرض لها النبي وأصحابه في المدينة، وعانوا من محنها وأهوالها ما لم يعانوا مثله في أية مرحلة من مراحل صراعهم مع أعداء الإسلام كما فصلناه في كتابنا (غزوة بني قريظة، وغزوة الأحزاب).

- ٤ -

لقد كانت هذه الغزوة الرهيبة (القرشية الغطفانية في مظهرها واليهودية في جوهرها) بمثابة درس قاس وعاء المسلمون، واتضح لهم على ضوءه أن العنصر اليهودي، خبيث كالسرطان، لا يفيد معه أي علاج غير الاستئصال، وأنك إن لم تستأصله وتجتثه بسرعة اجتث الحياة واستأصلها من جسدك.

واتضح للقيادة الإسلامية في المدينة على أثر هذا الدرس القاسي الذي استفادته من غزوة الأحزاب الرهيبة، أن مقابلة غدر اليهود وخيانتهم وتآمرهم ونكثهم بالدين والتسامح بقصد إصلاحهم وترويض نفوسهم الشريرة، وإعطائهم الفرصة ليعودوا إلى جادة الصواب ويتبعوا الحق الذي عرفوه فجحدوه، إنما هو بمثابة مسكنات، لا تجدي في القضاء على هذا السرطان (الوجود اليهودي) وإنما تمنحه الفرصة ليغتال الحياة والعافية (ببطء) في الجسد الذي يكون فيه.

- ٥ -

وعلى أساس هذه النظرة الواقعية الجديدة التي أوجدتها (لدى القيادة الإسلامية في المدينة) كوارث وبلايا حملة الأحزاب الباغية، التي كادت تعصف بالكيان الإسلامي كله وتقتلعه من الجذور، والتي جاءت من خيبر قبل أن تجيء من مكة وصحارى نجد. وعلى أساس هذه النظرة عدل النبي الأعظم ﷺ عن سياسة اللين التي كان ينتهجها إزاء تصرفات هذا العنصر المخرب الهدام.

فالتزم (في معاملة هؤلاء اليهود الذين اتضح من تصرفاتهم أنهم لن يرضوا بأقل من الإطاحة به وقطع تيار دعوته) التزم في معاملتهم سياسة الحزم والشدة والعنف، لا رغبة في الانتقام وشفاء الغليل، فالنبي ﷺ كما دلت تصرفاته الحكيمة بعيداً كل البعد عن هذه الروح، وإنما كان باعث هذه السياسة الحازمة الجديدة التي انتهجها مع هؤلاء اليهود (بعد زلزلة الأحزاب) هو الرغبة الشريفة في أن يسود المنطقة جوّ من الطمأنينة والأمن والاستقرار.. دلت التجارب العملية المتكررة على أنه لا يمكن توفيره للناس ما بقي لليهود سلطان أو نفوذ في جزيرة العرب كلها.

- ٦ -

وأول نتيجة لالتزام هذه السياسة الصارمة الجديدة إزاء تكرار غدر اليهود وتآمرهم، إنزال المسلمين (في السنة الرابعة من الهجرة) تلك العقوبة الصارمة بيهود بني قريظة في المدينة حيث تم إعدام حوالي ثمانمائة منهم جزاء ارتكابهم - ضد المسلمين - تلك الجرائم الخسيسية البشعة التي حوت معاني الغدر والخيانة والنكث والتآمر، والتي أقدموا عليها في أخرج ظرف يمر به المسلمون، بقصد المشاركة في القضاء عليهم ومحو كياناتهم من الوجود.. حيث انقلبوا على المسلمين وناصرهم العدا بل وأعلنوا عليهم الحرب، وهم في أخرج موقف يواجهون فيه ساعة مصيرهم، وعقربها يهتز زاحفاً نحو الصفر ليعلن نهايتهم على أيدي قوات الأحزاب الضاربة المحيطة بالمدينة من كل جانب.. لولا المعجزة التي جاءت من عند الله بدحرمهم وتشتيت شملهم.

فقد كان بين يهود بني قريظة والمسلمين معاهدة حلف عسكري (بالإضافة إلى معاهدة عدم الاعتداء) تنص بأن يلتزم الفريقان معاً بواجب الدفاع عن يثرب ضد أي عدوان خارجي ضد أي منهما^(١).

(١) انظر كامل بنود هذه المعاهدة في كتابنا (غزوة أحد) ص ٣٤ وفي كتاب: الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله.

غير أن يهود بني قريظة عندما أطبقت جيوش الأحزاب الضاربة على المسلمين في المدينة نقضوا تلك المعاهدة غدرًا وخيانة، مستغلين وقوع المسلمين في ذلك المأزق الحرج. ولم يكتف بنو قريظة بنقض العهد وإلغاء الحلف الذي بينهم وبين المسلمين، بل سارعوا إلى وضع أيديهم في أيدي الغزاة، الأمر الذي ضاعف من محنة المسلمين وزاد من كربهم، حيث جعلهم تصرف بني قريظة هذا بين شقي الرحا.. جيوش الأحزاب من الأمام ويهود بني قريظة (حلفاء الأمس) من الخلف بضواحي المدينة. وكم هو فظيع أن ترى حليفك، قد انحاز إلى أعدائك الغزاة وشهر السلاح ليضربك به من الخلف في الوقت الذي تتوقع فيه أن يكون واقفًا بهذا السلاح إلى جانبك لصد العدوان عليك كحليف يزن كلمته التي أعطاها بميزان الشرف، ولكنهم اليهود وكفى.

ومن هنا (وعلى قدر بشاعة الجريمة التي ارتكبتها يهود بني قريظة) جاء العقاب صارمًا رادعًا كأعنف ما يكون.. ثمانمائة مقاتل من يهود بني قريظة أعدمهم النبي ﷺ في ليلة واحدة بعد محاكمة نزيهة عادلة^(١).

- ٧ -

لقد كانت محاكمة يهود بني قريظة وما نتج عنها من عقوبة حازمة صارمة، نقطة التحول الأولى في سياسة قيادة المسلمين في المدينة من اللين إلى الشدة في معاملة اليهود الغادرين.

إذ تكون لدى المسلمين (على ضوء التجارب المريرة المتلاحقة) اقتناع كامل بأن انتهاج سياسة اللين والعتف والتسامح إزاء ما يرتكبه اليهود من جرائم الغدر والنكث والخيانة والتآمر، لم ولن تغير من طبيعة الدس والتخريب والتآمر الساجحة في دماء هؤلاء اليهود، شيئًا، بل أطمعتهم ووسعت من دائرة الأحلام التي كانت تراود كبار زعمائهم بالعودة إلى يثرب وبسط ظل سلطانهم الأسود الدخيل عليها من جديد.

ولم يعد هناك شك لدى قيادة المسلمين العليا في المدينة - بعد الذي حدث في غزوة الأحزاب المزلزلة - أن خبير (بعد أن استوطنها المنفيون من يهود بني النضير) أصبحت القاعدة الرئيسية للعدوان على المسلمين، وأن هؤلاء اليهود لن يكفوا عن السعي - بكل الوسائل - للقضاء على المسلمين مهما بلغ المسلمون في التسامح والعتف.

(١) انظر رد المؤلف لشبهات الطاعنين المتفقدين لهذه المحاكمة في كتابه الرابع (غزوة بني قريظة) الفصل الرابع.

لذلك صار من البديهي - بل من المحتم على المسلمين والحال هذه - أن تكون خطوتهم التالية (بعد تصفية الوجود اليهودي في يثرب) غزو اليهود في خيبر لهدم سلطانهم، وذلك كعمل حربي وقائي لا بد من القيام به، لضرب قواعد العدوان ونسف أوكار الكيد والتآمر، والتي إن لم يضربها المسلمون ويدمروها سيظل كيانهم معرضاً للخطر الدائم في أية لحظة من قبل هذه القواعد اليهودية التي نسجت في أوكارها بخير خيوط مشروع حرب الأحزاب العدوانية الشاملة ضد المسلمين، والتي لا يستبعد أن يحوك اليهود في ظلماتها، (إذا ما تركوا وشأنهم أحراراً) مؤامرة حرب أحزاب شاملة ثانية ضد المسلمين قد تكون أعظم وأخطر من حرب الأحزاب الأولى^(١).

- ٨ -

وعلى ضوء التقييم الصحيح للأحداث وربط الأسباب بالمسببات وعلى ضوء التحليل الدقيق لبواعث عدوان الأحزاب المخيف على المسلمين، اتضح للقيادة العليا في المدينة أن قوات الأحزاب الوثنية التي تمكن المسلمون (بأعجوبة) من دحرها، وقوات بني قريظة التي أنزل المسلمون بها ذلك العقاب الصارم الرادع.. اتضح للمسلمين أن كل هذه القوات لا تمثل في الواقع إلا ذنب الأفعى، وأن الذي يمثل رأس هذه الأفعى على الحقيقة هو العناصر اليهودية التي كانت لا تزال قابعة في أوكارها بخير.

لذا فإن نجاح القيادة الإسلامية في المدينة في صد العدوان الوثني الرهيب أمام الخندق، وتمكنها من إبادة عناصر الغدر والخيانة من يهود بني قريظة إنما هو فقط بمثابة قطع ذنب الأفعى لا غير.

ذلك أن كل ما لاقاه المسلمون على أيدي الأحزاب الوثنية وعصابات الغدر القرظية من أهوال وويلات وزلازل جعلت المدينة بإسلامها ودماؤها وأعراضها وأمواها في مهب العاصفة.. ما كان ليحدث لولا خير التي انبعثت منها وحدها شرارة كل تلك الأهوال والمصائب التي حاقت بالمسلمين في المدينة.

وحيث أن قطع ذنب الأفعى مع الإبقاء على رأسها لا يعني شيئاً لمن يريد حماية نفسه من خطر هذه الأفعى القاتلة، فإن إتباعه الرأس الذنب أمر لا بد له من الإقدام عليه.

(١) وفعلاً حاول يهود خيبر السعي لدى أعراب نجد لشن حرب أحزاب جديدة ضد المسلمين حينما قرروا إيفاد بعثة برئاسة رأسهم وسيدهم (أسير بن زارم) إلى ديار غطفان لإقناعهم بالمشاركة في غزو جديد ضد المسلمين في المدينة، كما فصلناه في كتابنا الخامس «صلح الحديبية».

وعلى أساس هذا المنطق السليم قرر النبي ﷺ القيام بغزو خيبر ليتبع ذنب الأفعى رأسها، فنسف آخر وأخطر معقل لليهود الدخلاء في جزيرة العرب باحتلاله منطقة خيبر في أوائل السنة السابعة من الهجرة.

ثم تداعت بعد سقوط خيبر بقية الأوكار اليهودية في فذك وتيماء ووادي القرى، ف وقعت جميعها في أيدي المسلمين.

وبذلك تخلصت جزيرة العرب من داء أخطر غدة سرطان كانت تفتك طيلة قرون عديدة بكيانات الشعوب التي كان يواظنها هؤلاء اليهود الدخلاء.

ولعل في الدور الرئيسي الذي قامت به العقيدة الإسلامية في مجال الانتصارات الساحقة التي حققها في خيبر ألف وأربعمائة من المسلمين ينقصهم كل شيء إلا الإيمان على أربعة عشر ألف مقاتل من اليهود وأحلافهم الذين لا ينقصهم أي شيء يحتاجونه لكسب الحرب سوى الإيمان.. لعل في تفهم المسلمين - والعرب خاصة - لدور العقيدة الرئيسي هذا حافزاً يحفزهم على العودة إلى ربهم والتمسك بالعقيدة الإسلامية الصادقة.. هذا التمسك الذي بدونه يستحيل عليهم بلوغ ما يصبون إليه ويتوقون من عزة وكرامة واستقرار وانتصار.

نسأل الله تعالى أن يلهمنا جميعاً الرشد ويجنبنا مزالق الانحراف لنسير على صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم بهدايته وتوفيقه من خيار هذه الأمة، إنه سميع مجيب.

محمد أحمد باشميل

جدة.. المملكة العربية السعودية

١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م

الفصل الأول

موجز عن تاريخ اليهود في خيبر

- كيف ومتى جاء اليهود إلى خيبر؟
- حياذ يهود خيبر عبر القرون.
- لماذا تحولت خيبر إلى قاعدة للعدوان على المسلمين، بعد حياذها؟؟!
- دور خيبر في عدوان الأحزاب على المسلمين عام الخندق.
- كيف تم إجلاء اليهود من خيبر؟

قبل الدخول في تفاصيل معركة خيبر الفاصلة والتي (بانتصار المسلمين الساحق فيها) تلاشى الوجود اليهودي الدخيل من جزيرة العرب نهائياً.. قبل الدخول في تفاصيل هذه المعركة، لابد من إعطاء القارئ الكريم لمحة عن تاريخ وأعمال وتصرفات يهود خيبر قبل أن يقوم النبي ﷺ بغزوهم والقضاء على سلطانهم.

جغرافية خيبر: تعتبر خيبر - ولا تزال منذ أقدم العصور - واحة واسعة ذات تربة خصبة معطاء وذات عيون ومياه غزيرة.

وتربتها تربة جيدة للغاية، تصلح لزراعة الحبوب والفواكه على اختلاف أنواعها، كما أنها تعتبر من أكبر واحات النخيل في جزيرة العرب.

ويكفي لصحة هذا القول أن المسلمين أحصوا من النخيل ما بالنظا (وهو أحد أودية خيبر الكثيرة) فوجدوا بها أربعين ألف نخلة.

وتقع خيبر في الشمال الشرقي للمدينة وعلى بعد حوالي سبعين ميلاً منها.. متى جاء اليهود إلى خيبر؟ منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة كانت منطقة يثرب والمناطق الشرقية والغربية وكل المنطقة الشاسعة الممتدة في الحجاز من يثرب حتى الحدود الشمالية المتاخمة للشام خاضعة لسلطان العمالقة، وهم قوم جابرة من العرب البائدة^(١).

(١) يقسم مؤرخو العرب، الأجيال العربية إلى أنواع ثلاثة:

١- العرب البائدة، وهم الذين انقرضوا انقراضاً كاملاً ولم يبق لهم من عقب أو نسل، ومن هؤلاء طسم وجديس وعاد وشمود والعمالقة وعييل.

٢- العرب العاربة، وهم القحطانيون الذين كانوا أول من تكلم العربية وموطنهم الأصلي اليمن وحضرموت.

٣- العرب المستعربة، وهم العدنانيون وكل أبناء نبي الله إسماعيل منهم؛ لأن لغة إسماعيل الأصلية (لغة أبيه إبراهيم عليه السلام) السريانية، إلا أن إسماعيل جد العدنانيين كان أول من تكلم العربية لغة أصهاره القحطانيين الذين تزوج منهم ونشأ بينهم في مكة.

انظر تفصيلاً أوسع عن قصة اتصال اليهود بجزيرة العرب، في الفصل الأول من كتابنا الرابع (غزوة بني قريظة).

بل كانت المناطق التي تشمل كل ساحل الخليج العربي وعمان ونجد والحجاز حتى الشام كانت خاضعة لسلطان العمالقة منذ تبللت الألسنة، وبعد التفرق بعد عهد النمرود بن كنعان بن حام بن نوح.

أما صلة بني إسرائيل بمنطقة خيبر فهناك اختلاف بين المؤرخين في الوقت الذي اتصل فيه هذا العنصر الدخيل بخيبر.

فبعضهم يقول: إن الوجود اليهودي الدخيل في خيبر يعود إلى التاريخ الذي استوطن فيه اليهود منطقة يثرب بعد وفاة نبي الله موسى - عليه السلام - على أثر عودة الحملة العسكرية التي ذكر الإخباريون الإسلاميون أن نبي الله موسى أرسلها (قبيل موته) لإخضاع وإبادة جبابرة العمالقة الذين يقطنون يثرب والمناطق الشمالية والشرقية والغربية من الحجاز بما في ذلك خيبر. هذه الحملة التي (كما يقول المؤرخون الإسلاميون) مات نبي الله موسى وهي في طريق عودتها من الحجاز بعد أن أبادت جميع العمالقة المفسدين فلم يسمح لها خلفاء النبي موسى - عليه السلام - بالإقامة في الشام بسبب أن رجال هذه الحملة أبقوا على أسير واحد من العمالقة لم يقتلوه، وذلك مخالف لشريعة اليهود، التي تقضي كما في الإصحاح العشرين من سفر التثنية في التوراة بإعدام جميع أسرى العدو.

ويقول هؤلاء المؤرخون أن رجال هذه الحملة لما منعهم خلفاء النبي موسى من دخول الشام عادوا إلى الحجاز واستوطنوا يثرب والمناطق الشمالية والشرقية من الحجاز وأن يهود خيبر، هم من بقايا رجال هذه الحملة التي استوطنت يثرب وخيبر منذ حوالي سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد.

وقد ذكر هذا القول ابن خلدون وأبو الفرج الأصبهاني والسمهودي^(١) وغيرهم.

ويرى الفريق الآخر من المؤرخين (وبينهم بعض الأوربيين) أن الوجود اليهودي في خيبر لم يكن إلا بعد الميلاد بحوالي ثمانين سنة.

ومن هذا الفريق الإمام الطبري الذي ذكر في تاريخه أن أول قدوم اليهود إلى الحجاز إنما كان بعد أن وطئ مجتصّر الشام وخرّب بيت المقدس.

(١) انظر كتاب العبر لابن خلدون القسم الأول المجلد الثاني ج ٢ ص ١٦٨ والأغاني للأصبهاني قصة اليهود ج ١٩ ووفاء الوفاء للسمهودي ج ١ ص ١٥٦ وما بعدها.

وقد أشار الدكتور جواد علي في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) ج ٦ ص ١٧ قائلاً: (وزُعمَ أن يهود خيبر من نسل (ركاب) المذكور في التوراة - الملوك الثاني الإصحاح العاشر الآية ١٥ - ٢٨ - وأن يونادب (جندب) تبدى مع أبنائه ومن اتبعه وعاش عيشة تقشف وزهد وخشونة وأن نسلهم هاجر بعد خراب الهيكل الأول إلى الحجاز حتى بلغوا خيبر فاستقروا بها واشتغلوا بزراعة النخيل والحبوب وأقاموا فيها قلاعاً وحصوناً تحميهم من غارات الأعراب عليهم وقد أخرجوا منها وأجلوا عنها في زمان عمر بن الخطاب) أهـ.

وبعض المؤرخين يذكرون أن يهود خيبر ليسوا من بني إسرائيل ، وإنما هم من أبناء العرب الذين دانوا باليهودية، وقد ذكر ابن إسحاق (كما رواه عنه ابن هشام) أن عائلة مرحب فارس خيبر المشهور الذي قتله علي بن أبي طالب هو من قبيلة حمير. وهناك رأي آخر يشير إلى أن صلة بني إسرائيل بخيبر ويثرب كلها إنما كانت في عهد نبي الله الملك داود، (أي: بعد موسى وقبل المسيح).

وقد ذكر هذا الرأي السهمودي في كتابه (وفاء الوفاء) ج ١ ص ١٥٨ فقال: إن نبي الله داود غزا العماليق في المدينة فسلب الله عليهم الدود في أعناقهم فهلكوا عن آخرهم.

وذكر بعض المؤرخين أن سبب نزول اليهود خيبر والحجاز هو أن بعض علمائهم كانوا يجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة وأنه يهاجر إلى بلد فيه نخل بين حرتين فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة، فلما رأوا تيماء وفيها النخل، نزلها طائفة منهم، وظن طائفة أنها (خيبر) فنزلوها ومضى أشرفهم وأكثرهم إلى يثرب فنزلوها واستوطنوها. نقل هذا (أيضاً) السهمودي في كتابه (وفاء الوفاء) ج ١ ص ١٦٠ عن ابن النجار، إلا أنه (كما هي عادة المؤرخين القدامى) لم يحدد التاريخ الذي جاء فيه هؤلاء اليهود إلى خيبر ويثرب، وإنما اكتفى بذكر السبب فقط.

والذي لا جدال فيه (حسب ما رواه الإخباريون الإسلاميون) هو أن اليهود لجأوا إلى الحجاز (وخيبر من الحجاز) في فترتين رئيسيتين:

الفترة الأولى حوالي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد بعد وفاة نبي الله موسى - عليه السلام - والفترة الثانية بعد الميلاد عقب استيلاء الرومان على فلسطين وتحرير الهيكل عام

٧٠ ميلادية وعقب تنكيل (هيدريان) بالعبانيين عام ١٢٢ م.

وقد أشار سفر (صموئيل الأول) من التوراة إلى أن اليهود سكنوا يثرب وأعالي الحجاز (وخيبر من أعالي الحجاز) سكنوها (كما يقول السفر) منذ العهد الذي أرسل فيه نبي الله موسى ذلك الجيش لإبادة العمالقة في منطقة يثرب وخيبر وكل أعالي الحجاز^(١). وقد جزم الدكتور جواد علي الذي هو أكثر المؤرخين اعتناء بتاريخ العرب قبل الإسلام جزم في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام)^(٢) بعدم صحة ما تناقله الإخباريون من أن الوجود اليهودي في خيبر وكل أعالي الحجاز يرجع إلى أواخر عهد النبي موسى - عليه السلام قائلاً:

أما متى دخل اليهود منطقة يثرب وكيف استقروا في خيبر والمناطق الأخرى؟ فعلم ذلك عند الله. وليس الذي يرويه أهل الأخبار عن إرسال موسى جيشاً إلى الحجاز واستقرار ذلك الجيش في يثرب بعد فتكه بالعمالق وبعد وفاة موسى، ثم ما يذكرونه من هجرة داود مع سبط يهوذا ثم عودته إلى إسرائيل^(٣) .. وأمثال هذا إلا قصصاً من هذا النوع الذي ألفنا قراءته في كتب أهل الأخبار، لا أستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة أو من أسلم منهم لإثبات أنهم ذوو نسب وحسب في هذه الأرضين قديم.. وأنهم كانوا ذوي بأس شديد، وأن تاريخهم في هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء إسرائيل، وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين.

غير أن الدكتور جواد علي إذا كان قد نفى أن يكون اليهود قد استوطنوا خيبر ويثرب وباقي مناطق الشمال قبل الميلاد (كما يذكر المؤرخون الإسلاميون) فإنه أكد صحة أخبار استيطانهم لهذه المناطق بعد الميلاد على أثر ظهور الرومان واستيلائهم على فلسطين فقد قال في كتابه المذكور:^(٤)

(أمّا ما ورد في روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم في بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم، فإنه يستند إلى أساس تاريخي صحيح).

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٠.

(٢) ج ٦ ص ٩ وما بعدها.

(٣) انظر تاريخ الطبري وكتاب الأغاني ج ١٩ ص ٩٤ وما بعدها الطبعة القديمة، ووفاء الوفاء ج ٦ ص ١٦٠.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٠.

ولست أدري لماذا اعتبر الدكتور جواد علي أخبار المؤرخين الإسلاميين التي تقول بوجود اليهود في خيبر وكل مناطق الشمال قبل الميلاد أخباراً غير صحيحة، وجزم بصحة روايات الإخباريين الذين قالوا: أن هجرة اليهود إلى خيبر وغيرها من المناطق إنما كانت بعد الميلاد؟

إن الدكتور جواد علي لم يقدم لنا دليلاً قاطعاً على صحة ما ذهب إليه، سوى الافتراض، والافتراض لا يكون أساساً صحيحاً من الناحية التاريخية. لقد قال الدكتور جواد علي: فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين. أهـ.

والحقيقة أن كل أخبار ما قبل الإسلام من تاريخ الأمم الغابرة لا يمكن الجزم بصحتها أو بطلانها، بل هي محتملة أن تكون قد حدثت وأن لا تكون قد حدثت فهي دائماً (سواء ما كان منها قبل الميلاد أو بعده) محل الافتراض، اللهم إلا ما ورد بها نص صريح في القرآن أو الحديث يؤكد صحتها.

وعليه فإنه إذا كان (كما قال الدكتور جواد علي): يحتمل أن يكون يهود خيبر وباقي المناطق هم من نسل المهاجرين الفارين من اضطهاد الرومان بعد الميلاد عام ٧٠م، أو ١٢٢، فإنه يحتمل كذلك أن يكون هؤلاء اليهود هم من نسل الذين عادوا إلى الحجاز قبل الميلاد عقب وفاة النبي موسى عليه السلام، وأنهم استوطنوا خيبر ويثرب وباقي المناطق قبل الميلاد كما يقول الطبري وابن إسحاق وصاحب الأغاني وكل الإخباريين الإسلاميين.

لأن الذين رووا هجرة بعض اليهود إلى الحجاز عقب خراب الهيكل بعد الميلاد، هم أنفسهم الذين رووا هجرة بعض هؤلاء اليهود عقب وفاة النبي موسى عليه السلام قبل الميلاد.

وإذا كان شيوخ قصة خراب الهيكل بعد الميلاد هو سند الدكتور جواد علي في تصحيح ما ذهب إليه أو رجحه من أن هجرة اليهود إلى خيبر إنما كانت بعد الميلاد، وإبطال ما ذكره المؤرخون الإسلاميون من وجود اليهود في خيبر والحجاز قبل الميلاد، فإن هناك قصة روتها أصدق المصادر (وهو القرآن) وهي قصة انهيار سد مأرب ونزوح

اليمنيين إلى يثرب عقيب هذا الانهيار.. هذه القصة التي هي أكثر شيوعاً بين المؤرخين العرب أصحاب الاختصاص من قصة خراب الهيكل ترجح أكثر فأكثر أن العنصر اليهودي الدخيل كان موجوداً في المنطقة قبل الميلاد وقبل خراب الهيكل وقبل تنكيل هديران باليهود في فلسطين.

ذلك أن قصة هجرة أجداد الأوس والخزرج من اليمن إلى منطقة الحجاز عقيب انهيار سد مأرب وسكناهم إلى جانب اليهود في يثرب وصراعهم معهم حتى تغلبوا عليهم تكاد تكون (بين عامة المؤرخين) من الأخبار المتواترة.

فهذه القصة - مع افتقارها إلى التحديد الدقيق في الوقت بالسند الصحيح - هي على كل حال ترجح كفة القائلين بوجود اليهود في المنطقة قبل الميلاد أكثر من كفة القائلين بأنهم لم يهاجروا إلى خيبر وباقي المناطق إلا بعد خراب الهيكل وهو ما قال الدكتور جواد على أنه يستند إلى أساس صحيح.

نقول هذا لأنه يكاد يكون من المتواتر أن انهيار سد مأرب في اليمن وهجرة الأوس والخزرج إلى الحجاز وتصارعهم مع اليهود في يثرب إنما كان قبل خراب الهيكل بعشرات السنين، إذ أنه كان على أقل تقدير في أوائل السنة الميلادية.

وهذا يعني أن اليهود كانوا موجودين في خيبر ويثرب قبل الميلاد، لأن سلطان اليهود الدخيل لا يمكن أن يكون على تلك القوة في المنطقة إلا بعد أن يكون قد مرّ عليهم عشرات السنين قبل الميلاد.. إذ لم يكن هناك خلاف بين المؤرخين في أن الأوس والخزرج الذين هاجروا من اليمن في أوائل القرن الميلادي الأول إلى الحجاز قد وجدوا اليهود هناك وظلوا ينازعونهم السلطان عشرات السنين حتى تغلبوا عليهم في يثرب.. وهذا (دونما شك) يرجح ما ذهب إليه المؤرخون الإسلاميون من أن اليهود قد استوطنوا خيبر ويثرب إما عقب وفاة النبي موسى عليه السلام وإما في عهد الملك (النبي) داود عليه السلام على ما ذكره الطبري وغيره.

وهذا مجرد ترجيح في مجال الافتراض، لأن قصة هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب وقصة هجرة اليهود في كلا الفترتين لا يمكن تحديد أي منها تحديداً دقيقاً لأنهما (كما قلنا) من الأخبار التي تحتمل الصحة والبطلان والتحديد فيهما لا يكون إلا من باب الافتراض، لأن أخبار ما قبل الإسلام لا يمكن الجزم بإثباتها أو نفيها اللهم إلا ما ورد فيه نص إسلامي صريح بهذا النفي أو ذلك الإثبات.

اليهود عنصر دخيل في الجزيرة: وعلى كل حال - وسواء استوطن اليهود خيبر وباقي المناطق قبل الميلاد أو بعده - فإن المجتمع عليه عند جميع المؤرخين (إسلاميين وأجانب) أن اليهود في خيبر ويثرب وباقي المناطق هم أجنب دخال مستعمرون لا تربطهم بأي من سكان هذه المناطق في جزيرة العرب أي رابطة من لغة أو دين أو دم، وإنما هم غزاة، أو لاجئون سيطروا على خيبر ويثرب وباقي المناطق في غفلة من الزمن وفي وقت كان العرب الوثنيون فيه تمزقهم روح الجاهلية القبلية الضيقة التي ساهم وجودها وتحكمها في المجتمع العربي.. في التمكين لهؤلاء اليهود الدخلاء في هذه المناطق من جزيرة العرب.. الذين زادوا المجتمعات العربية فساداً على فساد، كما هي طبيعة النصر اليهودي الذي لا يكون له نفوذ في أرض إلا وأشاع فيها الفساد وبذر بذور الشحنا وأشعل نيران التفرقة والتخاصم بين أهلها.

وقد ظل العنصر اليهودي الدخيل هذا شأنه منذ استوطن خيبر وباقي الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية حتى أقتلع النبي ﷺ جذور هذا العنصر نهائياً بالعمليات الحربية التي قام بها في خيبر وباقي النقاط الأخرى التي كانت واقعة تحت سلطان هؤلاء اليهود المحتلين.

شجاعة يهود خيبر وقوة وحدتهم: وشيء يجب أن لا يغيب عن بال المؤرخ وهو أن يهود خيبر كانوا (عبر العصور) بالإضافة إلي تفوقهم على جميع اليهود من ناحية الشجاعة والصبر على القتال.. كانوا غاية من الوحدة والتماسك فيما بينهم.. عكس اليهود الآخرين الذين لم ينجو من آفات الاختلاف - بل والافتتال فيما بينهم أحياناً - . كما أن يهود خيبر لم ينشب بينهم وبين جيرانهم العرب الوثنيين أي نزاع مسلح. مما ساهم في جعلهم أقوى قوة يهودية دخيلة في بلاد العرب.

فإذا كانوا يهود يثرب (مثلاً) لم يسلموا من نشوب حرب أهلية قبلية فيما بينهم فرقت وحدتهم وصدعت كياناتهم، كما حدث بين بني قينقاع وبني النضير من تخاصم وتقاتل وعداء شديد ظل أثره باقياً بينهما حتى بعد ظهور الإسلام ومخاصمة الفريقين له. إذا كان يهود يثرب قد تعرضوا لهذه الانشاقات والاصطدامات الدامية فيما بينهم عبر وجودهم في يثرب.. فإن يهود خيبر لم يرو أحد من المؤرخين (فيما أعلم) أنهم تعرضوا (منذ أن وطئت أقدامهم منطقة خيبر) لشيء مما تعرض له يهود يثرب من اختلافات شديدة واصطدامات دامية.

الأمر الذي جعل يهود خيبر (طيلة وجودهم الاستعماري) في هذه المنطقة متحدين لم تبدد شيئاً من طاقتهم العسكرية أو وحداتهم السياسية حروب أهلية أو نزاعات قبلية كما هو الحال بالنسبة لليهود يثرب.

كما أن يهود يثرب، إذا كانوا قد تعرضوا في الفترة التي مرت على وجودهم (قبل الإسلام) لضربات عسكرية عنيفة من جيرانهم العرب كادت تقتلع وجودهم وتهدد كياناتهم في يثرب كما حدث لهم في أول القرن الأول من الميلاد على أيدي المهاجرين اليمانيين من منطقة (مأرب) - الأوس والخزرج - الذين منذ استقرارهم في يثرب ظلوا ينازعون هؤلاء اليهود السلطان لاستئثارهم بالمناطق الزراعية الخصبة (دونهم) في المدينة. ولنظرة هؤلاء اليمانيين إلى هؤلاء اليهود كعنصر أجنبي دخيل على هؤلاء العرب، الأمر الذي ساعد على إشعال نار المقت في نفوس اليمانيين، حتى تمكنوا من خضد شوكتهم بمساعدة إخوتهم الغساسنة اليمانيين الذين خفوا لنجدتهم من الشام. ثم من قهرهم نهائياً بقيادة مالك بن العجلان الذي وضع حداً (قبل الإسلام) لسلطان هؤلاء اليهود المطلق على يثرب.

فقد ذكر المؤرخون أن الضربة العنيفة التي أنزلها الأوس والخزرج باليهود بقيادة سيد الأوس والخزرج مالك بن العجلان (قبل الإسلام بعدة قرون) كادت تستأصل شأفة العنصر اليهودي الدخيل لولا أن زعماء هؤلاء اليهود انحنوا للعاصفة فسلموا بالهزيمة ثم (لكي ينجوا من الهلاك) قبلوا الانضواء (بالحلف) تحت لواء مختلف القبائل اليمانية المنتصرة عليهم (الأوس والخزرج) فاندمجوا فيهم، وبذلك ضمنوا سلامة أرواحهم وممتلكاتهم، ولكن على حساب التسليم بهدم سلطانتهم السياسي والعسكري الذي كان سائداً على يثرب.

وهكذا فإن يهود يثرب إذا كانت الهزات العنيفة التي زلزلت سلطانتهم ومزقت وحدتهم، سواء بسبب تعرضهم لهجمات المهاجرين اليمانيين الضاربة أو بسبب النزاعات القبلية المسلحة التي نشبت بين اليهود أنفسهم قبل ظهور الإسلام بعدة قرون، فإن يهود خيبر ظلوا (طيلة وجودهم الاستعماري) بمنجاة عن مثل هذه الهزات الخطيرة التي ذهبت بسلطان اليهود في يثرب.

الأمر الذي أبقى على وحدة يهود خيبر وتماسكهم. وذلك دونما شك من أعظم أسباب تفوقهم في القوة والمنعة والشجاعة على جميع العناصر اليهودية الدخيلة المبعثرة في ذلك الركن من جزيرة العرب.

فالمؤرخون مجمعون على أن يهود خيبر أشجع وأقوى العناصر اليهودية المحاربة في جزيرة العرب دوغماً استثناء.

ولعل أكبر دليل على صحة هذا القول، هو أن يهود يثرب (بالرغم من كونهم أكثر عدداً وأوسع ثراءً من يهود خيبر) فإنهم قد جبنوا عن مواجهة المسلمين في أية معركة فاصلة، إذ فضّلوا الاستسلام ثم النفي على خوض أية معركة فاصلة عندما وصلوا في عدائهم للمسلمين إلى درجة النزاع المسلح كما حدث لبني قينقاع ثم بني النضير وأخيراً بني قريظة^(١).

(١) كان لمالك بن العجلان اليماني فضل كبير (قبل الإسلام) في خسد شوكة اليهود في يثرب وجعلهم تبعاً لليمانيين الذين ساهم الله فيما بعد (الأنصار) وذلك بعد أن كان هؤلاء اليهود الدخلاء ذوي سطوة وجبروت وطغيان في منطقة يثرب، وخاصة ملكهم الطاغية (القطيون).

فقد ذكر السمهودي في كتابه (وفاء الوفاء ج ٢ ص ١٧٩) أن (القطيون) كان قد أجبر سكان يثرب من اليهود وغيرهم على أن لا تزف عروس إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفتضها ثم ترسل لزوجها وظل يمارس هذا العمل الفظيع ردحاً من الزمن فلما نزل الأوس والخزرج يثرب بعد انهدام سد مأرب أراد طاغية اليهود (القطيون) أن يسير فيهم بتلك السيرة المهينة.

إذ تزوجت أخت مالك بن العجلان اليماني رجلاً من بني سليم في يثرب فأرسل القطيون رسولاً في ذلك طالباً أن تدخل عليه العروس كالعادة قبل أن تزف إلى زوجها، وكان مالك أخوها غائباً، فخرجت هاربة من العار تطلبه، فمرت بقوم فيهم أخوها مالك، فنادته، فقال: لقد جئت بسبة الدهر يا هتاه، تناديني ولا تستحي؟ فقالت: الذي يراد بي أكبر، ثم أخبرته بأن القطيون طلبها قبل أن تدخل على زوجها، فثارت حية مالك وقال لأخته: أنا أكفيك ذلك، فقالت: وكيف؟ فقال: أتزيا بزني النساء وأدخل معك عليه (أي القطيون) فأقتله.. فلما أمسى مالك اشتمل على السيف ودخل على (القطيون طاغية اليهود) متنكراً مع النساء فلما خف من عنده، وثب عليه فقتله، ثم أخذ أخته وانصرف بها إلى دار قومه بعد أن مسح عن سكان يثرب أشنع عار كانوا يوصمون به. فثارت نائرة اليهود لقتل ملكهم القطيون وأرادوا أن يوقعوا بالعرب، إلا أن مالك بن العجلان توجه في وفد من قومه إلى من بالشام من قومهم (الغساسنة) ، وهناك دخل على ملك الغساسنة (أبي جبيلة) وشكا له طغيان اليهود الدخلاء وغلبيتهم على عرب يثرب وأنهم يحشون أن يطردهم اليهود من ديارهم (وخاصة بعد مصرع ملكهم القطيون) ثم طلب النجدة من ملك غسان، فلبى طلبه وتوجه بنفسه إلى يثرب على رأس جيش عظيم، ولما وصل أبو جبيلة يثرب أوقع باليهود وأحدث فيهم مقتلة عظيمة أريد فيها أكثر قادة وزعماء اليهود، فعزت الأوس والخزرج بعد ذلك ولم يبق بعد هذه الحادثة لليهود في يثرب أي سلطان يخشاه العرب من الناحية العسكرية حتى جاء الله بالإسلام فعم سلطانة العادل جميع شبه الجزيرة في العهد النبوي فنسخ بذلك ما تبقى لليهود الدخلاء من نفوذ في أي مجال من المجالات (انظر كتابنا، غزوة بني قريظة في الفصل الأول والثاني الخاص بتاريخ اليهود في يثرب).

ولن نذهب بعيداً لتأييد القول بالتاريخ ينبؤنا بأن المسلمين في نزاعهم المسلح مع العناصر اليهودية الدخيلة في بلاد العرب لم يلاقوا من المقاومة مثلما لاقوا من يهود خيبر حيث اشتبكوا معهم في معارك ضارية دافع فيها اليهود عن معاقلم حصناً، حصناً.. ولم تستسلم حصونهم إلا بعد أن سقط جميع قادتهم وزعمائهم قتلى في هذه المعارك. ولقد جعلت هذه الشجاعة والشراسة التي أبداها يهود خيبر في مقاومتهم.. جعلت بعض المؤرخين (منهم بعض الأوربيين) يعتقدون أن يهود خيبر هم من أصل عربي دانوا (على مدى العصور) باليهودية. وقد ذكر إمام المغازي ابن إسحاق أن أسرة آل مرحب اليهودية في خيبر هم من قبيلة حير اليمنية^(١).

حياد يهود خيبر: ذاك هو موجز عن تاريخ صلة يهود خيبر بجزيرة العرب قبل الإسلام.. وشيء آخر يجب أن لا يغيب عن البال (وقد يحتاج إلى تفسير)، وهو أن يهود خيبر بالرغم من شدة بأسهم في الحرب وكثرة عددهم.. وبالرغم من أنهم يتفوقون في العقيدة والمذهب مع يهود يثرب، فإن يهود خيبر هؤلاء، قد ظلوا طيلة مئات السنين (قبل الإسلام) على الحياد بالنسبة للنزاعات المسلحة العنيفة التي نشبت وظلت ناشبة عشرات السنين بين العرب اليمانيين (الأوس والخزرج) النازحين من اليمن وبين يهود يثرب كما تقدم وكما هو مفصل في كتابنا (غزوة بني قريظة).

فلم يذكر (فيما وصل إلى علمي) أحد من المؤرخين أن يهود خيبر (قبل الإسلام) خفوا لنجدة إخوتهم يهود يثرب بالرغم من أنهم لا تفصلهم عنهم سوى مسافة قصيرة لا تزيد على مائة ميل.. بينما نرى الغساسنة تفصلهم عن إخوتهم في يثرب آلاف الأميال حيث كانوا يقطنون سوريا آن ذاك^(٢).

موقف خيبر عند ظهور الإسلام: لا شك أن يهود خيبر كإخوتهم يهود يثرب لم يكن موقفهم من الإسلام عند ظهور موقف الترحيب، بل موقف المعارضة هذا مما لا جدال فيه وأثبتته الأحداث فيما بعد.

إلا أن يهود خيبر هؤلاء ظلوا (حتى السنة الرابعة من الهجرة) على الحياد بالنسبة للصراع الذي كان دائراً بين المسلمين ويهود يثرب الذين حاولوا - بكل الوسائل - تقويض دعائم الدعوة الإسلامية والقضاء على نبي الإسلام ﷺ.

(١) سيرة ابن هشام ج ٢.

(٢) انظر التفاصيل في الفصل الأول من كتابنا (غزوة بني قريظة).

فلم يرو أحد من المؤرخين (فيما أعلم) أن يهود خيبر قاموا بأي عمل عدائي مسلح ضد المسلمين منذ ظهر الإسلام حتى السنة الرابعة للهجرة وهي السنة التي اختار فيها يهود بني النضير أن تكون خيبر منفي لهم عندما تم إجلاؤهم عن المدينة بموجب اتفاقية الصلح التي تمت بينهم وبين النبي ﷺ عقب ضربه الحصار على حصونهم في يثرب بعد اكتشاف مؤامرة الاغتيال التي دبروها لقتله ﷺ عندما كان في ديارهم آمنًا^(١).

ولم يرو أحد من المؤرخين أن يهود خيبر قاموا بتقديم أي عون مادي لإخوتهم يهود يثرب عندما تحول الخلاف بينهم وبين المسلمين إلى نزاع مسلح.. بل ظل يهود خيبر على الحياد حيال هذا النزاع المسلح إلى أن نزل عليهم شيطان بني النضير (حيي بن أخطب) منفيًا وقومه من المدينة في السنة الرابعة من الهجرة.

التحول الخطير في موقف خيبر: ففي هذه السنة طرأ تحول خطير على موقف الحياد الذي كانت خيبر تلتزمه إزاء النزاعات المسلحة التي نشبت عبر العصور بين المشركين العرب (الأوس والخزرج) وبين يهود يثرب قبل الإسلام، ثم بين هؤلاء اليهود وبين المسلمين بعد بزوغ شمس الإسلام.

وكر للتآمر على المسلمين: فلم يكذب بنو النضير (بقيادة شيطانهم حُيي بن أخطب) ينزلون على خيبر ويستقر بهم المقام فيها حتى تحولت من منطقة حيادية إلى أخطر وكر تُحاك فيه الدسائس وترسم فيه خطط التآمر على الإسلام والمسلمين تحت إشراف سادات يهود بني النضير المنفيين من المدينة.

لمحة من تاريخ بني النضير: وبالرغم من أننا قد ذكرنا الشيء الكثير عن تاريخ يهود بني النضير في كتبنا الثلاثة (غزوة أحد) و(غزوة الأحزاب) و(غزوة بني قريظة) إلا أنه يستحسن إعطاء القارئ هنا لمحة عن تاريخ هؤلاء اليهود الذين بنزولهم على خيبر طرأ عليها ذلك التحول الخطير الذي كان سبباً في نسف ما تبقى من الكيان اليهودي الدخيل في جزيرة العرب.

لقد كان بنو النضير إحدى القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث التي استوطنت منطقة يثرب العربية منذ عدة قرون، والفئات أو القبائل الرئيسية الثلاثة هم:

- ١- بنو النضير. ٢- بنو قينقاع. ٣- بنو قريظة.

(١) انظر كتابنا: غزوة الأحزاب: الفصل الخاص بإجلاء بني النضير.

ويعتبر يهود بني النضير أقوى الفئات اليهودية الثلاث وأكثرهم نفوذاً بين اليهود في يثرب كما يعتبر بنو النضير أغنى يهود يثرب على الإطلاق.

يضاف إلى ذلك أن بني النضير يعتبرون أنفسهم أرفع اليهود نسباً وأرقاهم حساباً ويرون أن لهم السيادة والشرف على جميع فئات اليهود لأنهم (بزعمهم) من نسل نبي الله هارون بن عمران عليه السلام ولهذا يقال لهم وإخوانهم بني قريظة: (الكاهنين) لانتسابهم بزعمهم إلى النبي هارون بن عمران الذي يسميه اليهود بالكاهن^(١).

أعداء النبي ﷺ رقم (١):

وإذا استعرضنا تاريخ مراحل النزاع والصراع بين المسلمين ويهود يثرب (منذ ظهور الإسلام) وجدنا أن يهود بني النضير هم أشد الفئات اليهودية عداوةً للمسلمين وأكثرهم جرأةً على النبي ﷺ وأشدهم تحرشاً بالمسلمين، وإعناةً لئبيهم ﷺ وخاصة زعماءهم (حبي بن أخطب، وأخيه ياسر، وسلام بن مشكم).

ويكفي للتدليل على ذلك أن نورد هنا قصة رواها إمام المغازي محمد بن إسحاق، هذه القصة تحكي واقع البغض العارم والحقد القاتل الذي يغتلم في قلوب سادات بني النضير للنبي الأعظم ﷺ وتوطيد هؤلاء اليهود أنفسهم على العمل ضد النبي ﷺ حتى الممات بالرغم من تأكدهم من أنه النبي المنتظر الذي بشر به موسى عليه السلام كما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة.

فقد روى ابن إسحاق أن سيدي بني النضير (حبي بن أخطب وأخاه ياسر) لما علما بوصول النبي ﷺ - أول ما وصل مهاجراً - ذهبوا وقابلاه في (قُبَاء) ليلة وصوله ولدى هذه المقابلة تأكد لهما من صفاته إنه هو النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة.. وبدلاً من أن يتبعوا الحق الذي عرفاه فيؤمنوا بالنبي ﷺ تأججت نيران الحقد والبغض والحسد له في نفوسهما.

وقد تجسد هذا الحسد والبغض والحقد للحق في مناقشة سرية بينهما عقب انصرافهما من مجلس النبي ﷺ في (قُبَاء) فقد سأل ياسر بن أخطب أخاه حبياً قائلاً: أهو، هو؟ (يعني النبي ﷺ).

حبي: نعم والله.

ياسر: أتعرفه وتثبته؟؟

(١) انظر الأغاني ج ١٩ ص ١٩٦، وتاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٣ وغزوة بني قريظة ص ٣٥.

حيي: نعم.

ياسر: فما في نفسك منه؟

حيي: عداوته ما بقيت^(١).

سمعتُ هذا النقاش أو الحوار إحدى أمهات المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب وهي لما تزل صببية في المدينة تلعب في مجلس أبيها وعمها^(٢).

ولم يحنث سيد بني النضير الخبيث قسمه فقد ظل وكل بني النضير على عداوتهم الشديدة للنبي ﷺ ولم يتركوا سبيلاً للكيد للإسلام والتأمر عليه وعلى نبيه بقصد قطع تيار دعوته إلا وسلكوها دوغماً تردد.

فقد ظل يهود بني النضير (وعلى رأسهم شيطانهم حيي بن أخطب) يثيرون المتاعب ويضعون العراقيل في وجه النبي ﷺ بقصد إطفاء شعلة الدعوة الإسلامية مستغلين تسامح النبي ﷺ والحرية الكاملة التي أعطاهم إياها الإسلام في شؤونهم الخاصة ومتسترين وراء معاهدة التحالف التي أبرمها النبي ﷺ معهم ومع سائر الفئات اليهودية عند قدومه إلى يثرب.

التأمر على حياة النبي ﷺ: ولم يكتف يهود بني النضير بالسعي (بمختلف الوسائل) لإثارة الفتنة بين مختلف الفئات والقبائل داخل المجتمع الإسلامي في يثرب بقصد شل حركة الدعوة الإسلامية وإطفاء نورها.. ولم يكف هؤلاء اليهود النجاح الذي حققوه بإنشاء طبقة باطنية خطيرة تعمل لتخريب العقيدة الإسلامية، وتمزيق وحدة المسلمين وهي طبقة المنافقين الذين يعملون ضد الإسلام ضمن إطار المجتمع الإسلامي لانتسابهم إلى الإسلام في الظاهر.. والذين في واقعهم ليسوا إلا أجهزة تخريب باطنية سرية تعمل لحساب اليهود (وخاصة بني النضير).

ولم يكتف يهود بني النضير بكل تلك الأعمال المقنونة التي باشروها ضد الإسلام والمسلمين وكادوا بها أن يقوضوا دعائم المجتمع الإسلامي الناشئ الجديد بما أثاروا (خلال الأربع السنوات) من فتن ودسائس ومؤامرات داخل المجتمع الإسلامي والتي وصل نجاحهم فيها أحياناً إلى أن جعلوا الحيين الرئيسيين (الأوس والخزرج) يشهر أحدهما السلاح في وجه الآخر بعد اعتناقهما الإسلام^(٣).

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) انظر تفاصيل هذه القصة في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٣) انظر تفاصيل محاولة اليهود: إثارة الفتنة بين المسلمين في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) ص ١٠٥ الطبعة الرابعة.

لم يكتف يهود بني النضير بذلك كله، بل وصلت بهم الجرأة والتماذي في الغي واستغلال التسامح النبوي إلى أن فكروا في التخلص من النبي ﷺ شخصياً بالقتل، ويرسموا لذلك مخطط اغتيال غادر بشع، ويجاولوا تنفيذ هذا المخطط الجهنمي بقتل النبي ﷺ غدراً وهو آمن في ديارهم وأعزل من السلاح وعلى بعد عدة أميال من المدينة.

إلا أن النبي ﷺ اكتشف مؤامرة اغتياله في ديارهم قبل تنفيذها بقليل، فغادر ديار هؤلاء اليهود بطريقة سرية مستعجلة، وبذلك نجا من تلك المؤامرة الدنيئة فأحبط مفعول ذلك المخطط الخبيث الذي كان يهود بني النضير قاب قوسين أو أدنى من تنفيذه.

إجلاء بني النضير إلى خيبر: وكان (حتى تاريخ تلك المؤامرة) يوجد بين النبي ﷺ ويهود بني النضير عهد تحالف ومعاهدة عدم اعتداء واتفاق تعايش سلمي حافظ المسلمون عليها كل المحافظة وطبقها النبي ﷺ في معاملته لهؤلاء اليهود نصاً وروحاً.

غير أن النبي ﷺ بعد اكتشافه تلك المؤامرة اليهودية تأكد لديه أنه من المستحيل الركون إلى هؤلاء اليهود والتعايش معهم أو الوثوق بما أعطوا من عهود ومواثيق؛ لأنه بات واضحاً (على ضوء التجارب العملية) أن هؤلاء اليهود لا يتمسكون بالعهد والمواثيق التي يبرمونها مع غيرهم إلا عندما تكون في صالحهم وأنهم لا يتورعون عن خرقها والتنكر لها عندما يرون أن ذلك يعود عليهم بالنفع ويكون في مقدورهم الإقدام عليه، كما فعلوا عندما ظنوا أن الفرصة قد واتتهم للغدر بالنبي ﷺ وقتله بين منازلهم غيلة بالرغم من المعاهدة القائمة بينه وبينهم والتي اعتمداً عليها وفي ظلها جاء النبي ﷺ إلى منازل هؤلاء اليهود آمناً أعزلاً من السلاح؛ لأن من طبيعة العرب (حتى في جاهليتهم) الوفاء بالعهد واعتبار الإخلال بالعهد سبباً خالداً يأنف العرب من التلوث بأرجاسها.. ولكنهم اليهود، يضعون العهود والمواثيق تحت أقدامهم عندما يرون أنهم لم يعودوا بحاجة إليها.

وقد اعتبر النبي ﷺ تلك المحاولة الخطيرة التي قام بها يهود بني النضير لقتله بين منازلهم في ظل المعاهدة القائمة بين الفريقين اعتبار تلك المحاولة عملاً ناسفاً لمعاهدة التحالف واتفاقية عدم الاعتداء القائمة بين المسلمين وهؤلاء اليهود، فأرسل في الحال إنذاراً إلى هؤلاء اليهود خاصة بأن يغادروا المدينة في خلال عشرة أيام فقط، وأنهم إن لم يخرجوا من المدينة فإنه سيلجأ إلى محاربتهم كأعداء حربيين لا عهد لهم ولا ذمة بعد الذي أقدموا عليه من محاولة اغتياله بين منازلهم.

ولم يحاول يهود بني النضير نفي التهمة الموجهة إليهم لأنها أقوى من أن تقبل النفي، ولم يقدموا أي اعتذار عما بدر منهم من خيانة وغدر، بل قبلوا (في أول الأمر) الإنذار واعتزموا مغادرة المدينة لولا أن رأس النفاق حليفهم (عبد الله بن أبي بن سلول) حرضهم على رفض الإنذار النبوي والتحصن في قلاعهم في المدينة بعد أن أوعدهم بأنه وجماعته الباطنيين المنافقين وحلفاءه من العرب الوثنيين المجاورين سيكونون إلى جانبهم في الحرب إذا ما أقدم المسلمون على محاربتهم.

وبناءً على تحريض رأس النفاق عدل يهود بني النضير عن قرارهم فرفضوا الإنذار النبوي وقرروا البقاء في المدينة، ثم اعتصموا بحصونهم استعداداً للحرب. وأمام هذا الرفض لم ير النبي ﷺ بدأً من محاربتهم فجهز جيشاً لمحاربتهم وإنقاذ يثرب من شرورهم، فضرب المسلمون الحصار على هؤلاء اليهود بقيادة النبي ﷺ. وقد شدد المسلمون الحصار على هؤلاء اليهود ولم يحاولوا اقتحام حصونهم؛ لأن الهدف (على ما يظهر) إنما كان إجلاؤهم عن المدينة لا قتلهم.

ولم يصمد يهود بني النضير طويلاً أمام هذا الحصار الذي دام حوالي عشرين ليلة فقد انهارت مقاومتهم لاسيما بعد أن خذلم حليفهم رأس النفاق (عبد الله بن أبي) وعصابته الباطنية المنافقة الذين لم يقدموا ليهود بني النضير أي عون حربي كما وعدوهم. ولهذا قرر هؤلاء اليهود الدخول مع النبي ﷺ في مفاوضة على أساس الجلاء من المدينة وهو المطلب الرئيسي الذي تضمنه الإنذار النبوي قبل الحصار.

وقبل النبي ﷺ الدخول مع يهود بني النضير في المفاوضة... وتم الاتفاق بين الفريقين على أن يجلو هؤلاء اليهود عن المدينة إلى أي بلاد الله شاءوا، وقد تضمنت اتفاقية الجلاء هذه بنوداً ثلاثة، وهي:

- (١) يحق ليهود بني النضير أن يحملوا من أموالهم معهم، ما يقدرون على حمله.
- (٢) يترك كل ما لا يقدرون على حمله من أموال منقولة وغير منقولة في المدينة لبيت مال المسلمين.

(٣) يتكفل المسلمون بحماية أرواح هؤلاء اليهود وأموالهم التي يحملون ما داموا داخل المناطق الخاضعة لحكم الإسلام^(١)، وهكذا لم يكن النبي ﷺ شديداً في معاملة هؤلاء اليهود؛ لأنه تمشياً مع طبيعة الرسالة التي يحملها يميل إلى التسامح، ولا يميل إلى العنف وسفك الدم إلا إذا أصبح ذلك أمراً لا مفر منه كالإجراء الحازم الذي اتخذته إزاء خونة يهود بني قريظة^(٢).

بنو النضير في خيبر: ولما كانت اتفاقية الجلاء بين النبي ﷺ وبين يهود بني النضير لا تحتم على هؤلاء اليهود الجلاء عن جزيرة العرب كلياً.. بل تترك لهم الحرية في أن ينزلوا أي بلد أرادوا (غير يثرب) فقد اختار هؤلاء اليهود النزول في منطقة خيبر التي لا تبعد عن المدينة أكثر من سبعين ميلاً، لأنها من الناحية الحربية كانت أقوى معقل لليهود الدخلاء في جزيرة العرب.. حيث توجد بها جالية يهودية يقدر عدد حملة السلاح بينهم بعشرة آلاف مقاتل^(٣).

أخطر وكر للتآمر على الإسلام: لقد كان زعماء يهود بني النضير (وعلى رأسهم حُبي بن أخطب، وكنانة بن الربيع، وسلام بن مشكم) من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ومن أحرص أعداء الإسلام على هدم كياناتهم وإبادة أتباعه وإزالتهم من الوجود. وإذا أضفنا إلى ذلك اعتراف كافة طوائف اليهود في جزيرة العرب ليهود بني النضير بمنصب السيادة الروحية عليهم لانتمائهم (بزعمهم) إلى نبي الله هارون بن عمران عليه السلام، وإذا أضفنا إلى ذلك أيضاً ما يتمتع به يهود بني النضير من مركز مالي ممتاز حيث كانوا أغنى أغنياء اليهود على الإطلاق في جزيرة العرب. (واليهود على الإطلاق في كل زمان ومكان لا يحسدونهم ولا يقدرونهم على إدارتها، يجمعون من الثروات الفاحشة ما لا يقدر غيرهم على جمعه) وخاصة في البيئات البدائية المتأخرة كبيئة العرب الوثنيين التي أتاحت لليهود عامة وليهود بني النضير خاصة أن تكون في أيديهم (دون منازع) مقابض أزمة ديكتاتورية المال التي أقاموها على قواعد المعاملات الربوية التي لا يحسن أي جيل مباشرتها مثل اليهود.. هذه الديكتاتورية الملعونة التي نسفها الإسلام من القواعد بتشريعه الذي حرّم المعاملات الربوية تحريماً قاطعاً.

(١) انظر تفاصيل قصة جلاء بني النضير في الفصل الأول ص ٥٢ من كتابنا غزوة الأحزاب.

(٢) انظر كتابنا الرابع (غزوة بني قريظة).

(٣) انظر مغازي الواقدي ج ٢.

إذا أدركنا هذه الامتيازات التي يمتاز بها يهود بني النضير من ثراء فاحش وجاه واسع عريض وسيادة روحية مطلقة بين جميع فئات اليهود الدخلاء في الجزيرة اتضح لنا أي خطر داهم يهدد الإسلام والمسلمين بنزول يهود بني النضير منطقة خيبر عند نفيهم من المدينة.

خفض الأرض ورفعها: ولا يفوتنا أن نذكر القارئ بأن النبي ﷺ لما نفى يهود بني النضير هؤلاء من المدينة تسامح معهم إلى حد جعلهم يسمح لهم بأن يحملوا من أموالهم إلى منافعهم الجديد (خيبر) كل ما يقدر على حمله. ولهذا فقد أوقروا من هذه الأموال (عند نفيهم) حوالي ستمائة بعير، وصلوا بها جميعاً إلى منطقة خيبر.

ولما كان الذهب والفضة هو أحرص ما يحرص اليهود على اقتنائه كما هو معروف عنهم عبر عصور التاريخ، فقد حملوا معهم إلى خيبر كل ما يملكون من الذهب والفضة وكان شيئاً عظيماً حتى أن سلام بن أبي الحقيق (وهو من متوسطي أغنياء يهود بني النضير) حمل معه عند الجلاء من المدينة جلد ثور مملوء ذهباً وفضة.

وكان (وهو خارج إلى منفاه خيبر) يضرب على هذا الجلد - مشيراً إلى ما يحتوي عليه من ذهب وفضة قائلاً: (هذا الذي أعدناه لرفع الأرض وخفضها وإن كنا تركنا نخلاً، ففي خيبر النخل).

وفي قول الزعيم اليهودي النضري هذا تهديد صريح بأن يهود بني النضير لن يبخلوا باستخدام أموالهم الطائلة للقضاء على سلطان الإسلام ونفوذهم، وأنهم لن يترددوا في تسخير هذه الأموال لزلزلة الأرض تحت أقدام المسلمين عند أول فرصة تسنح لهم وذلك في سبيل استعادة سلطانهم المفقود في يثرب.

خيبر قاعدة للعدوان: وبنزول يهود بني النضير منطقة خيبر الحصينة والغنية بالموارد الزراعية الكبيرة تعاضمت قوة اليهود الدخلاء في هذه المنطقة.

حيث تلاحم سلطان المال الجبار الذي يملكه يهود بني النضير المنفيين مع القوة الحربية الكبيرة التي يمتاز بها يهود خيبر ويتفوقون بها على جميع الفئات اليهودية الدخيلة في جزيرة العرب حيث كانوا (دون جدال) أشجع وأقوى الجاليات اليهودية هناك.

وبنزول يهود بني النضير منطقة خيبر أخذ الخطر الداهم يُطل برأسه ويهدد المسلمين في يثرب من جديد لاسيما إذا أخذنا بعين الاعتبار وجود جالية يهودية كبيرة في يثرب لم يتعرض لها المسلمون بأية مضايقة، لأنها (حتى حملة الأحزاب المخيفة) ظلت على عهد

مع المسلمين، وهي جالية يهود (بني قريظة) التي أغوى زعماءها شيطان بني النضير حبي بن أخطب فغدرت بالمسلمين في أدق ساعات المصير في حياة كيانه كما جاء ذلك مفصلاً في كتابينا (غزوة الأحزاب، وغزوة بني قريظة).

قيادة بني النضير: لقد كان يهود بني النضير سياسيين أكثر منهم حربيين، وكانت الأطماع في السيادة والسلطان لديهم أكثر من أية فئة من فئات اليهود الدخيلة في بلاد العرب.

ولهذا فإنهم لم يكادوا يطأون بأقدامهم منطقة خيبر ويجدون أنفسهم بين أقوى قوة يهودية حربية في جزيرة العرب، حتى عادت أطماعهم الواسعة في السيادة والحكم تراود مخيلاتهم.

ولم يجد يهود بني النضير أية صعوبة في القبض على أزمة الأمور في منطقة خيبر حيث تمكنوا بكل سهولة من فرض سيادتهم وسيطرتهم على يهود هذه المنطقة التي بمجرد نزول بني النضير فيها تغير فيها مجرى كل شيء.

وأهم تغيير طرأ على خيبر هو أنها (بعد أن ألقى سكانها اليهود بقيادهم إلى بني النضير) تحولت من منطقة حيادية إلى قاعدة للعدوان على المسلمين ووكراً وجد فيه يهود بني النضير (أشد الناس حقداً على النبي وصحبه) مطلق الحرية للتآمر على الإسلام ورسم الخطط للإطاحة بالمسلمين.

لو اتعظ اليهود؟! لقد كان بإمكان يهود بني النضير أن يستخلصوا المواعظ والعبر على ضوء ما حاق بهم وبيهود بني قينقاع من نفي وتأديب نتيجة دسهم وتآمرهم ضد المسلمين عندما كانوا بين ظهرانيتهم وحلفاء لهم في يثرب.

كان بإمكان سادات بني النضير (على ضوء الفشل الذريع الذي منوا به كثمرة لمحاولات الدس والتآمر ضد النبي وأصحابه والتي بذلوها طوال أربع سنوات والتي كانت حصيلتها طردهم من المدينة زجراً لهم وتأديباً).. كان بإمكانهم بعد أن رحلوا من يثرب أمنين على أموالهم وأرواحهم ونزلوا خيبر على تلك الصورة.. كان بإمكانهم أن يراجعوا أنفسهم ويقنعوها بأن أعمال التآمر والخيانة والغدر وإثارة الفتن والحروب بغياً ضد المسلمين، والتي مارسوها خلال أربع سنوات، لن تعود في النهاية على القائمين بها إلا بأوخم العواقب؛ لأن النصر في النهاية إنما يكون للحق والهزيمة والاندحار والتعرض للعقاب العادل الصارم إنما تحل بالباطل مهما تراءى لأصحابه أنه قوي وعتيد.

كان بإمكان بني النضير الذي لم يكن نزوحهم إلى خيبر مطرودين مدحورين إلا حصيلة محاولاتهم السير في دروب الخيانة والتآمر، والدلوج في ظلام البغي والعدوان ونكث العهود والمواثيق.. كان بإمكانهم أن يدركوا كل ذلك فيتعضوا به.. فيخلدوا في منقاهم الجديد (خيبر) إلى الهدوء والسكنية بين بني قومهم الذين ظلوا على الحياد طيلة مراحل الصراع الدائر بين الإسلام وخصومه داخل يثرب وخارجها حتى نزل عليهم شياطين بني النضير هؤلاء فكانوا سبباً في توريطهم في حبال العمل ضد المسلمين والتآمر على أمنهم وسلامتهم، مما كان سبباً في التعجيل بإزالة الوجود اليهودي الدخيل في خيبر على أيدي المسلمين.

ولو التزم يهود بني النضير الهدوء والسكنية وأقلعوا عن ممارسة التآمر ضد المسلمين ونصحوا بني دينهم في خيبر بذلك لكان خيراً لهم.

ولكن الأحلام السوداء.. أحلام العودة إلى يثرب والسيطرة عليها من جديد التي زادت (باستيغانهم خيبر القوة والمنعة) مداعبتها لمخيلاتهم.. لم ترك (لحيي بن أخطب، وسلام بن مشكم، وكنانة بن أبي الحقيق وأمثالهم من سادات بني النضير) الفرصة للتفكير في اختيار طريق السلامة، طريق السكنية والهدوء والإقلاع عن ممارسة الكيد للإسلام والتآمر على كيان المسلمين.

لذلك لم يكذب يستقر بيهود بني النضير المقام في خيبر حتى عادوا (بصورة أوسع) إلى تدبير خطط التآمر على الإسلام والمسلمين.

فأخذوا يعدون العدة لجولة كبرى ضد المسلمين (يكون منطلقها خيبر) لعلهم بهذه الجولة يطيحون فيها بالإسلام ويهدمون سلطان المسلمين في عاصمتهم المدينة، فيعود هؤلاء اليهود سلطانهم اللاشعري عليها من جديد.

ولكن الله غالب على أمره فقد فشلت كل مخططات العدوان التي وضعها هؤلاء اليهود في خيبر، بل إن يهود بني النضير بمخططاتهم العدوانية هذه قد أحلوا قومهم (أهل خيبر) دار السوار بسبب إغرائهم وإقناعهم بجعل مدينتهم وكرماً للغدر بالمسلمين والعدوان عليهم.

لقد كان زعماء يهود خيبر يدركون ولا شك خطورة تحويل المنطقة التي يسكنونها إلى قاعدة جديدة للعدوان والتآمر على المسلمين، كما يريد ذلك حبيي بن أخطب، وسلام بن مشكم وغيرهم من زعماء يهود بني النضير المنفيين من المدينة.

وليس بعيد أن يكون القلق قد ساور زعماء اليهود في خيبر من أن تتعرض منطقتهم لغزو كاسح من قبل المسلمين قد يطيح بالكيان اليهودي فيها إلى الأبد كعمل تأديبي وإجراء وقائي يقوم به المسلمون إذا قبل يهود خيبر أن تصبح منطقتهم متنفساً لأحقاد يهود بني النضير ومنطلقاً لعدوان يهدد سلامة المسلمين وأمنهم.

وكل هذا لا يعني أن يهود خيبر لا يرغبون في تدمير المسلمين وهدم كيان الإسلام. كلا.. فاليهود كلهم ملة واحدة وهم سواء من حيث البغض للإسلام والرغبة في الإطاحة بالمسلمين في يثرب.

ولكن قد يكون مصدر شعور يهود خيبر بالقلق (إذا ما وجد هذا الشعور) إنما كان خوفهم من أن تفشل مخططات العدوان على المسلمين فيكون ذلك مجلبة لنعبة فيها نهاية يهود خيبر الذين (حتى استيطان يهود بني النضير لبلادهم) لم يكن بينهم وبين المسلمين أي حرب أو نزاع مكشوف كما هو الحال بالنسبة ليهود يثرب.

ولم أرَ في كتب التاريخ أن يهود خيبر قد عارضوا زعماء بني النضير في أن تكون خيبر منطلقاً للتآمر وقاعدة للعدوان على المسلمين، ولكن الاحتمال قوي جداً في أن يكون زعماء يهود خيبر قد أبدوا شيئاً من المعارضة خوفاً على مصيرهم كما فعل يهود بني قريظة عندما حاول شيطان بني النضير إغراءهم بالغدر بالمسلمين.

وعلى أي قد نجح شيطان بني النضير حيبي بن أخطب وباقي زملائه من زعماء بني النضير المنفيين من المدينة.. إذ استطاعوا أن يجعلوا من منطقة خيبر (بالتعاون مع أهلها) قاعدة حربية وسياسية يوجد منها اليهود أي عمل يقدر على توجيهه ضد المسلمين للقضاء عليهم في يثرب.

لقد رضي يهود خيبر (الذين ظلوا على الحياد إزاء الصراع الناشب بين يهود يثرب والعرب قبل الإسلام وبعده) رضوا في النهاية بأن تدخل خيبر معترك هذا الصراع وأن ترمي بثقلها ضد المسلمين.

فقد وضع يهود خيبر كل إمكاناتهم الحربية والمالية في خدمة أغراض العدوان على النبي ﷺ والمسلمين في المدينة، بعد أن أعطى أولئك اليهود قيادهم لشيطان بني النضير (حيبي بن أخطب) وباقي سادات بني النضير الذين فرضوا سيطرتهم السياسية وسلطانهم المالي على منطقة خيبر منذ أن نزلوها منفيين من يثرب.

فصاروا بدافع الحقد الأسود على النبي ﷺ والبغض العارم للإسلام يصلون الليل والنهار لرسم خطط التآمر على المسلمين وحبك الدسائس ضدهم، ووضع المشاريع الواسعة لإثارة العرب الوثنيين عليهم، وبمنتهى الحرية.

الأمر الذي ما كان يجراً يهود بني النضير على ممارسته عندما كانوا يواظنون المسلمون في يثرب لاعتبارات كثيرة أهمها أن هؤلاء اليهود كانوا أقلية بين المسلمين في يثرب ومن السهل مراقبتهم والحد من نشاطهم التأمري ضد الإسلام والمسلمين. غير أن وجودهم في منطقة يهودية ليس بها مسلم واحد (هي منطقة خيبر) كان من أكبر الأسباب في تضاعف أطماعهم في السيطرة و تكاثف أحلامهم بالعودة إلى يثرب حاكمين.

كما أن وجود بني النضير في خيبر قد هيا لهم المناخ الكامل لتدبير المؤامرات وحبك الدسائس ورسم خطط الحرب ضد المسلمين بمنتهى الحرية.

فإذا كانت أعمالهم العدوانية التي يهدفون من ورائها إلى الإطاحة بالمسلمين في يثرب عرضة للاكتشاف بسبب كون المدينة قاعدة الإسلام الكبرى ومركز ثقل الوجود الإسلامي، وأن أي اكتشاف لأية أعمال عدوانية من جانب اليهود يعقبه قمع من جانب المسلمين.. الأمر الذي يضطر هؤلاء اليهود وحلفاءهم من المنافقين إلى أن يحيطوا مؤامراتهم العدوانية وخططهم التخريبية ضد المسلمين في يثرب بسياج من السرية التامة وخاصة إذا كانت هذه المؤامرات والخطط تتطلب تنفيذها سفك الدم وإزهاق الأرواح.. فإنهم في خيبر لم يعودوا بحاجة إلى هذه السرية والتكتم عندما يعتزمون العمل ضد المسلمين على أي مستوى من المستويات العدوانية والتأمرية.

لأنه حتى السنة السابعة من الهجرة لم يكن أي وجود لسلطان المسلمين في خيبر، كما أنه حتى تلك السنة لا يوجد أي مسلم في تلك المنطقة التي كان نزول المنفيين فيها من يهود بني النضير في أواسط السنة الرابعة من الهجرة.

هل فكر اليهود في غزو المدينة؟ لقد دلت الأحداث وأثبتت الوقائع أن سادات يهود بني النضير (بعد أن دانت لهم خيبر) قرروا (و بمنتهى الإصرار والعناد) أن يستخدموا كل طاقات اليهود من مالية وفكرية وبشرية لهدم كيان المسلمين وإطفاء نور الإسلام في المدينة.

لقد كان كل شيء مادي في خيبر يوحى على نحو، لا يقبل الجدل، بأنه بإمكان اليهود أن يجهزوا (وبكل سهولة) جيشاً ضخماً لغزو المسلمين في عقر دارهم وحاضرة دولتهم (المدينة).

فيهود خيبر وحدهم (وحسب تقديرات المؤرخين) قادرون على حشد تسعة آلاف مقاتل، فإذا أضفنا إليهم ألفاً من يهود بني النضير المنفيين القادرين على حمل السلاح ومباشرة القتال، اتضح لنا: أن خيبر في ذلك الوقت (وهو السنة الرابعة من الهجرة) قادرة على تجريد قوة ضاربة تبلغ عشرة آلاف مقاتل^(١) لمحاربة المسلمين وغزوهم في المدينة التي لا يوجد فيها في تلك السنة أكثر من ألف مقاتل من المسلمين المخلصين.

غير أنه مع هذا لم نرَ أحداً من المؤرخين ذكر (فيما نعلم) أن هناك عزمًا قد تبلور لدى هؤلاء اليهود لأن تقوم قواتهم من خيبر بغزو المسلمين في المدينة.

وليس بالإمكان أن نجد (على وجه التحديد) تفسير لإحجام اليهود في خيبر عن الإقدام على غزو المسلمين، مع توفر الإمكانيات المالية والبشرية الضخمة لديهم والتي تمكنهم من أن يقوموا (في سهولة) بمثل هذا الغزو؛ لأنه حتى الآن لم يصل إلى يدينا شيء من مصادر التاريخ القديمة تفسر لنا سر هذا الإحجام مع رغبة هؤلاء اليهود الملحة في القضاء على المسلمين.

لماذا أحجم اليهود عن غزو المدينة؟ إلا أنه يمكن التكهن بأن هناك سببَيْن رئيسيين حالاً دون تحرك اليهود من خيبر لغزو المسلمين في المدينة:

السبب الأول: الطبيعة المتأصلة (آنذاك): طبيعة الجبن التي تجعل هؤلاء اليهود لا يقاتلون إلا من وراء الحصون وداخل القرى المحصنة، وهي طبيعة أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾^(٢).

السبب الثاني: هو أن اليهود في خيبر - بالرغم من مرور عدة قرون على وجودهم في تلك المنطقة العربية - فإن علاقاتهم (بالرغم من قوتهم العسكرية وراثتهم الواسع) ليست على ما يرام مع السكان الأصليين من أعراب القبائل المحيطة بمنطقة خيبر، على الرغم من أن أحداً من هذه القبائل لم يكن قد دان (حتى ذلك الوقت وهو السنة الرابعة من الهجرة) بدين الإسلام. وبالرغم من شراء اليهود ولاء هذه القبائل العربية الوثنية بين الحين والآخر بالرشاوى.

(١) انظر إمتاع الأسماع.

(٢) الحشر: ١٤.

لذلك كان اليهود (على ما يظهر) يخشون أن تغير هذه القبائل العربية الوثنية على واحة خيبر فتنهب خيراتها وتسبى نساءها وذرائعها حينما تصبح خالية من المحاربين اليهود، عندما يزحفون بجيوشهم لغزو المسلمين في عقر دارهم (المدينة) التي تبعد عن خيبر أكثر من ثمانين ميلاً وهي مسافة بعيدة جداً بالنسبة لوسائل النقل في ذلك العصر.

خيبر .. وغزوة الأحزاب: وأياً كان سبب إحجام اليهود عن الزحف بأنفسهم على المدينة من خيبر (مع توفر كل الإمكانيات لديهم للقيام بهذا الغزو) فإن فكرة الإطاحة بالمسلمين والقضاء عليهم وإطفاء شعلة دعوة الإسلام ظلت قائمة في أذهان هؤلاء اليهود تلح في نفوسهم إلحاحاً شديداً.

وكان أشد هؤلاء اليهود إلحاحاً في السعي لإبادة المسلمين وحرصاً على نقل المعركة إلى ديارهم في المدينة بأي شكلٍ من الأشكال.. رأس الكفر وأخطر عدو للإسلام عميد الأسرة النضرية حبي بن أخطب الذي أعلن - منذ اللحظة الأولى التي قابل فيها النبي ﷺ عند مقدمه من مكة مهاجراً - بأنه سيحمل له العداوة ما بقي حياً^(١).

فبعد استبعاد فكرة قيام اليهود أنفسهم بغزو المدينة من حساب مشاريعهم العدوانية اجتمع زعماء هؤلاء اليهود في خيبر لانتهاج أنجع السبل التي يرون أنها كفيلة بنقل المعركة بصورة جدية إلى عقر دار المسلمين للقضاء عليهم قضاءً تاماً لتتحقق أحلام يهود بني النضير السوداء في العودة إلى السيطرة على يثرب المسلمة.

مشروع الغزو الخطير: وقد كانت نتيجة اجتماعات هؤلاء الزعماء في خيبر هو الاتفاق على مشروع قرار تقدم به (على ما يظهر) شيطان بني النضير حبي بن أخطب. وخلاصة هذا المشروع العدوانية، هو أن يقوم وفد من زعماء خيبر بالسعي لدى جميع القبائل العربية التي لا زالت على وثنيها وعدائها للإسلام والمسلمين لتحريضها على حرب المسلمين وإغرائها عن طريق الرشاوى والوعود لتوافق على أن تقوم منها قوات ضاربة مؤتلفة بغزو المسلمين في يثرب غزواً شاملاً واحتلال المدينة احتلالاً كاملاً بعد إزالة الوجود الإسلامي إزالةً تامة.

(١) انظر محاوره حبي بن أخطب أخاه ياسر عند مقدم النبي ﷺ مهاجراً في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) ط ٤.

واتفق زعماء اليهود في خيبر على أن يكون في مقدّمة المغريات التي يجب أن يغزوا بها القبائل العربية الوثنية عند الطواف عليهم التعهد لهم بمنحهم كل ما تنتجه واحة خيبر من مختلف الحبوب والثمار لسنة واحدة بعد نجاح مشروع الغزو، على أن يساهم يهود خيبر (بسخاء كبير) في تحمل جانب كبير من تموينات هذا الغزو الكبير الذي قرر يهود خيبر (بإصرار) على إنجاحه وتحقيق أهدافه ليعودوا على أكتاف غيرهم إلى يثرب فاتحين من جديد.

وهذا يعني أن يهود خيبر قد قرروا استخدام كل إمكاناتهم المادية لإبادة المسلمين في المدينة عن طريق حرب شاملة تقوم بها قوات ضاربة لا من اليهود، ولكن من العناصر الوثنية من قريش والأعراب الذين يسهل تحشيدهم عن طريق الرشاوى والإغراء بالسلب والنهب الذي هو عماد الاقتصاد والمصدر الرئيسي للدخل القومي في مجتمع هؤلاء الأعراب الذين أكد شيطان بني النضير (حبي بن أخطب) لزملائه اليهود (وهم يبحثون مشروع نقل المعركة إلى عقر دار المسلمين) أنهم (أي الأعراب) سيكونون العمود الفقري لهذا الغزو الذي وضعت خطوطه العريضة في مدينة خيبر، والذي ما كان يهود خيبر يشكون في أنه سيحقق أهدافه بإزالة الوجود الإسلامي من على وجه الأرض.

خيبر تحزب الأحزاب ضد النبي ﷺ: وتنفيذاً لذلك القرار الخطير الذي اتفق عليه المؤتمرون من اليهود في خيبر، شكلت خيبر وفداً من كبار زعمائها.

تحددت مهمته في الاتصال (أولاً) بمكة مقر القبائل القرشية العدو الرئيسي (يومذاك) للإسلام والمسلمين، ثم القبائل النجدية ذات العدد والعدة وشدة البأس في القتال من غطفان وأسلم وفزارة وأشجع وحلفائهم الذين يشكلون (بعد قريش) الخصم العنيد للإسلام.. وإقناع الجميع بضرورة إقامة اتحاد حربي وحلف عسكري ضد المسلمين، فتشارك كل هذه القبائل الوثنية على أساسه (وبمساندة يهود خيبر المادية) في حرب شاملة تستهدف استئصال شأفة المسلمين وإبادتهم.

أعضاء وفد التحزيب: وقد تكوّن وفد التحزيب والفتنة والتخريب من الآتية أسماءهم:

١- حُيَيِّ بن أخطب، من بني النضير. ٢- سلام بن مشكم، من بني النضير.

٣- كنانة بن أبي الحقيق، من بني النضير. ٤- أبو عامر (الملقب بالفاسق)، عربي من

الأوس.

٥- هوذة بن قيس الوائلي.. عربي متهود.

ويلاحظ هنا أن الأعضاء اليهود في هذا الوفد كلهم من يهود بني النضير (إذا استثنينا) هودّة بن قيس الوائلي وهو (على ما يظهر) وكما يدل اسمه عربي دان باليهودية.. وهذا مما يؤكد الرأي الذي ذهبنا إليه فيما مضى وهو أن يهود بني النضير قد بسطوا سيطرتهم الكاملة على يهود خيبر، وصاروا (منذ وصولهم إليها من منقاهم) سادتها الفعليين يديرون أهلها كما يريدون.

أما أبو عامر الراهب (كما يسميه أتباعه) و(الفاسق) كما يسميه المسلمون، فهو العربي الوثني الوحيد في هذا الوفد.. وكان أبو عامر هذا قد لجأ إلى اليهود في خيبر بعد فشل الحملة التي قامت بها قريش والتي كانت نتيجتها معركة أحد التاريخية التي قاتل فيها أبو عامر هذا إلى جانب قريش ضد المسلمين بالرغم من أنه من الأوس ومن سكان المدينة العرب.

نجاح وفد العدوان في مهمته: وقد خرج وفد اليهود من خيبر لأداء مهمته الموكولة إليه بعد مرور حوالي أربعة أشهر فقط على نفي يهود بني النضير من المدينة إلى خيبر.

وقد اتجه وفد خيبر أول ما اتجه إلى مكة ثم إلى نجد بالرغم من أن قريشاً تأتي من ناحية القوة العسكرية في المرتبة الثانية بعد القبائل النجدية إلا أن قريشاً كانت لها الصدارة في ميدان العداوة للنبي ﷺ والحقد على الإسلام. وسبق لها أن خاضت ضد الإسلام أعنف المعارك في بدر وأحد.

لهذا (وبالرغم من أن منازل القبائل النجدية الوثنية الداخلة ضمن نطاق مشروع التحريض على المسلمين) أقرب بكثير إلى منطقة خيبر، مقر اليهود الرئيسي ووكر التآمر ومصدر الإعداد والتخطيط لغزو المسلمين، فقد فضل وفد خيبر أن يتصل (أولاً) بزعماء قريش في مكة لإطلاعهم على مشروع اليهود العدواني الذي أعدوه لغزو المسلمين في المدينة.

وقد استقبل مشركو مكة وفد يهود خيبر أحسن استقبال واحتفلوا بهم غاية الاحتفال، وخاصة بعد أن عرف سادات مكة أن الدافع لجمي وفد يهود خيبر إلى مكة هو السعي للإطاحة بالمسلمين وإطفاء شعلة الدعوة الإسلامية إلى الأبد.

وقد شرح زعماء وفد خيبر لقادة قريش وجهة نظر يهود خيبر، وأطلعوا القرشيين على كامل تفاصيل المخطط العدواني الذي رسموه في خيبر لغزو المدينة وسحق المسلمين فيها.

وقد لقي هذا المشروع اليهودي من قريش كل استحسان وقبول، فأعلنوا موافقتهم المطلقة عليه وتأييده، وأبدوا للوفد اليهودي استعدادهم لتنفيذه في الوقت الذي يتفق عليه الجميع.

ذلك أن سادات قريش رأوا في مشروع الغزو اليهودي فرصة ذهبية ما كانوا يملكون بها وهي استعداد غيرهم لمشاركتهم في حرب شاملة تستهدف تحقيق ما عجزت قريش عن تحقيقه طيلة أربع سنوات وهو القضاء على المسلمين وقطع تيار دعوة الإسلام نهائياً.. الأمر الذي فشلت قريش في تحقيقه فشلاً ذريعاً عندما ألفت بثقلها في المعركة من أجل تحقيقه، وقامت بمحاولاتها العسكرية الضخمة في حملة بدر وغزوة أحد.

حيث تحطمت سمعتها العسكرية في الأولى تحطيماً فظيعاً على أيدي المسلمين، وعجزت في الثانية عن تحقيق أي شيء من أهدافها الرئيسية حيث عادت إلى مكة تجر أذيال الخيبة والخسران بالرغم من حشدها كل إمكاناتها المادية والبشرية والحربية في هذه المعركة.

لذلك فرحت قريش فرحاً بمشروع يهود خيبر ووافقت عليه دونما أي قيد أو شرط، وتم الاتفاق بين اليهود وقريش على أن يكون ميعاد ضرب الحصار على المدينة في شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة، بعد موافقة القبائل النجدية الوثنية من غطفان وسليم وأشجع وفزارة وأسد.

وفد اليهود التحزبي في نجد: وبعد أن حصل وفد يهود خيبر على موافقة قريش على مشروع الغزو الذي جاءوا يحملونه من خيبر والذي يستهدف القضاء على الإسلام والمسلمين، توجه رجال هذا الوفد اليهودي صوب صحاري نجد للاجتماع بسادات وزعماء القبائل الوثنية فيها ليعرضوا عليهم مشروعهم العدواني ويشرحوا أهدافه ويطلبوا موافقتهم عليه كما وافق عليه زعماء قريش في مكة.

ولقد طاف رجال هذا الوفد بين مضارب القبائل الرئيسية المحاربة في نجد باذلين كل إمكاناتهم المادية والإعلامية لإغراء هذه القبائل بالمسلمين وتحريضها على حربهم، شارحين لهم (وبأسلوب الدعاية اليهودية الماكرة الخبيثة المعروفة) أن اشتراك هذه القبائل في غزو المسلمين سيعود عليها بأعظم المكاسب، لاسيما وأن هذا الغزو يستهدف وضع حد لخطر تزايد نفوذ سلطان المسلمين الذين هم العدو المشترك لكل الفئات الثلاث (اليهود.. وقريش.. والوثنيين في نجد) والذين قد أوترتهم جميعاً الهزائم التي أنزلها بهم المعسكر الإسلامي في مختلف الصدامات الدامية التي نشبت بينهم.

الترحيب بالوفد اليهودي في نجد: ولدى وصول وفد خيبر إلى نجد لقي من الترحيب وحسن الاستقبال ما لا يقل عمّا لقيه من زعماء قريش في مكة. لأن الفريقين في مكة ونجد يلتقون (مع يهود خيبر) عند نقطة رئيسية واحدة وهي الكره الشديد للإسلام، والعداوة للنبي محمد ﷺ.. بالإضافة إلى غرام هؤلاء البدو الوثنيين من أعراب نجد بالسلب والنهب الذي هو (منذ أقدم العصور) قوام حياتهم الاقتصادية.

لذلك لم يتردد زعماء العشائر النجدية في الموافقة (من حيث المبدأ) على مشروع الغزو الذي جاء يحملهم إليهم شيطان بني النضير حيي بن أخطب وباقي أعضاء وفده من خيبر.

إلا أنه إذا كانت الرغبة في نقل المعركة إلى المدينة بغزو المسلمين فيها قد اتحدت (من حيث الأصل) بين يهود خيبر والوثنيين في مكة ونجد، فإن الباعث لدى هؤلاء الفرقاء الثلاثة لم يكن واحداً، إذ لكل منهم غايته المحددة وهدفه المخصوص الذي يختلف عن هدف الآخر.

فإذا عرفنا (كما هو الواقع) أن باعث رغبة قريش في غزو المسلمين وخضد شوكتهم هو باعثاً سياسياً وعقائدياً، حيث صار القلق (بشدة) يساور قريشاً من أن تتم السيطرة للإسلام على جزيرة العرب، فيكون ذلك سبباً في هدم مركز قريش الروحي والأدبي بين قبائل عرب الجزيرة الوثنيين الذين ينظرون إلى قريش نظرة التبجيل ويكون لهم قسطاً وافراً من الاحترام والاعتراف بالسيادة الروحية، باعتبار الأماكن التي يقدها هؤلاء العرب على اختلاف مذاهبهم الوثنية تقع ضمن أراضي قريش وفي ظل سيادتها وتحت حمايتها.

وإذا عرفنا أن مبعث الرغبة الملحة لدى يهود خيبر (واضعي خطوط هذا المشروع العدواني) في القضاء على المسلمين هو (في الدرجة الأولى) الانتقام والانفراد بالسلطان وفرض ديكتاتورية المال من جديد على يثرب.. فإن الباعث لدى أعراب نجد (في الدرجة الأولى) هو الحصول على المال؛ لأنهم أقوام عاشوا عمرهم على السلب والنهب.

ولهذا وجد هؤلاء الأعراب في مشروع الغزو الذي عرضه عليهم وفد خيبر، فرصة قد تحقق لهم ما يمتنون النفس به (منذ أمد بعيد) من انتهاب خيرات واحات المدينة عن طريق السلب والنهب إذا ما واتاهم الحظ فنجحوا في التغلب على المسلمين واحتلال عاصمتهم المدينة بالاشتراك مع قريش واليهود كما هو أساس المشروع اليهودي للغزو.

مساومة أثناء المفاوضات: ومع فرحة أعراب نجد بمشروع اليهود العدوانى ورغبتهم فى المشاركة فى غزو المدينة، فإنهم (وقد علموا حرص اليهود الشديد على تنفيذ هذا المشروع) أظهروا بعض التحفظ أثناء المفاوضات مع وفد خيبر ليجبروا هؤلاء اليهود على الدخول معهم فى مساومة يحصلون فى ظلها على شيء من المال من هؤلاء اليهود الذين يكتزون منه الشيء الكثير.

وقد أدرك أعضاء وفد خيبر ما يهدف إليه أولئك الأعراب النجديين من وراء التحفظ المصطنع الذى أبدوه أثناء المفاوضات.. فدخلوا معهم فى المساومة التى انتهت بأن يتعهد يهود خيبر بإعطاء القبائل النجدية الوثنية التى تشترك (وفق المخطط اليهودى) فى غزو المدينة.. كل ما تنتجه خيبر من ثمار النخيل وباقي مختلف الزروع لسنة واحدة. وعلى أساس هذا الاتفاق قبلت أربع قبائل نجدية رئيسية الاشتراك فى غزو المسلمين حسب التخطيط اليهودى.

وهذه القبائل هى: (١) أشجع، (٢) أسلم، (٣) أسد، (٤) فزارة. وكل هؤلاء من غطفان.

وكان الاتفاق بين الوفد اليهودى وبين هذه القبائل النجدية خاتمة مساعى الوفد اليهودى الناجحة.

إذ تم (كما يريد هذا الوفد) تكوين أكبر اتحاد عسكري وثنى يهودى شهدته الجزيرة العربية ضد المسلمين.

وقد حدد اليهود والقبائل الوثنية النجدية بالاتفاق مع قريش ميعاداً لاحتشاد جيوش هذا الاتحاد الأثم حول المدينة للهجوم عليها وهو شهر شوال من السنة الرابعة للهجرة. وقد كانت نسبة قوات كل من الفرقاء فى جيش هذا الاتحاد العسكري الخطير كما يلي:

١- القبائل النجدية ٦٠٠٠ ستة آلاف مقاتل.

٢- قريش وأحلافها ٤٠٠٠ أربعة آلاف مقاتل.

٣- اليهود ١٠٠٠ ألف مقاتل من يهود المدينة (بنى قريظة) تعهد سيد بنى النضير (حُيَيَّ بن أخطب) للقبائل النجدية وقريش أن ينضم هذا الألف من اليهود إلى قوات الاتحاد بمجرد عسكريتها فى ضواحي المدينة.

وهكذا لم يعد وفد العدوانى اليهودى الذى خرج بمخططة الإجرامى من خيبر، لم يعد هذا الوفد إلا وأعضاؤه يجرّون خلفهم عشرة آلاف مقاتل من مشركى العرب أخذت مواقعها حول المدينة فى الميعاد المحدد وأحاطتها كما يحيط البحر الهادر بالجزيرة الصغيرة.

وكانت قوة المسلمين التي عليها أن تواجه هذه القوات الوثنية الضاربة لا يزيد عددها (في أصح التقديرات) على ألف مقاتل.

آخر حلقة في سلسلة الإجرام اليهودي: وكانت آخر حلقة في سلسلة مساعي يهود خيبر الإجرامية للقضاء على الإسلام وسحق المسلمين وإبادتهم، هي نجاح شيطان بني النضير حبي بن أخطب في إقناع يهود بني قريظة القاطنين في المدينة (وعددهم حوالي ألف مقاتل) بأن يغدروا بمجلفائهم المسلمين فينقضوا العهد الذي بينهم وينضموا إلى قوات الأحزاب الغازية فيضربوا قوات الجيش الإسلامي من الخلف ساعة الصفر.

وهكذا أوقع نجاح هذا المخطط اليهودي الإجرامي الذي نسجت خيوطه في خيبر.. أوقع المسلمين في أقسى محنة عرفها تاريخهم منذ بزغت شمس الإسلام.

حيث وجد هؤلاء المسلمون الذين - لا تزيد قوتهم على ألف مقاتل - أنفسهم بين برائن إخطبوط الأحزاب الرهيب الذي بلغت قواته العسكرية المتحدة (بعد خيانة يهود بني قريظة) أحد عشر ألف مقاتل كانوا (بالإضافة إلى هذا العدد الغامر) يتفوقون على المسلمين في كل شيء مادي.

ولقد أطبقت قوات الأحزاب هذه على المسلمين من كل جانب في حصار خانق مرعب رهيب ظل يضغط بعنف متزايد على عنق القلة المسلمة حتى درجة الاختناق.

ولعل أصدق وصف لتعاضم الخطر وتفاقم المحنة التي جلبها يهود خيبر بسعيهم الإجرامي للمسلمين في غزوة الأحزاب المرعبة تلك، هو الوصف الذي جاء في سورة الأحزاب وهو قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۗ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ (١) ۗ

فقد وصل المسلمون في تلك الغزوة المخيفة التي (بدافع من الحقد الأسود) أثار يهود خيبر عواصفها المزلزلة، وصلوا إلى قاب قوسين أو أدنى من الانهيار والزوال.

لشدة ما تقاطر على هؤلاء المسلمين من محن وتحالف ضدهم من بلايا وويلات أخذ بعضها برقاب بعض.. وظلت (طيلة ليالي العدوان الحالكة تلك) تضغط - بضراوة وقسوة - على رثة الكيان الإسلامي دونما أي تراخ حتى كادت تقطع أنفاسه إلى الأبد.

الأمر الذي كان يوحى على نحو ساحق (بالنسبة للواقع المادي المحسوس المائل على السطح) بأن سقوط المدينة في أيدي قوات الأحزاب واليهود أمر لا مفر منه.

وأن مسألة هذا السقوط، هي مسألة وقت فقط.. قد يمتد لعدة أيام أو ينتهي في خلال ساعات، لأن ميزان مصير المسلمين في تلك الأيام الأخيرة الحالكة، وصلت شوكته حدود الصفر، وأخذت تهتز وكأنها مائلة نحو إعلان نهاية المسلمين.

وما كان يهود خيبر-، الرأس المفكر والمدبر لهذا الغزو المرعب المخيف - ما كان هؤلاء اليهود يشكون لحظة في هذه النهاية التي يشير كل شيء مادي محسوس بأنها محتومة.. وقد كادت تكون كذلك، لولا أن الله تعالى أنقذ المسلمين بمعجزة من عنده، حيث تغير الموقف (في اللحظات الأخيرة من ساعات المصير) لصالح المسلمين فجأة، وعلى خلاف ما كان يتوقع الفريقان المتحاربين كلاهما.

وما زال الموقف آخذاً في التحول عكساً وبشكل سريع ضد مصلحة اليهود وقوات الأحزاب حتى انفرط عقد تحالفها بعد أن نشب الخلاف والشقاق بين مختلف أجنحتها، فاندحرت بعد أن فكت الحصار عن المدينة تجر خلفها أذيال الهزيمة والفشل تاركة عناصر الخيانة والغدر والتآمر من يهود قريظة وخيبر ليواجهوا منفردين العقاب الصارم الذي لا بد من أن ينزله المسلمون بهم جزاء غدرهم وتآمرهم. والذي أنزلوه فعلاً بيهود بني قريظة حيث أعدم المسلمون من هؤلاء اليهود حوالي ثمانمائة مقاتل وصادروا كل ممتلكاتهم.

وقد فصلنا كل الأحداث التي سبقت وواكبت عمليات الأحزاب في هذا الغزو المخيف، فصلناها في كتابنا (غزوة الأحزاب) وهو الكتاب الثالث من سلسلة معارك الإسلام الفاصلة. كما فصلنا الحملة التأديبية التي فيها أباد المسلمون كل المقاتلين من خونة بني قريظة فصلناها في كتابنا (غزوة بن قريظة) وهو الكتاب الرابع من سلسلة معارك الإسلام الفاصلة.

فليرجع إلى هذين الكتابين من أراد الإطلاع على التفاصيل الدقيقة لما حدث في حملة الأحزاب المخيفة المرعبة، وما حدث في العمليات العسكرية التي قام بها المسلمون لقطع دابر اليهود الناكثين الغادرين المتآمرين من بني قريظة في يثرب^(١).

اليهود في خيبر بعد فتحها: وعندما تمت السيطرة الكاملة للمسلمين على خيبر (كما هو مفصل في هذا الكتاب) كانت اتفاقية التسليم النهائية التي بموجبها استسلم يهود الشطر الثاني من المدينة، تنص على أن يجلو جميع اليهود منها إلى الشام، غير أن اليهود عرضوا على النبي ﷺ أن يبقوا في خيبر ليقوموا باستصلاحها وزراعة أراضيها لأنهم أخبر بها، فقبل النبي ﷺ عرضهم وسمح لهم بالبقاء فيها ليعملوا في زراعتها مقابل حصولهم على نصف المحصول من ثمارها، واشترط في الاتفاقية على أن من حق المسلمين أن يخرجوا اليهود من خيبر متى أرادوا^(٢).

إجلاء اليهود في عهد الفاروق: وقد استمر اليهود في خيبر، بأيديهم أرضها يعملون فيها حسب الاتفاقية، طوال عهد النبي ﷺ وخلافة الصديق، إلى أن أجلاهم الخليفة الثاني.

(١) قد يكون في هذا الاستطراد شيء من التكرار لما جاء عن اليهود في كتبنا الثلاثة (غزوة أحد، وغزوة الأحزاب، وغزوة بني قريظة) إلا أن طبيعة البحث لإعطاء القارئ الكريم لمحة كافية عن تاريخ يهود خيبر تضطرننا إلى هذا الاستطراد، فمعذرة.

(٢) انظر بنود الاتفاق في هذا الكتاب. وانظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧١٧.

والسبب في إجلائهم أولاً: أن اتفاقية المساقاة والمزارعة التي عقدها النبي ﷺ تنص على أن من حق المسلمين إجلاءهم متى أرادوا، وثانياً: أن اليهود بالرغم من تمتعهم بكامل الحرية بعد السماح لهم بالعمل في خيبر بعد هزيمتهم، ظلت روح التآمر والكيد للمسلمين تسيطر على نفوسهم الشريرة.

فقد ارتكبوا أعمالاً ضد المسلمين تدل على أنهم لن يكفوا عن العمل ضدهم حتى وإن لم يعد لهم سلطان أو نفوذ في خيبر.

وقد بدأوا بممارسة أعمالهم الشريرة ضد المسلمين والنبي ﷺ لا يزال على قيد الحياة، فمن ذلك أنهم قاموا باغتيال عبد الله بن سهل أحد أصحاب النبي ﷺ في منطقة النطا، وبالرغم من أن المقتول وجد جثة في ديارهم، والقرائن تدل على أنهم قتلوه، فإن النبي ﷺ لم يعاقبهم، لأن التحقيقات التي أجراها مع اليهود لم تثبت إدانتهم من وجهة نظر القانون الإسلامي، ولذلك أمر النبي ﷺ بدفع دية القتل من بيت مال المسلمين^(١) غير أن اغتيال عبد الله بن سهل ظل عالماً بأذهان المسؤولين في المدينة كقرينة من القرائن على إجرام اليهود.

استخدام اليهود لبعض النصارى في اغتيال المسلمين: وفي عهد الخليفة الفاروق كثرت مؤامرات الاغتيال والتخريب من قبل اليهود في خيبر، ومن ذلك أن مظهر بن رافع الحارثي^(٢) استقدم عشرة من نصارى الشام يعملون بأرضه فأقبل حتى نزل بهم خيبر فأقام بها ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود وقال لهم: أنتم نصارى ونحن يهود، وهؤلاء قوم قد قهرونا بالسيف، وأنتم عشرة رجال أقبل رجل واحد منهم يسوقكم من أرض الخمر والخير إلى الجهد والبؤس، وتكونون في رق شديد، فإذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه، قالوا: ليس معنا سلاح فدرس اليهود إليهم سكينين أو ثلاثة فخرجوا، وقد اعتموا تنفيذ ما أوحى إليهم به اليهود.

فلما وصلوا إلى ثبار^(٣) في طريقهم إلى المدينة - مع مظهر بن عبد الله الحارثي - قال مظهر لأحدهم: ناولني كذا وكذا، فأقبلوا إليه جميعهم قد شهبوا سكاكينهم فخرج مظهر يعدو إلى سيفه ولكنهم بعجوا بطنه قبل أن يخرج السيف من قرابه، وبعد أن قتلوه عادوا إلى خيبر، فأواهم اليهود وأخفوهم ثم زدوهم وأعطوهم قوة فلاحقوا بالشام.

(١) انظر تفاصيل هذه القصة في مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧١٥ وما بعدها.

(٢) هو مظهر بن رافع بن عدي الأنصاري، قال الواقدي: شهد أحداً مع رسول الله ﷺ، وعاش إلى عهد الخليفة عمر حيث قتله أعلاج من عبيده بخيبر، وكان قد أقامهم له في أرضه يعملون.

(٣) ثبار (بكسر أوله) قال ياقوت: موضع على ستة أميال من خيبر، هناك قتل عبد الله بن أنيس أسير بن رازم.

الخليفة يأمر بجلاء اليهود: فلما جاء خبر مقتل مظهر إلى الخليفة الفاروق وقف خطيباً في المدينة وقال: أيها الناس! إن اليهود فعلوا بعبد الله ما فعلوا^(١) وفعلوا بمظهر بن رافع مع غدوتهم على عبد الله بن سهل في عهد رسول الله ﷺ، لا شك أنهم أصحابه (أي الاعتداء على عبد الله بن سهل) ليس لنا عدو غيرهم، فمن كان له بها (أي خيبر) مال فليخرج فأنا خارج فقاوم ما كان بها من الأموال وحاد حدودها ومورّف أرفها^(٢) ومجلي اليهود منها، فإن رسول الله ﷺ قال لهم: (أقرم ما أقرم الله) وقد أذن الله في جلائهم إلا أن يأتي رجل منهم بعهد أو بينة من النبي ﷺ أنه أقره فأقره، فقام طلحة بن عبيد الله فقال: قد والله أصبت يا أمير المؤمنين ووفقت. فقال له عمر: من معك على مثل رأيك؟ قال: المهاجرون جميعاً والأنصار، فسّر بذلك عمر.

وكان عمر (مع ذلك بلغه عن النبي ﷺ عن الثقات) أنه قال (وهو في مرض موته): لا يجتمع بجزيرة العرب دينان، فأرسل إلى يهود خيبر و(فدك) يخبرهم بأنه قد قرّر إجلاءهم إلا من كان عنده عهد من رسول الله ﷺ^(٣).

تعويض يهود فدك عند الجلاء: وقد أجلى الخليفة الفاروق يهود خيبر جميعاً ويهود فدك، لأن فدك تعتبر من رياض خيبر إذ لا تبعد عنها إلا عدة أميال.

وقد أجلى الخليفة هؤلاء اليهود بعد أن سمح لهم باصطحاب جميع ما يملكون من أموال منقولة، هذا بالنسبة ليهود خيبر، أما بالنسبة ليهود (فدك) فقد دفع لهم الخليفة عمر تعويضاً عادلاً عن نصف الأرض التي كانت بأيديهم^(٤)، لأنها كانت لهم بموجب اتفاقية التسليم بينهم وبين النبي ﷺ^(٥).

أما يهود وادي القرى ويهود تيماء، فلم يخرجهم الخليفة من الجزيرة^(٦) فيهود تيماء أهل ذمة صالحوا المسلمين على دفع الجزية ولم يحاربوا^(٧)، وأما يهود وادي القرى فلربما أن عدم إجلائهم (كيهود خيبر) راجع إلى عهد لديهم من رسول الله ﷺ يحق لهم بموجبه البقاء في الوادي، والله أعلم.

(١) كان اليهود قد اعتدوا على عبد الله بن عمر فخلعوا يده وهو نائم فلم يتخذ الخليفة ضدهم أي إجراء.

(٢) الأرف جمع أرفة وهي الحدود والمعالق قاله في النهاية ج ٢ ص ٢٨٢.

(٣) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧١٤ وما بعدها.

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٢١.

(٥) انظر تفاصيل هذه الاتفاقية في موطنها من هذا الكتاب.

(٦) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧١١.

(٧) انظر خبر هذا الصلح في مكانه من هذا الكتاب.

الفصل الثاني

- التهيؤ للغزو.
- النفير العام بين أصحاب الحديبية.
- النبي يرفض انخراط المخلفين عن الحديبية في الجيش.
- المسلمون والطابور الخامس في المدينة.
- خيبر تستعد لمواجهة المسلمين.
- اليهود يستنجدون بغطفان ضد المسلمين.
- النبي يعرض على غطفان ثمار خيبر مقابل التزامهم الحياد فيرفضون.
- غطفان تخذل اليهود وتعود إلى بلادها فجأة.
- التفاوت الهائل في كل شيء بين القوتين المتحاربتين.
- اختلاف قادة اليهود حول خطة الدفاع عن خيبر.
- أحد زعماء اليهود يقترح عليهم الزحف على المدينة.

وعد الله المسلمين بفتح خيبر: ذكرنا في كتابنا (صلح الحديبية) أن الله تعالى قد وعد المسلمين بأنهم سيفتحون خيبر وسيحصلون فيها على غنائم كبيرة، وذلك في قرآن أنزله تعالى على نبيه، وهو راجع من الحديبية بعد إبرام ذلك الصلح التاريخي مع مشركي مكة، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾^(١) أي فتح خيبر^(٢)، كذا قاله أصحاب المغازي والسير.

(١) الفتح: ٢٠.

(٢) نظر تفسير الآية في تفسير ابن كثير والكشاف والطبري وتفسير الشوكاني، وانظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٢١.

ولقد كان هذا الوعد الإلهي بمثابة تطمين للمسلمين وتثبيتاً لعزائمهم، فلم يعد لأحد منهم (وعلى رأسهم نبيهم الكريم) شك في أن الله سيفتح عليهم خير ويجعلها بواحاتها الخضراء الواسعة وحدائقها النضرة غنيمة لهم جزاء ثباتهم ووقوفهم إلى جانب نبيهم العظيم في السراء والضراء، كما أن وعد الله لهم بفتح خير بمثابة عزاء لهم عما لاقوه من كرب نفسي نتيجة قبول النبي ﷺ للشرط الذي صدوا بموجبه عن المسجد الحرام عام الحديبية.

ابتهاج المسلمون بغزو خيبر: وعندما أعلن النبي ﷺ استنفار أصحابه للزحف على خيبر، عمّت المسلمون موجة من الفرح والابتهاج، لأنهم كانوا حريصين كل الحرص على الجهاد الذي هو السبيل الوحيد لنيل أعلى الدرجات عند الله تعالى عن طريق الاستشهاد في سبيله. عدم قبول تجنيد المخلفين: جاء في كتابنا الخامس «صلح الحديبية» أن النبي ﷺ لما اعترم القيام بالعمرة إلى مكة في السنة السادسة من الهجرة طلب من كل المنتسبين إلى الإسلام في الحاضرة والبادية أن يصحبوه في هذه العمرة، وأمر منادياً ينادي بذلك.

غير أنه بالرغم من كثرة المنتسبين إلى الإسلام في تلك الفترة، فإنه لم يستجب لهذا النداء النبوي إلا عدد قليل من أصحابه الأوفياء وهم الصفوة المختارة الذين أعلن الله تعالى رضاه عنهم وهم يبايعون النبي ﷺ تحت الشجرة في الحديبية بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾^(١) الآية، وكان عدد الصفوة المختارة من هؤلاء الرجال ألف وأربعمائة.

أما المنافقون من أهل المدينة وضعاف الإيمان من الأعراب (وعدد الجميع غير قليل) وهم الذين سماهم الله بالمخلفين.. فقد تخاذلوا فلم يستجيبوا يومها لنداء الرسول ﷺ إذ قرروا عدم مصاحبته في هذه الرحلة التاريخية لأداء العمرة.

وذلك لما رسّخ في أذهانهم المريضة من أن النبي ﷺ سيلاقي متاعب شديدة في هذه الرحلة وأنه ومن معه قد يتعرضون لحرب ضروس تشنها عليهم قريش التي كانت أيامها في حالة حرب مع المسلمين.

ولما كان رصيد هؤلاء المنافقين من الإيمان غير موجود فقد انعدم في نفوسهم باعث التضحية وركوب الأخطار في سبيل الله، عكس المؤمنين الصادقين الذين لبّوا نداء نبيهم وقرروا الذهاب معه إلى مكة مهما كانت الأخطار التي يتوقعون (دونما شك) أنها ستحرف بهذه الرحلة.

وذكرنا في الكتاب الخامس «صلح الحديبية» أن المخلفين من منافقي الأعراب وأهل المدينة (لينجوا بأنفسهم من المخاطر التي قد يتعرض لها النبي ﷺ ومن يصاحبه في هذه العمرة) تناقلوا وتحلفوا عن ركب الإيمان، متعللين بشتى الأعذار الكاذبة.. ومن ذلك أن اشتغالهم بأهليهم وأموالهم لا يسمح لهم بأن يكونوا مع النبي ﷺ في هذه الرحلة، وهو عذر باطل فئده القرآن وردّه عليهم: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ ﴾

إلى أن قال تعالى كاشفاً دخائل أنفسهم المريضة: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّبَٰنَا فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾^(١).

ومع هذا التخاذل والتلكؤ فقد تركهم النبي ﷺ وشأنهم فلم يتخذ ضدهم أي إجراء بل وحتى لم يندد بهم حتى أنزل الله فيهم قرآناً كشف واقعهم السيئ المشين. ومضى رسول الله ﷺ وأصحابه لشأنهم وخرجوا من المدينة لأداء العمرة، وقد لقوا كثيراً من المتاعب إلا أن الله تعالى أبدى لهم بنصره وتوفيقه فعادوا سالمين بعد أن سجلوا أعظم نصر أدبي وسياسي وعقائدي كما فصلناه في كتابنا الخامس من هذه السلسلة - صلح الحديبية -.

وعقب عودة المسلمين من الحديبية عظمت هيبتهم وتعاضم سلطانهم بعد أن ارتفع رصيدهم من القوة فور توقيعهم على صلح الحديبية التاريخي وبعد أن فرضوا هيبتهم على قريش (عدوهم الرئيسي) بإجبارها على الاعتراف بهم وعقد هدنة تضع الحرب أوزارها بموجبها عشر سنوات.

وعندما أعلن النبي ﷺ التعبئة بين أصحابه للزحف على خيبر، تقدم هؤلاء المخلفون إلى النبي ﷺ وأكدوا رغبتهم في الانخراط في سلك الجيش الزاحف على خيبر ومشاركة المسلمين في شرف الجهاد.

ولم يكن هدفهم في الواقع من إبداء هذه الرغبة نيل شرف الجهاد في سبيل الله كما هو شأن الصفوة المختارة من أصحاب محمد ﷺ الذين صاحبه في عمرة الحديبية.. وإنما كان هدف هؤلاء المخلفين هو المشاركة في الحصول على الغنائم العظيمة التي وعد الله بها المؤمنين في خيبر، والتي أيقن هؤلاء المخلفون أن النبي ﷺ وأصحابه سيظفرون بها لا محالة.

غير أن النبي ﷺ وقد أخبره الله تعالى بمحقيقة غايات هؤلاء المخلفين من إبداء الرغبة في الاشتراك في غزو خيبر، وأنها غايات وأهداف مادية دنيوية صرفة بعيدة كل البعد عن نية الجهاد وقصد الاستشهاد في سبيل الله، أبى ﷺ عليهم أن يشاركوه في هذا الغزو، لأن الله تعالى أنزل فيهم قرآناً كشف حقيقتهم وأمر نبيه بأن يمنعهم من الانخراط في سلك

الجيش الزاحف على خيبر فقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن نَتَّبِعُونَ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسَدُونَكَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١).

وتنفيذاً لهذا الأمر الإلهي أعلن النبي ﷺ أنه لن يشترك معه في غزو اليهود في خيبر إلا أصحاب الشجرة الذين حضروا الحديبية وعددهم ألف وأربعمائة.

أما الذين تخلفوا عن الحديبية (وهم الذين عناهم القرآن بالمنع) فقد قال لهم النبي ﷺ لما جاءوه يستأذنونهم في الخروج معه إلى خيبر قال لهم: (لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا) (٢).

وجاء في السيرة الحلبية أن النبي ﷺ أمر منادياً ينادي بأن الذين تخلفوا عنه عام الحديبية ويرغبون في الخروج معه إلى خيبر فإنهم لن يعطوا شيئاً من غنائمها. وكان النبي ﷺ أراد بهذا (على ما يظهر) امتحان هؤلاء المخلفين ومعرفة الصادق منهم من الكاذب.

ذلك أنهم بتخلفهم عن النبي ﷺ في تلك الرحلة التاريخية المحفوفة (فعلاً) بالأخطار.. الرحلة التي انتهت بصلح الحديبية.. أثبتوا أنهم ليسوا على مستوى الإيمان واليقين الذي يحتم عليهم (وقد انتسبوا إلى أسرة الإسلام) أن يكونوا إلى جانب النبي ﷺ في السراء والضراء وفي المنشط والمكروه.

إذ ظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن باعث تخلفهم عن الرسول ﷺ عام الحديبية إنما كان (فقط) خوفاً من أن يكون المسلمون عرضة لحرب ضروس تشنها عليهم قريش في هذه الرحلة، وبهذا أدانوا أنفسهم بأنهم ليسوا مع المسلمين إلا إذا تأكد لديهم أن في ذلك مغنماً دون التعرض لأي مغرم، وهذه هي صفات النفعيين الانتهازيين الذين تأتي فئة الباطنيين من المنافقين هؤلاء في مقدمتهم.

ولذلك كان منع النبي ﷺ لهم من الانخراط في سلك الجيش الزاحف على خيبر إلا من كان راغباً في الجهاد الصادق، ولن يكون هناك دليل على صدقه سوى موافقته على أن لا حظاً له في الغنيمة إذا ما اشترك في قتال اليهود في خيبر.. كما أبلغ النبي ﷺ هؤلاء المخلفين صراحة - كان منعه ﷺ لهم بمثابة لوم لهم على تخلفهم عنه عام الحديبية، وفي الوقت نفسه كان اختباراً لمن يمكن أن يكون الله تعالى قد أصلحه.

(١) الفتح: ١٥.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٣٤.

إلا أنه (فيما وصل إلى علمنا) لم يثبت أن أحداً من هؤلاء المخلفين قبل إسقاط حقه في الغنيمة وانخرط في الجيش النبوي مخلصاً للجهاد لله سبحانه وتعالى.. ولذلك فإنه لم يشهد معارك خيبر سوى أصحاب الشجرة ممن حضروا صلح الحديبية وعددهم ألف وأربعمائة.

النساء في الجيش: إلا أن النبي ﷺ سمح لعشرين امرأة من نساء الصحابة بالخروج مع الجيش لمساعدة المحاربين في الإسعاف وإغاثة الجرحى بالماء والطعام أثناء القتال وما شابه ذلك، وكان من بين هؤلاء النسوة صفية عمة رسول الله ﷺ وأم سليم وأم عطية الأنصارية وأم عمارة.

فقد روي عن إحداهن أنها قالت: قلت: (يا رسول الله! إن نسوة قد أردن الخروج معك نعين المسلمين ما استطعنا، فقال: علي بركة الله) (١).

وهؤلاء النسوة (بالتأكيد) لسن كلهن ممن حضر الحديبية، إلا أنه لا يمكن اعتبارهن في عداد المخلفين، لأن الأمر بمصاحبة الرسول ﷺ في تلك الرحلة لا يتناولهن وإنما يتناول الرجال فقط، ولهذا لا يمكن اعتبارهن من المخلفين.. لذلك لم يمانع الرسول ﷺ في أن يكن معه في غزوة خيبر وفي هذه الغزوة خرج معه من نسائه زوجته أم سلمة (٢).

نموذج من الديمقراطية الصحيحة: وقد بقيت بالمدينة بقية من اليهود لم تتلهم التصفية التي نالت بني قريظة الخونة الغادرين؛ لأن هذه البقية من اليهود لم يكن لها يد في الغدر الذي أقدمت عليه قريظة.. ولهذا لم يتعرض لهم النبي ﷺ لا بنفي ولا بقتل ولا بجبس، فظلوا في المدينة أحراراً في ذمة وعهد المسلمين.

إلا أن هؤلاء اليهود بالرغم من المعاملة العادلة التي يعاملهم بها المسلمون ظل هوامهم مع إخوانهم يهود خيبر، بل لم يتورعوا عن التحزب والتعصب لهم داخل المدينة علناً.

فقد روى الواقدي في كتابه (المغازي ج ٢ ص ٦٣٤) أن البقية من يهود المدينة الذين ظلوا في عهد وذمة المسلمين (بعد تأديب بني قريظة) لما علموا بتجهز المسلمين لغزو خيبر شق عليهم ذلك؛ لأنهم موقنون أن احتلال المسلمين لخيبر يعني إنهاء الوجود اليهودي الدخيل في الجزيرة.. فلم يجدوا مانعاً من التعبير عن عطفهم على يهود خيبر وامتعاضهم من المسلمين لاعتزامهم الزحف على خيبر.

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨١.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٦.

إحراج اليهود للمسلمين: وكان اليهود أصحاب ثروات كبيرة، فكان المسلمون يقترضون منهم لقلّة ما بأيديهم من الأموال، فلا يكاد أحد من المسلمين يسلم من أن يكون عليه دين يهودي في المدينة. وقد استغل اليهود ذلك لصالح يهود خيبر فحاولوا تعويق المسلمين عن الغزو بمطالبتهم (فوراً) بتسديد ما عليهم من ديون.

فقد روى الواقدي (ج ٢ ص ٦٣٤) أن أحد الصحابة الغازين مع النبي ﷺ قال: فلما تجهزنا نريد خيبر، لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه، وكان لأبي الشحم (أحد اليهود) عند عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله، فلزمه فقال: أجلني فإنني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقلك إن شاء الله، إن الله عز وجل قد وعد نبيّه خيبر أن يغنمه إياها، وكان عبد الله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية، فقال: يا أبا الشحم! إنا نخرج إلى ريف الحجاز (يعني خيبر) في الطعام والأموال، فقال أبو الشحم (حسداً وبغياً): تحسب أن قتال خيبر مثلما تلقونه من الأعراب، فيها (والتوراة) عشرة آلاف مقاتل، قال ابن أبي حدرد: أي عدو الله! تخوفنا بعدونا وأنت في ذمتنا وجوارنا، والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي، وأخبرته بما قال أبو الشحم، فسكت رسول الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئاً، إلا أنني رأيت رسول الله ﷺ حرك شفثيه بشيء لم أسمع، قال اليهودي لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم! هذا قد ظلمني وجبني بحقي وأخذ طعامي، قال رسول الله ﷺ: أعطه حقه.

قال عبد الله: فخرجت فبعت أحد ثوبي بثلاثة دراهم وطلبت بقية حقه فقضيته، ولبست ثوبي الآخر وكانت عليّ عمامة فاستدفأت بها، وأعطاني سلمة بن أسلم ثوباً آخر فخرجت في ثوبين مع المسلمين ونفلي الله خيراً وغنمت امرأة بينها وبين أبي الشحم اليهودي قرابة فبعتها منه بمال^(١).

وقفه للتدبر والإمعان: إن الإنسان المتجرد المنصف (أيًا كان مذهبه أو دينه) لا يسعه إلا أن يقف أمام هذه الحادثة، وقفه تدبر وتبصر واعتبار ليرى مزيداً من إشارات العدل والحرية والديمقراطية الصحيحة التي جاء بها وحافظ عليها الإسلام محافظةً دقيقة فنعم في ظلها بالحرية الكاملة (دونما أية مضايقة أو إزعاج) حتى الذين لا يدينون بالإسلام، الأمر الذي لم يبلغ شأوه أي قانون في العالم حتى هذه الساعة.

(١) انظر أوسع التفاصيل عن وجهة النظر الإسلامية في إباحة الرق الحربي في كتابنا (غزة بني قريظة) ص ٢٨٣ تحت عنوان: (الإسلام والرق).

فهذا يهودي (أبو الشحم) تحت حكم الإسلام وفي ظل سلطان دولته يبلغ به التمتع بالحرية الكاملة التي أعطاها إياها الإسلام إلى أن يعبر (وهو في دار الإسلام وتحت سلطانه وفي ظروف هي - بالنسبة للمسلمين - ظروف حربية استثنائية وطوارئ) أصرح تعبير عن عطفه بل وتأييده إلى حد التعصب لليهود خبير الذين هم عدو محارب للمسلمين الذين يقع أبو الشحم اليهودي تحت سلطانهم وفي قبضة أيديهم بحيث يستطيعون إنزال ما يريدون به من عقاب دون أن يجد من يحميه.

ولكن ما الذي حدث؟ لقد سخر هذا اليهودي من قوة المسلمين الذين هو في ذمتهم وتحت سلطانهم، وعظم من قوة يهود خبير وتمنى لهم النصر على المسلمين، وخوفهم بعددهم وعديدهم حتى أغضب أحد جنود الإسلام، وعندما رفع هذا الجندي (أبو حدرد) أمره إلى رسول الله ﷺ لم يتخذ ضد هذا اليهودي أي إجراء، بل أمر الجندي المشتكي بأن يدفع إلى اليهودي ما عليه له من دين قائلاً: أعطه حقه.

فهل يرى أديعاء الديمقراطية في هذا العصر (شركيين كانوا أم غربيين) أنهم يستطيعون معاملة من يخالفهم في العقيدة والمذهب والاتجاه ممن هو تحت سلطانهم معاملة النبي محمد ﷺ لهذا اليهودي (أبي الشحم) وخاصة إذا ارتكب هذا المخالف شيئاً مما ارتكبه أبو الشحم؟

لا أظن أن أحداً (وخاصة من أديعاء الديمقراطية في المعسكر الاشتراكي) يستطيع الاقتراب مجرد الاقتراب (في معاملته للخصوم) من المعاملة الشريفة التي عامل بها نظام الإسلام الحكيم مثل هذا اليهودي من الخصوم والمخالفين.

يهود المدينة والتجسس على المسلمين: ولم يكتف يهود يثرب بالتعبير عن عطفهم على يهود خيبر والتعصب لهم، بل بلغت بهم الجرأة إلى أن يتجسسوا على المسلمين لحساب يهود خيبر، فقد بعثوا بأعرابي من أشجع استأجروه ليحمل إلى قادة يهود خيبر كل ما يحتاجون من معلومات عن الجيش الإسلامي ويطلبون منهم الصمود في وجه المسلمين، وقد وقع هذا الجاسوس في قبضة دورية للجيش الإسلامي كانت تقوم بالاستطلاع، كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله.

عدم التورية في غزوة خيبر: لم يوري النبي ﷺ في غزوة خيبر هذه (كما هي عادته في أكثر غزواته البعيدة) بل أعلن التعبئة العامة وأعلم الناس أنه يريد خيبر.

ولعل ذلك راجع (في الدرجة الأولى) إلى أن المسلمين باتوا آمنين على المدينة من أن تكون عرضة لأي هجوم من قبل الأعراب الوثنيين المجاورين بعد تلك الحملات العسكرية التأديبية التي جردها عليهم النبي ﷺ فخضد بها شوكتهم.. وإلى أن قيام المسلمين بالزحف على خيبر لم يعد سراً يمكن إخفاؤه، لأن اليهود في خيبر (منذ فشل العدوان الآثم الذي دبروه مع الأحزاب على المدينة في السنة الرابعة من الهجرة) وهم يتوقعون أن يقوم النبي ﷺ بنقل المعركة إلى عقر دارهم في خيبر.

فكانوا لذلك يستعدون للحرب بإقامة المسالح وتشييد الحصون والقلاع وشحنها بالمقاتلين تحسباً للهجوم المنتظر عليهم. كما أن صلح الحديبية قد أمن به المسلمون جانب قريش.

ولا يستبعد أن يكون اليهود قد بثوا الأرصاء والعيون في المسالك والطرق المؤدية من المدينة إلى خيبر لمراقبة ما يتوقعون من تحركات يقوم بها الجيش النبوي. لقد حدث ذلك بالفعل كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

المنافقون طابور اليهود الخامس: بل إن يهود خيبر ليسوا بحاجة إلى أن يعيشوا بالأرصاد والجواسيس لينقلوا إليهم حقيقة الموقف في المدينة وليبلغوهم كيف ومتى يعتزم النبي التحرك بجيشه لغزوهم.

فقد كان الباطنيون من المنافقين الذين يحملون الهوية الإسلامية في الظاهر والمقيمون بين أظهر المسلمين.. كان هؤلاء المنافقون بمثابة الرئيل الخامس العامل لحساب يهود خيبر بين صفوف المسلمين في المدينة.

فقد كان هؤلاء المنافقون (منذ بزغت شمس الإسلام ووصل شعاعه إلى يثرب) يشكلون مع اليهود في المدينة جبهة قوية مناوئة للإسلام والمسلمين.

اليهود يمثلون المعارضة الصريحة والمعادة السافرة، والمنافقون يقفون وراء هؤلاء اليهود كعناصر سرية مساندة.. تشجعهم على التحرش بالمسلمين وتشدُّ من عضدهم، بل وتمد إليهم يد العون المادي والأدبي جهراً، إن أمكن، وسراً إذا لم يمكن الجهر.

وقد خلق هذا الطابور الخامس (من المنافقين) للمسلمين متاعب كثيرة ومشاكل معقدة بالتواطؤ مع العناصر اليهودية عندما كان كيانها الدخيل لا يزال قائماً في المدينة.

ولقد عرف التاريخ كيف كان هؤلاء المنافقون يقفون موقف العطف والتأييد لليهود في أي خلاف ينشب بينهم وبين المسلمين.

فقد عرفنا كيف كان المنافقون يشجعون يهود بني قينقاع على العصيان والتمرد والتحرش بالمسلمين. وكيف حرضوا يهود بني النضير على عدم الرضوخ للإنذار النبوي بالجلاء.

وعندما اضطر النبي ﷺ إلى محاصرة هؤلاء اليهود لتأديبهم على ما ارتكبوا من نكث للعهود ونزل هؤلاء اليهود على حكم النبي ﷺ بعد حصار دام حوالي نصف شهر.. لم يُخفِ الرتل الخامس من هؤلاء المنافقين جزعهم الشديد لهذا الحادث.

ولم يكتموا جزعهم وخوفهم على مصير يهود بني قينقاع الذين كان الموت ينتظرهم كخونة متمردين ناكثين أرغموا على الاستسلام بالقوة.

وكان أشد هؤلاء المنافقين جزءاً وخوفاً على مصير حلفائه بني قينقاع، رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول، الذي حمله الخوف على مصير اليهود على أن يقدم إلى الرسول القائد ﷺ التماساً يطلب فيه منه أن يحقن دماءهم، وكان هذا المنافق سيداً من سادات الخزرج، وحليفاً هؤلاء اليهود.

وقد عفا النبي ﷺ عن هؤلاء اليهود وحقن دماءهم بناءً على التماس عبد الله بن أبي الذي ألح على النبي ﷺ في الشفاعة إلى حد المضايقة والإحراج حيث أمسك هذا المنافق بدرع النبي ﷺ وقال له - عندما لم ير منه استجابة لالتماسه -: والله لا أرسلك حتى تحسن في حلفائي، فقال له النبي ﷺ: هم لك (١).

الرتل الخامس وبنو النضير: ولعل أبرز أدوار التعاطف والتلاحم بين الرتل الخامس من المنافقين وبين أصدقائهم اليهود هو دور هؤلاء المنافقين في حوادث فتنة يهود بني النضير الذين يعتبرون من أصدقاء عبد الله بن أبي وفتنة الباطنيين من الطابور الخامس.

فعندما ضرب النبي ﷺ الحصار على هؤلاء اليهود في المدينة - عقب اكتشاف مؤامرة الاغتيال التي دبروها لقتل النبي - وكاد هؤلاء اليهود يرضخون للإنذار الذين وجه إليهم من قبل النبي ﷺ بأن يجلو من المدينة، بعث إليهم زعيم الطابور الخامس (المنافقين) عبد الله بن أبي بن سلول يحثهم على الصمود في وجه المسلمين ورفض إنذارهم، كما وعدهم بأنه وجماعته الباطنيين وحلفاءهم من الأعراب الوثنيين سيكونون إلى جانبهم ضد المسلمين.

(١) انظر تفاصيل إجلاء يهود بني قينقاع في كتابنا (غزوة أحد).

وعندما انهارت مقاومة يهود بني النضير وقبلوا شرط الجلاء الذي أملاه المسلمون، ونزل واستوطن هؤلاء اليهود خيبر إلى جانب إخوانهم، ظلوا على صلة وثيقة بأصدقائهم المنافقين في المدينة^(١).

وظل هؤلاء المنافقون يقومون بين صفوف المسلمين بأعمال الطابور الخامس لحساب يهود خيبر حيث صاروا يتجسسون على المسلمين، فينقلون من أخبار وأسرار المسلمين كل ما يهم يهود خيبر معرفته والإمام به.

رأس النفاق يشعر اليهود بغزو المسلمين: ولا أدلّ على ذلك من أن النبي ﷺ لما اعتمز الزحف على خيبر، سارع عبد الله بن أبيّ وأشعر يهود خيبر بذلك، وطلب منهم أن يستعدوا ويأخذوا حذرهم، وصار يرفع من معنوياتهم بالتهوين من شأن قوة المسلمين والإشادة بقوات أولئك اليهود، وذلك في رسالة مستعجلة بعث بها أحد أعوانه إلى خيبر، ومما جاء في هذه الرسالة:

«إن محمداً سائر إليكم فخذوا حذرکم وأدخلوا أموالكم حصونكم واخرجوا لقتاله، ولا تحافوا منه، إن عددكم كثير، وقوم محمد شرذمة قليلون عُزِّل لا سلاح معهم إلا القليل»^(٢).

استعداد اليهود للمواجهة: لقد كان يهود خيبر منذ فشل خطة غزو الأحزاب التي هي من وحي اليهود وتديبرهم في السنة الرابعة من الهجرة - يتوقعون أن يقوم المسلمون بتأديبهم عن طريق حرب وقائية شاملة، ولذلك كانوا يستعدون للمواجهة (بصفة عامة)، إلا أنهم ما كانوا يعلمون (على وجه التحديد) متى سيتحرك النبي ﷺ بجيشه لغزوهم. إلا أنهم بعد أن تلقوا - عن طريق عملائهم المنافقين في المدينة - التفاصيل الدقيقة عن مدى قوة المسلمين، أخذوا في التهيؤ والاستعداد للمواجهة وعلى أوسع نطاق وبصورة أكثر جدية.

فحشدوا كافة قواهم العسكرية واتخذوا كافة الإجراءات التي يرونها ضرورية لمواجهة الغزو.

والمنتجع لأسلوب استعداد يهود خيبر للحرب، يتضح له أن خطتهم الأساسية كانت خطة دفاعية محضة بالرغم من تفوقهم على المسلمين تفوقاً ساحقاً في كل شيء مادي.

(١) انظر تفاصيل قصة جلاء يهود بني النضير في كتابنا (غزوة أحد).

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٧.

فبالإضافة إلى إعطاء حصونهم وقلاعهم - المنيعة والحصينة أصلاً - مزيداً من القوة والتحصين أدخلوا كل الحصون والقلاع الأمامية من الذراري والنساء ونقلوهم إلى حصون خلفية، قرروا بموجب خطة المواجهة التي وضعوها أن تكون هذه الحصون الخلفية خط الدفاع الثاني، إذا ما اجتاحت المسلمون خط الدفاع الأول المتمثل في الحصون والقلاع الأمامية التي أدخلوها من كل شيء، ولم يسمحوا لأحد أن يبقى فيها غير حملة السلاح الذين امتلأت بهم ساحات وأبراج هذه الحصون.

كما نقلوا (كجزء من خطة المواجهة) شيئاً عظيماً من المواد الغذائية إلى خط الدفاع الثاني ليكون ذلك عوناً لهم على مواجهة الحصار الذي كانوا يتوقعونه.

اختلاف قادة اليهود في وضع الخطط: وكان قادة اليهود عندما أحسوا بمسير رسول الله ﷺ إليهم يجيشه عقدوا مجلساً عسكرياً تبادلوا فيه الرأي حول أفضل الخطط التي يجب إتباعها لمواجهة جيش الإسلام الغازي.

وأثناء بحث هذا الموضوع انقسم قادة اليهود إلى فئات ثلاث: فئة ترى أن يتحصن اليهود في الحصون والقلاع ويقاوتوا المسلمين من وراء الأسوار بحجة أن ذلك يضجر المسلمين فيجبرهم في النهاية على الانسحاب دون أن يقدرروا على اقتحام الحصون لمناعتها وكثرة المقاتلين فيها.

وفئة ترى أن على يهود خيبر أن يعسكروا خارج الحصون والقلاع ويواجهوا المسلمين في العراء فيخوضوا معهم معركة فاصلة خاطفة بدلاً من التحصن داخل الحصون والقلاع.

وكان على رأس الفريق الثاني أحد قادتهم الكبار وهو الحارث الملقب (بأبي زينب) وهو أخو (مرحب الفارس المشهور) وكلاهما من قبيلة جَمَيْر^(١).

فقد قال أبو زينب^(٢) (شارحاً وجهة نظره ومحبذاً البروز للمسلمين): إني قد رأيت من سار إلى (محمد) من الحصون، لم يكن لهم بقاء بعد أن حاصرهم حتى نزلوا على حكمه، ومنهم من سبى ومنهم من قتل صبراً.. ثم استرسل أبو زينب في شرح فوائد فكرة الاصطدام بالمسلمين خارج القلاع والحصون في معركة سريعة حاسمة، محاولاً إقناع زملائه من القادة بقبول فكرته الجريئة.

(١) انظر سيرة ابن هشام.

(٢) قتل أبو زينب هذا مبارزة عند باب حصن ناعم وكان أول قتيل من قادة اليهود الكبار، قتله علي بن أبي طالب، وقال

آخرون: قتله أبو دجانة.

غير أن اقتراح أبي زينب هذا لم يلق أي تجاوب من القادة اليهود حيث رفضوه وأيدوا فكرة التحصن داخل القلاع ومواجهة المسلمين من وراء أسوارها قائلين: يا أبا زينب! إن حصوننا هذه ليست مثل تلك، هذه حصون منيعة في ذرى الجبال، ثم خالفوه^(١).

أما الفئة الثالثة فقد ذهبت في الجراة إلى أبعد مما ذهب إليه الحارث أبو زينب، حيث اقترحت (لا ملاقاة المسلمين خارج حصون خيبر) بل اقترحت هذه الفئة القيام بغزو المسلمين في المدينة، وضربهم فيها قبل أن يتحركوا بقواتهم نحو خيبر.

وكان على رأس هذه الفئة (سلام بن مشكم النضري) الذي كان القائد العام للقوات اليهودية في خيبر والذي يقال له في ذلك العصر: (صاحب حربهم)^(٢).

فقد ذكر المؤرخون أن سلام بن مشكم قال في اجتماع لهم (محملاً حبي بن أخطب ما أصاب يهود يثرب وخاصة ما حلّ ببني قريظة): هذا كله عمل حبي بن أخطب شامناً أولاً، وخالفنا في الرأي، فأخرجنا من أموالنا وشرفنا^(٣) وقتل إخواننا (يعني بني قريظة الذين غرر بهم حبي بن أخطب فخانوا عهد المسلمين) وأشد من القتل سباً الذرية، لا قامت يهود بالحجاز أبداً، ليس لليهود عزم ولا رأي. فقالوا: فما الرأي يا أبا عمرو؟ (وهذه كنيته) قال: وما تصنعون برأي لا تأخذون منه حرفاً؟

فكرة غزو المدينة: قال كنانة (وأظنه ابن أبي حُقيق): ليس هذا بجين عتاب، قد صار الأمر إلى ما ترى. قال: محمد قد فرغ من يهود يثرب، وهو سائر إليكم، فنازل بساحتكم، وصانع بكم ما صنع ببني قريظة. قالوا: فما الرأي؟ قال: نسير إليه بمن معنا من يهود خيبر، فلهم عدد، ونستجلب يهود تيماء وفدك، ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب، فقد رأيتم في غزوة الخندق (الأحزاب) ما صنعت بكم العرب (يعني غطفان)

(١) مغازي الواقدي ج ٣ ص ٦٣٧.

(٢) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٨٠.

(٣) كان سلام بن مشكم - مع منصبه القيادي الحربي - حبراً من أحبار اليهود وكان يعلم أن النبي محمد ﷺ رسول من عند الله، لذلك كان حرصاً على سلامة اليهود) يعارض حبي بن أخطب في مشاريعه العدوانية وخططه التأميرية على المسلمين، ومن ذلك أنه الزعيم اليهودي الوحيد الذي عارض فكرة اغتيال النبي ﷺ في ديار بني النضير بالمدينة ولكن معارضته رفضت، واتبع بنو النضير رأي حبي بن أخطب فحاولوا الاغتيال، وكان ذلك سبب نفيهم من المدينة (انظر كتابنا غزوة الأحزاب ص ٥٦).

بعد أن شرطتم لهم تمر خبير نقضوا ذلك وخذلوكم، وطلبوا من محمد بعض تمر الأوس والخزرج ينصرفون عنه^(١). مع أن نعيم بن مسعود هو الذي كادهم بمحمد^(٢) ومعروفهم إليه، معروفهم!!

ثم كرر سلام بن مشكم دعوته إلى غزو النبي ﷺ في المدينة قبل أن يزحف إلى خيبر قائلاً: ثم نسير إليه (أي النبي ﷺ) في عقر داره، فنقاتل على وثر حديث وقديم. فمال أكثر قادة اليهود إلى رأي (سلام بن مشكم) قائلين: هذا الرأي. ولكن ملك اليهود (كنانة بن أبي الحقيق) عارض فكرة غزو المدينة التي أبداهها سلام بن مشكم قائلاً: إنني قد رأيت العرب (أخبرتهم) فرأيتهم أشدء عليه (أي النبي ﷺ) وحصوننا هذه ليست مثل ما هناك - يعني يثرب - ومحمد لا يسير إلينا أبداً لما يعرف. فغضب سلام بن مشكم لمعارضة كنانة بن أبي الحقيق لاقتراحه وقال بجدة - مشيراً إلى كنانة - : هذا رجل لا يقا تل حتى يؤخذ برقبته، فكان ذلك، (حيث قتل كنانة وكل قادة اليهود في حرب خيبر)^(٣).

خيبر تستنجد بأعراب نجد: على أثر المعلومات التي تلقاها يهود خيبر من عملائهم المنافقين واليهود في المدينة، والتي تفيد أن النبي ﷺ قد قرر الزحف على خيبر، سارع يهود خيبر إلى طلب النجدة من أصدقائهم القدامى وجيرانهم أعراب نجد. فقد بعثت خيبر بوفد من زعمائها ليطوف على هذه القبائل الوثنية ويطلب منها النجدة والمساعدة لمواجهة الجيش النبوي الذي يعتبره الفريقان عدواً مشتركاً. وكان هذا الوفد اليهودي مكوناً من أربعة عشر رجلاً على رأسهم كنانة بن أبي الحقيق ملك خيبر الجديد، وهوذة بن قيس الوائلي أحد قادة اليهود البارزين. وقد طاف هذا الوفد اليهودي على قبائل غطفان الوثنية طالباً منها مدء بقوات كبيرة ترابط إلى جانب يهود خيبر لمواجهة المسلمين.

(١) في كتابنا الثالث من معارك الإسلام الفاصلة (غزوة الأحزاب الفصل الثالث ص ١٩٩) انظر تفاصيل مفاوضة النبي ﷺ وقادة غطفان السرية لعقد صلح منفرد والحرب قائمة.

(٢) انظر أوسع التفاصيل عن مكيدة نعيم بن مسعود التي كاد بها قوات الأحزاب فحول بها ميزان المعركة لصالح المسلمين بدهائه. انظر هذه التفاصيل في كتابنا (غزوة الأحزاب الفصل الرابع ص ٢٤٨ وما بعدها).

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٥٣٠.

مرابطة الأعراب مع اليهود في خيبر: ولم تتردد هذه القبائل الوثنية في الاستجابة لطلب اليهود وخاصة: غطفان وبني أسد، فقد بعثوا بعدة كتائب من رجالهم لنجدة اليهود بقيادة عيينة بن حصن الفزاري على رجال غطفان وطليحة بن خويلد الأسدي على بني أسد. كما وعدوا بتجهيز أربعة آلاف مقاتل لمساندة اليهود. وقد رابط رجال هذه الكتائب مع اليهود في حصونهم بخيبر، ليشاركوهم في مسؤولية الدفاع عن هذه الحصون عندما يشن المسلمون عليها هجومهم^(١).

ولم يعط أحد من المؤرخين تحديداً لعدد الرجال الذين رابطوا (من غطفان وبني أسد) إلى جانب اليهود في حصونهم أول الأمر، إلا أن الاحتمال قوي بأن عددهم لا يقل عن ألف مقاتل، وبهذا يكون عدد القوات التي تحصنت داخل قلاع خيبر لمواجهة المسلمين لا يقل عن أحد عشر ألفاً.. على ألف وأربعمائة مقاتل من المسلمين (فقط) أن يهاجموهم. إنها مهمة شاقة وعسيرة على المسلمين أن يقوموا بها، وتغلب هذه القلة من المسلمين المكشوفين في العراء على تلك الكثرة الهائلة المتحصنة خلف أسوار تلك القلاع المنيعة هو نوع من المعجزات إن صح هذا التعبير.

رفض بني مرة أن ينجدوا اليهود: وإذا كانت قبائل غطفان وبني أسد قد استجابت لنداء يهود خيبر فأرسلت بتلك القوات من أبنائها لنجدتهم بقيادة سيدين من كبار ساداتهم (عيينة ابن حصن وطليحة بن خويلد) فإن قبيلة بني مرة (التي كانت أحد الأجنحة الأربعة في القوات النجدية المخالفة لليهود التي شاركتهم في غزوة المدينة عام الأحزاب) هذه القبيلة النجدية رفضت الاستجابة لنداء اليهود فلم ترسل إليهم ولا برجل واحد.. وذلك إتباعاً لنصيحة سيدها الحارث بن عوف المرّي الذي نصحها بأن لا تتورط في مساندة اليهود في خيبر كما تورطت في الاستجابة لوساوسهم حين شاركت في الحلف اليهودي الوثني الذي شُنَّ على المسلمين في حملة الأحزاب الخاسرة الشهيرة.

فقد أدرك هذا السيد المرّي برجاحة عقله (على ضوء ما لديه من معلومات مصدرها أحبار اليهود أنفسهم) أن اليهود - عندما يهاجمهم المسلمون - سيخوضون معركة خاسرة، وإنه - لذلك - يرى أنه من العبث تقديم رقاب بني مرة للموت في معركة نهايتها معروفة، وهي انهزام اليهود وانتصار المسلمين، وذلك الذي جعله يمنع بني مرة من نجدة اليهود.

(١) انظر مختصر مغازي الواقدي ص ٣١٢.

الحارث بن عوف ينصح عيينة بن حصن: ولم يكتف سيد بني مرة بإقناع قومه بعدم التورط في مساندة يهود خيبر ضد المسلمين، بل ذهب إلى سيد فزارة عيينة بن حصن ونصحه بأن لا يستجيب لنداء اليهود، وأبلغه صراحة أنه إن فعل، إنما يأتي عبثاً ويرتكب خطأً، فقد قال الحارث لعيينة ناصحاً:

«يا عيينة! إنك توضع في غير شيء، والله - يا عيينة - ليظهرن محمد علي ما بين المشرق والمغرب.. يهود يخبروننا بذلك. أشهد إنني لسمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول: إنا لنحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بني هارون وهو (أي محمد) نبي مرسل.. ويهود لا تطاوعني على هذا.. ولنا منه ذبحان.. واحد بيثرب (وقد كان) وواحد بخيبر.. فقلت له: (يا سلام) يملك الأرض جميعاً؟ قال: نعم، والتوراة! التي أنزلت على موسى.. وما أحب أن يعلم يهود بقولي فيه»^(١).

تحرك الجيش النبوي نحو خيبر: وبينما كان اليهود يعدون العدة لمواجهة المسلمين ويتصلون بحلفائهم من قبائل نجد الوثنية لإنجادهم، كان المسلمون في المدينة يهيئون أنفسهم ويستكملون تجهيزات جيشهم للمعركة الفاصلة التي قرر النبي ﷺ خوضها مع اليهود لإنهاء وجودهم الدخيل في الجزيرة كلها.

وبعد أن أكمل النبي ﷺ حشد جيشه وإعداده في المدينة فصل به من المدينة في اتجاه خيبر، وكان ذلك في أوائل شهر محرم من السنة السابعة للهجرة.

نائب النبي على المدينة: وقبل أن يفصل النبي ﷺ بجيشه من المدينة (وكما هي عادته في مثل هذه الظروف) أصدر ﷺ مرسوماً نبوياً عين بموجبه سباع بن عرفطة الغفاري أميراً على المدينة يدير شؤونها نيابة عنه حتى عودته من خيبر^(٢).

مدى قوة المسلمين: وكانت قوة المسلمين (كما تقدم) تبلغ ألفاً وأربعمائة مقاتل كلهم حضر الحديبية، وكان ضمن هذه القوة مائتا فارس.

وهذا أكبر عدد من الفرسان، يتوفر لدى المسلمين في جيش يغزون به في تاريخهم حتى ذلك اليوم.

أما وسائل النقل الأخرى كالجمال، فلم يذكر أحد من المؤرخين (فيما بلغني) كما كان عددها لدى الجيش الغازي.

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٩.

(٢) طبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١٠٦.

سلاح الاستكشاف: وقبل أن يتحرك النبي ﷺ بجيشه من المدينة كَوْن وحدة للاستكشاف والاستطلاع كلها من الفرسان بقيادة أحد قادة الحرس النبوي (عبّاد بن بشر الأنصاري) وقد كانت مهمة هذه الوحدة أن تنطلق أمام الجيش النبوي لارتداد المسالك والطرق وكشفها أمام الجيش الزاحف للتأكد من خلوّها من كائن الأعداء وجواسيسهم وللتعرف على أخبارهم.

أدلاء الجيش: كما أن النبي ﷺ وأصحابه لما كانوا يجهلون المسالك والطرق المؤدية إلى خيبر ولا يعرفون شيئاً عن طبيعة البلاد التي سيمر بها الجيش، فقد استعانوا بأدلاء خبيرين بتلك الأرض ومسالكتها ليدلّوا الجيش حتى يصل إلى خيبر. وكان من هؤلاء الأدلاء الذين اختارهم النبي القائد ﷺ حسيل بن خارجة وعبد الله بن نعيم، وكلاهما من قبيلة أشجع النجدية التي يرتاد رجالها دائماً في الجاهلية منطقة خيبر.

طريق الجيش إلى خيبر: تقع خيبر (كما قلنا) شمال شرقي المدينة، أما الطريق التي سلكها النبي ﷺ إلى خيبر، فقد ذكر المؤرخون^(١). خرج بجيشه من المدينة فسلك ثنية الوداع^(٢) ثم أخذ على الزُغابة^(٣) ثم على نَقْمَى^(٤) ثم سلك المستناخ ثم على عصر^(٥) حتى انتهى إلى الصهباء^(٦) قال الواقدي: صلى ﷺ بالصهباء العصر ثم دعا بالأطعمة فلم يؤت إلا بالسويق والتمر فأكل ﷺ وأكلوا معه ثم قام إلى المغرب فصلى بالناس ولم يتوضأ ثم صلى العشاء بالناس.

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٨ ومغازي الواقدي (تحقيق الدكتور مارسدن جونس) ج ٢ ص ٦٣٨ وما بعدها.

(٢) ثنية الوداع مر رئيسي يقع شمال المدينة.

(٣) زُغابة (بضم أوله) موقع على بعد أميال من المدينة ناحية الشمال، بين الجرف والغابة.

(٤) نَقْمَى (بفتح أوله) قال ياقوت في معجمه: موضع إلى جانب أحد... يقع في الطرف الغربي للجليل.

(٥) عصر (بكسر أوله وسكون ثانيه) جبل بين المدينة ووادي الفرع، قال ابن إسحاق: بنى النبي ﷺ مسجداً وهو في طريقه إلى خيبر والفرع (بضم أوله وسكون ثانيه) قال: ياقوت: قرية من نواحي المدينة بينها وبين المدينة ثمانية برد.

(٦) الصهباء (بفتح أوله وسكون ثانيه) قال في معجم البلدان، موضع بينه وبين خيبر، روحة، له ذكر في الأخبار.

وفي الصهباء (وهي أقرب منزل نزله النبي بجيشه من خيبر) قرر أن يكون هجومه على خيبر من ناحيتها الشمالية، ليحول بين اليهود وبين الفرار إلى الشام. فقد استدعى الأدلاء فجاءه حسبل بن خارجة الأشجعي وعبد الله بن نعيم الأشجعي، فأخبرهما بخطته الرامية إلى مهاجمة خيبر من الشمال قائلاً: امض أماننا حتى نأخذ صدور الأودية حتى نأتي خيبر من بينها وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان، فقال حسيل: أنا أسلك بك، فأنتهى به الدليل (حسيل) إلى موضع له طرق متعددة كلها تؤدي إلى خيبر، فقال: يا رسول الله! إن لها طرقاً يؤتى منها كلها، فطلب الرسول ﷺ من الدليل (حسيل) أن يسمي هذه الطرق فوصفها وسماها، فاختار الرسول ﷺ سلوك طريق منها اسمها (مرحب) فاجتازها حتى انتهت به إلى خيبر من ناحيتها الشمالية. وقد سلك على حياض والسرير^(١) فاتبع صدور الأودية حتى هبط على الخرصة^(٢)، ثم نهض فسلك بين الشق^(٣) والنظاة^(٤).

إلقاء القبض على جاسوس: وأثناء قيام عباد بن بشر ودوريته بأعمال الاستكشاف أمام الجيش النبوي ألقوا القبض على رجل من (أشجع) بعد أن اشتبهوا فيه بأنه جاسوس لليهود.

وقد أنكر الأشجعي (أول الأمر) أن يكون جاسوساً، إلا أن التحقيق الشديد الذي أجراه معه قائد الدورية حمله على الاعتراف بتجسسه لحساب اليهود.

فعندما سأله عباد بن بشر: من أنت؟ قال: باغ ابتغى أبصرة ضلّت لي، أنا على أثرها. فقال له عباد: ألك علم بخيبر؟

قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟

قال: عن اليهود.

(١) السرير: الوادي الأدنى من خيبر، كذا قال السمهودي في وفاء الوفاء.

(٢) الخرصة: بفتح أوله وثانيه، قال في السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٨ حصن من حصون خيبر.

(٣) الشق: منطقة في خيبر تقع فيها مجموعة من حصون اليهود تقع في القسم الأول من مدينة خيبر.

(٤) النظاة: بفتح أوله، منطقة دارت فيها أعنف المعارك في خيبر.

قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق^(١) وهوذة بن قيس^(٢) ساروا في حلفائهم من غطفان فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع^(٣) والسلاح، يقودهم عتبة بن بدر ودخلوا معهم في حصونهم، وفيها عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حُصروا لسنين لكفاهم، وماء وإين^(٤) يشربون من حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة.

وهنا ترجح لدى قائد دورية الاستكشاف (عباد بن بشر) أن الأعرابي عين لليهود ومأجور لهم، فضربه بالسوط ضربات وقال: ما أنت إلا جاسوس لليهود، ثم شدد عليه قائلاً: اصدقني وإلا ضربت عنقك.

قال الأشجعي: أتؤمنني على أن أصدقك؟

قال عباد: نعم.

قال الأعرابي: القوم (يعني يهود خيبر) مرعوبون خائفون وجلون، لما قد صنعتم بمن كان يثرب من اليهود، وإن يهود يثرب بعثوا ابن عم لي وجدوه بالمدينة، قد قدم بسلة يبيعهها، فبعثوه إلى كنانة بن أبي الحقيق يخبرونه بقلتكم وقلة خيلكم وسلاحكم، ويقولون له: فأصدقوهم الضرب، ينصرفوا عنكم، فإنه لم يلق قوماً يُحسنون القتال! وقريش والعرب قد سروا بمسيره إليكم لما يعلمون من موادكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجودة حصونكم، وقد تتابعت قريش وغيرهم ممن يهوى محمد، تقول قريش: إن خيبر تظهر، ويقول آخرون: يظهر محمد، فإن ظفر محمد فهو ذل الدهر.. قال الأعرابي (لعباد بن بشر): وأنا أسمع كل هذا، فقال لي كنانة بن أبي الحقيق: اذهب معترضاً للطريق فإنهم (أي المسلمين) لا يستنكرون مكانك، واحزرهم لنا^(٥) واذنْ منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألقه إليهم كثرة عددنا ومادتنا، فإنهم لن يدعوا سؤالك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم.

(١) كنانة بن أبي الحقيق أحد ملوك اليهود في خيبر، وكان من الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وأعراب نجد ضد المسلمين.

(٢) هوذة بن قيس من قبيلة وائل، عربي دان باليهودية وكان ضمن الوفد الذي خرج من خيبر لتحزيب الأحزاب ضد المسلمين في السنة الرابعة من الهجرة.

(٣) الكراع: كناية عن الخيل.

(٤) الماء الواين: الدائم الذي لم ينقطع.

(٥) حزره: تفحصه وعرف حقيقته كماً أو كيفاً.

وبعد أن أكمل قائد الدورية (عباد) التحقيق مع الجاسوس أخذه إلى النبي القائد ﷺ فأطلععه على نتيجة التحقيق واعترافات هذا الجاسوس، فقال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه.

فقال عباد بن بشر: لا .. جعلت له الأمان.

فقال رسول الله ﷺ لعباد بن بشر: امسكه معك يا عباد.. فأوثقه عباد رباطاً، فلما دخل رسول الله ﷺ خيبر أمر بإحضار الجاسوس فدعاه إلى الإسلام فأسلم فنجا من الموت^(١).

نموذج من الانضباط العسكري الشديد : وأثناء تحرك الجيش النبوي نحو خيبر، حدث حادث دلّ على تمسك النبي القائد ﷺ بالتزام الانضباط العسكري بين جنوده ومعاينة المخالف لهذا الانضباط أياً كان ، فقد حدث أحد جنود الجيش النبوي قائلاً: فينا رسول الله ﷺ في الطريق إلى خيبر في ليلة مقمرة، إذ أبصر برجل يسير أمامه، عليه شيء يبرق في القمر كأنه في الشمس وعليه بيضة، فأنكر رسول الله ﷺ ذلك قائلاً: من هذا؟ فقيل: أبو عبس بن جبر، فقال ﷺ: أدركوه، قال أبو جبر: فأدركوني فحبسوني (أي باعتبار أن انفراده عن بقية الجيش مخالفة للانضباط العسكري في ظروف حربية) قال أبو جبر: وأخذني ما تقدم وما تأخر، وظننت أنه قد نزل في أمر من السماء، فجعلت أتذكر ما فعلت، حتى لحقني رسول الله ﷺ فقال (منكراً): مالك تقدم الناس لا تسير معهم؟ فقلت: يا رسول الله! ناقتي نجبية (والنجبية خفيفة الحركة) فلم يعاقبه الرسول ﷺ بأكثر من الحبس الذي ناله على يد رجال الدورية من مقدمة الجيش.

السنبي وخط الرجعة: بالرغم من مرور عشرين عاماً على بزوغ شمس الإسلام، وبالرغم من مرور سبع سنوات على الوجود الإسلامي في منطقة يثرب، وبالرغم من ازدياد نفوذ الإسلام وتكاثر أنصاره في هذه المنطقة فإن جميع القبائل العربية الواقعة شرقي وشمالي المدينة ظلت على عداؤها للإسلام وخاصة القبائل النجدية القوية الحليفة لليهود والمجاورة لخيبر.

وعلى هذا فإن النبي ﷺ عندما فكّر في الزحف على خيبر كان يعلم أنه سيمر بجيشه في أراض تقع تحت سلطان أعداء الإسلام .. وفي هذا دونما شك خطر لا يمكن أن يغيب عن بال النبي الأعظم والقائد الملهم.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٤٠ تحقيق الدكتور مارسدن ونشر جامعة أوكسفورد بإنجلترا.

ولا شك أنه ﷺ - كقائد عسكري مسئول - أدخل في حسابه وجود هذا الخطر، فاتخذ من الاحتياطات ما يدفع عنه وعن جيشه هذا الخطر المائل في انتشار القبائل الوثنية عن يمينه وعن شماله ومن خلفه وأمامه.

وأهم ما يمكن أن يخشاه قائد محارب يكون في الوضع الذي كان عليه النبي ﷺ وهو في طريقه إلى خيبر، هو أن يقطع عليه الأعداء خط الرجعة (عندما يكون يحارب في خيبر).

لأن القبائل التي ستكون أو بإمكانها أن تكون خلفه عندما يتوغل بجيشه نحو خيبر - هي (كما قلنا) قبائل وثنية معادية متورة.

النبي يطلب من غطفان عدم مناصرة اليهود: وليس لدينا أو لم يصل إلى علمنا مدى الإجراءات التي اتخذها النبي القائد ﷺ لتأمين خط الرجعة، ولتجنب جيشه خطر التفاف الأعراب الوثنيين من خلفه عندما يكون قريباً من خيبر وبعيداً عن المدينة.

وكل ما حصلنا عليه من معلومات هو أن هناك خطة اتفق عليها اليهود والمرزقة من غطفان تقضي بأن تقوم قبائل غطفان بمساندة اليهود ضد المسلمين عسكرياً حسب الخطة الآتية:

١- أن تبعث قبائل غطفان بمجموعة من رجالها المسلحين إلى اليهود ليكونوا معهم في حصونهم، وقد فعلوا ذلك، فأرسلوا عدة كتائب بقيادة عيينة بن حصن وطليحة بن خويلد وحذيفة بن بدر الفزاري^(١).

٢- أن يقوم أربعة آلاف مقاتل من غطفان بحركة التفاف على المسلمين لضربهم من الخلف عندما يكونون قريبين من خيبر.

وقد تعهد زعماء خيبر لغطفان بأن يمنحهم نصف ثمار خيبر مقابل هذه المساندة العسكرية ضد المسلمين.

ولقد نفذ الغطفانيون البند الأول من الاتفاقية قبل أن يتحرك المسلمون بجيشهم من المدينة إذ وصلت إلى خيبر عدة كتائب من جيوش غطفان وبني أسد بقيادة طليحة بن خويلد والأسدي وعيينة بن حصن وحذيفة بن بدر الفزاريين فربطت هذه القوات مع اليهود داخل قلاعهم وحصونهم^(٢).

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٥.

(٢) مختصر مغازي الواقدي ص ٣١٢.

وأما البند الثاني من الاتفاقية فقد شرع الوثنيون في تنفيذه، إذ لم يكذب النبي ﷺ يصل بقواته إلى ضواحي خيبر حتى تحركت من خلفهم أربعة آلاف مقاتل من غطفان بقصد الالتفاف على المسلمين لقطع خط الرجعة عليهم وجعلهم بين نارين^(١).

ولا شك أن هذا قد أوقع المسلمين في موقف حرج، وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن قوة المسلمين الغازية لا تزيد على ألف وأربعمائة مقاتل يقابلها للأعداء أحد عشر ألف مقاتل هي في انتظارهم داخل الحصون والقلاع في خيبر وأربعة آلاف مقاتل بدأت في التحرك لتقطع خط رجعتهم من الخلف.. بل وتهاجمهم قبل أن يبدأوا (هم) الهجوم على اليهود.

فقد روى ابن إسحاق أن غطفان (وفق الخطة المتفق عليها بينها وبين اليهود) لما علموا أن النبي ﷺ قد تحرك نحو خيبر خرجوا ليظاهروا اليهود عليه وتحركت قواتهم لضرب الجيش النبوي من الخلف واستمرت في تحركها يوماً وليلة^(٢).

وحين يتصور الخيبر بشؤون الحرب وقوع ألف وأربعمائة محارب بين خمسة عشر ألف مقاتل يحيطون بهم من كل جانب، يدرك مدى الخطورة التي كانت عليها تلك القوة المسلمة القليلة العدد التي هي في حالة أشبه ما تكون بالتطويق.

النبي يفوض غطفان لتخلي بينه وبين اليهود: ونظراً للموقف الخطير الذي صارت إليه القوات الإسلامية الغازية قبل بدئها الهجوم على خيبر، فقد قام النبي ﷺ - كقائد عسكري مسئول - بالاتصال بقيادة قبائل غطفان ونصحهم بأن يلتزموا جانب الحياد في الصراع الذي سيدور بينه وبين خيبر، وأبلغهم (مؤكداً لهم) بأن الله سيفتح عليه خيبر لا محالة، لأنه وعده بذلك، ووعد له بخلفه.

فقد بعث إلى غطفان وبني أسد رسالة قال فيها: «أن خلوا بيني وبين القوم (يعني اليهود)، فإن الله قد وعدني أن يفتحها لي» (أي خيبر).

ويقول المؤرخون أن النبي ﷺ ليجنب جيشه خطر مؤازرة قبائل غطفان وأسد لليهود ضده أبلغ رؤساء هذه القبائل بأنه على استعداد بأن تكون خيبر لهم إن هم أسلموا وخلوا بينه وبين هؤلاء اليهود، وبعض المؤرخين ذكر أنه لم يشترط إسلامهم، بل طلب منهم التزام جانب الحياد فلا يعينوا اليهود عليهم، على أن يعطيهم مقابل ذلك نصف ثمار خيبر بعد فتحها^(٣).

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٥.

(٢) مختصر مغازي الواقي ص ٣١٢.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٥.

ولا يستبعد أن يكون النبي القائد ﷺ - في سبيل تجنب جيشه شر مقاتلة هذه القبائل الوثنية الضاربة - قد تقدم إلى زعمائها بكلا العرضين الآخر بعد الأول. إلا أن رؤساء هذه القبائل (على أي حال) قد ركبهم الغرور حين رأوا تلك القوات الضاربة منهم ومن حلفائهم اليهود.. خمسة عشر ألف مقاتل على وشك الإحاطة بألف وأربعمائة من المسلمين بعيدين عن حاضرتهم المدينة.. فظنوا أنهم الغالبون لا محالة وأنها ستكون حرب أحزاب ظافرة مظفرة ضد المسلمين لا كحرب الأحزاب الأولى التي اشتركت فيها قريش وقريظة حول أسوار المدينة في السنة الرابعة من الهجرة والتي كانت نتیجتها الفشل.

لذلك رفض رؤساء هذه القبائل كل العروض النبوية وأبوا أن يلتزموا جانب الحياد، فأبلغوا النبي ﷺ أنهم لن يتخلوا عن حلفائهم اليهود وأنهم سيقاتلونهم إلى جانبهم^(١). وذكر الإمام الواقدي في كتابه المغازي (ج ٢ ص ٦٥٠ تحقيق الدكتور مارسدن جونز، نشر جامعة أوكسفورد): أن النبي ﷺ لما بلغه أن سيد غطفان مالاً اليهود عليه ومدّهم بكتائب مسلحة ضد المسلمين، بعث ﷺ بسيد الخزرج سعد بن عبادة إلى قائد غطفان عيينة بن حصن (وكان في حصن مرحب وقتئذ ينسق مع اليهود على ما يظهر). ولما علم عيينة أن سعداً مبعوث إليه من النبي ﷺ أراد أن يدخله الحصن، فاعترض على ذلك القائد اليهودي مرحب قائلاً: لا تدخله فيرى خلل حصننا ويعرف نواحيه التي يؤتي منها، ولكن تخرج إليه، فقال عيينة: لقد أحببت أن يدخل فيرى حصانته ويرى عدداً كثيراً، فأبى مرحب أن يدخله.

فخرج عيينة واجتمع بسعد عند باب الحصن، فأبلغ سعد عيينة رسالة رسول الله ﷺ قائلاً: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليك يقول: إن الله قد وعدني خبير فارجعوا وكفوا، فإن ظهرنا عليها فلكم تمر خبير سنة، فقال عيينة: إنا والله ما كنا نسلم حلفاءنا لشيء، وإن لنعلم مالك ولمن معك بما ها هنا طاقة، هؤلاء (يعني اليهود) قوم أهل حصون منبعة، ورجال عددهم كثير، وسلاح، إن أقتم هلكت ومن معك، وإن أردت القتال عجلوا عليك بالرجال والسلاح، ولا والله، ما هؤلاء كقريش، قوم ساروا إليك، إن أصابوا منك غرة، فذاك الذي أرادوا وإلا انصرفوا، وهؤلاء يماكرونك الحرب ويطاولونك حتى تملهم.

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨١ ومختصر الواقدي ص ٣١٢ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٥.

هذه هي الرسالة التي طلب عينته بن حصن من سعد بن عبادة أن يبلغها النبي ﷺ رداً على رسالته الآتفة الذكر.

غير أن سعداً قبل أن يعود إلى النبي ﷺ قال لعينته بن حصن: اشهد ليحضرناك في حصنك^(١) هذا حتى تطلب الذي كنا عرضنا عليك، فلا نعطيك إلا السيف، وقد رأيت يا عينته من قد حللنا بساحته من يهود يثرب، مزقوا كل ممزق.

وبعد ذلك رجع سعد إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما قال عينته.. وقال سعد: يا رسول الله، إن الله منجز لك ما وعدك ومظهر دينه، فلا تعط هذا الأعرابي (يعني عينته) ثمرة واحدة، يا رسول الله، لئن أخذ السيف ليسلمنهم وليهربن إلى بلاده كما فعل ذلك قبل يوم الخندق.

فلما يئس رسول الله ﷺ من أن تقبل غطفان العرض الذي عرضه عليها من إعطائها تمر خيبر سنة واحدة، أمر قواته بالهجوم على الحصن الذي ترابط فيه قوات غطفان مع اليهود وهو حصن ناعم (حصن) مرحب وكان أول حصن يفتحه المسلمون، بعد أن هرب الغطفانيون منه قبل الهجوم عليه كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

وتنفيذاً لقرار محاربة غطفان الرسول ﷺ في صف اليهود أصدرهم أمرهم إلى الكتائب من بني أسد وغطفان (والتي كانت قد رابطت مع اليهود في حصونهم قبل أن يتحرك النبي ﷺ من المدينة) بأن تظل مكانها إلى جانب اليهود.. أما القوات الرئيسية من هذه القبائل الوثنية وهي أربعة آلاف مقاتل فقد أخذت في التحرك من الورا لتضرب المسلمين ساعة الصفر من الخلف.

تأزم الموقف لدى المسلمين: ونتيجة إصرار غطفان وأسد على محاربة المسلمين إلى جانب اليهود أصبح الموقف بالنسبة للمسلمين موقفاً دقيقاً وحرماً.. إلا أن ذلك لم يفت في عضدهم ولم يشنهم عن عزمهم، فقد استمروا في تحركهم في اتجاه خيبر واثقين من نصر الله تعالى وقد وعدهم ذلك، والله لن يخلف وعده.. ولذلك فقد سار المسلمون في طريقهم نحو المعركة الفاصلة وكلهم ثقة واطمئنان، فلم يكن لتلك القوات الضاربة من

(١) أكثر الروايات تشير إلى أن قوات غطفان الرئيسية التي جاءت مدداً لليهود والبالغ عددها أربعة آلاف مقاتل لم يدخلها عينته بن حصن في حصون اليهود، لأنها عادت إلى بلاده بعد أن قطعت مرحلة فقط كما صرح بذلك ابن إسحاق، وعليه يمكن القول أن وجود عينته بن حصن في قلعة مرحب إنما كان للتفاوض والتنسيق وتفقد القوات الرمزية الغطفانية التي ترابطت مع اليهود في حصونهم بقيادة حذيفة بن بدر.

الأعداء (اليهود وغطفان وأسد والتي قررت منازلهم مجتمعة) لم يكن لها أي أثر ضار على معنوياتهم الحربية، لأنهم بعد وعد الله الذي وعدهم لم يعودوا يزنوا الأمور وقيسوها بموازين ومقاييس مادية صرفة من حيث العدد والعدة ولو فعلوا ذلك لأدخل في روعهم أنهم الهالكون.. لأن قدرة ألف وأربعمائة على مواجهة خمسة عشر ألفاً هي (في عرف المقاييس والتقدير العسكرية المجردة) كقدرة العصا على مواجهة السيف.

ولكن الثقة بالله والاطمئنان إلى وعده بالنصر وزخم العقيدة الصافية الذي يدفعهم إلى الأمام.. كل ذلك كان قاعدتهم التي منها ينطلقون وعلى ضوءها الأمور يزنون.

وباختصار، فإن النبي ﷺ وأصحابه عندما استمروا في زحفهم على خير ليواجهوا خمسة عشر ألف مقاتل وهم (فقط) ألف وأربعمائة.. عندما فعلوا ذلك، لم يقيسوا الأمور حسب موازين الأرض وإنما قاسوها حسب موازين السماء واعتماداً على صلتهم برب الأرض والسماء الذي لم يكن تحركهم من المدينة إلا في سبيل مرضاته وإعلاء كلمته.

ولهذا فقد كانت نفس كل واحد منهم مشحونة بطاقات روحية هائلة تجعله في قرارة نفسه موقناً بأنه قادر على أن يواجه بمفرده مائة من أعدائه ويتغلب عليهم.

وهذا هو سر صمودهم وثباتهم وعدم اكتراثهم بتلك القوات الضاربة من الأعراب واليهود التي أجمعت على حربهم وهم بعيدون عن أرضهم.

الانتصار بالرعب: وعلى كل حال، وبالرغم من أن كل شيء (حسب المقاييس المادية المجردة) هو ضد المسلمين وإلى جانب اليهود وحلفائهم في هذه الحرب التي قرر النبي ﷺ خوضها لإنهاء الوجود اليهودي الزنيم، فقد مضى المسلمون لسبيلهم وساروا نحو خير على تعبثهم وحسب الخطة التي رسموها لخوض المعركة، غير مباليين بتلك القوات الضاربة من اليهود والأعراب.

بشائر النصر قبل الاشتباك: وقبل أن يحدث أي اشتباك مسلح بين المسلمين وأعدائهم بدت بشائر النصر للمسلمين تلمع في الأفق، وبدأت الصفوة من أصحاب محمد ﷺ ترى وعد الله لها بالنصر يظهر جلياً في صور شتى وهو يكاد يتجسد، فقويت نفوسهم (وهي القوية أصلاً) وازدادوا عزمًا على عزم، وصار لديهم اليقين الذي لا يخالطه أي شك أن قوات أعدائهم المحيطة بهم من كل جانب والتي لا تقل عن خمسة عشر ألف مقاتل لا تلبث أن يهزمها الله وينزل الرعب في قلوبها فتنداح أمامهم ساعة الروع كما ينداح الورق اليابس أمام العاصفة في فصل الخريف.

غطفان ترجع هاربة إلى بلادها قبل نشوب القتال: لقد جاء في الحديث النبوي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «نُصِرْتُ بالرعب».

وهذا هو الذي حدث بالفعل للقوات الرئيسية من قبائل غطفان وهي القوات التي بلغت أربعة آلاف مقاتل، وخرجت من ديارهم تسير خلف المسلمين وهم سائرون إلى خيبر وتتعبهم قاطعة عليهم خط الرجعة ومقررة الهجوم عليهم من الخلف لإرباكهم وجعلهم بينها وبين حلفائها من يهود خيبر الهدف الرئيسي لتحركات الجيش النبوي. فقد ذكر المؤرخون أن هذه القوات النجدية الوثنية الضاربة بينما كانت تتحرك في إثر النبي ﷺ وأصحابه لتضربهم من الخلف لحساب يهود خيبر حلفائها إذا بقيادة هذه القوات يسمعون صريخ من خلفهم يصيح فيهم منذراً إياهم بأن كئاب من المسلمين قد خلفوهم وأغاروا على ديارهم ومضاربهم وأنهم على وشك استياق أموالهم وسبي نسائهم وذراريهم.

قال ابن إسحاق: بلغني أن غطفان لما سمعت بمنزول رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا، ليظاهروا^(١) يهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة (أي مرحلة) سمعوا خلفهم في أموالهم، ظنوا أن القوم (أي المسلمين) قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهلهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر^(٢). كما سمع الذين مع اليهود في حصونهم صوت نفس الصائح فانسحبوا وتركوا اليهود وحدهم. وأعطى الإمام الواقدي تفصيلات أوسع عن هذه القصة فقال: (بعد أن ذكر كيف رفض عيينة بن حصن قائد غطفان العرض الذي بموجبه تعهد النبي ﷺ إعطاءهم تمر خيبر لسنة إن هم خلوا بينه وبين اليهود): إن غطفان سمعوا صائحاً يصيح لا يدرون من السماء أو من الأرض: يا معشر غطفان أهلكم أهلكم، الغوث، الغوث بحيفاء - صيح ثلاث مرات - لا تربة ولا مال، قال: فخرجت غطفان على الصعب والذلول، وكان أمراً صنعه الله عز وجل لنبيه. فلما أصبحوا أخبر كنانة بن أبي الحقيق (سيد خيبر) وهو في الكتيبة^(٣) بانصرافهم فسقط في يديه، وذل، وأيقن بالهلكة وقال: كنا من هؤلاء الأعراب في باطل، إنا سرنا فيهم فوعدونا النصر وغرونا، ولعمري لولا ما وعدونا من

(١) ظاهر عليه، أعان عليه.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٠.

(٣) الكتيبة: منطقة في خيبر بها حصون لهم.

نصرهم ما نابذنا محمداً بالحرب، ولم نحفظ كلام سلام بن أبي الحقيق^(١) إذ قال: لا تستنصروا بهؤلاء الأعراب (يعني غطفان) أبداً، فإننا قد بلوناهم، وجلباهم لنصر بني قريظة ثم غروهم. فلم نر عندهم وفاء لنا، وقد سار فيهم حبي بن أخطب وجعلوا يطلبون الصلح من محمد، ثم زحف محمد إلى بني قريظة وانكشفت غطفان راجعة إلى أهلها^(٢).

ثم يستمر الواقدي في سرد قصة انسحاب غطفان مرعوبين فيقول: فلما انتهى الغطفانيون إلى أهلهم بجيفاء وجدوا أهلهم على حالهم فقالوا: هل راعكم شيء؟ قالوا: لا والله، فقالوا (أي أهلهم): لقد ظننا أنكم قد غنمتم، فما نرى معكم غنيمة ولا خيراً!! فقال عيينة بن حصن لأصحابه: هذا والله من مكائد محمد وأصحابه، خدعنا والله! فقال له الحارث بن عوف المري^(٣): بأي شيء؟ قال عيينة: إنا في حصن النظاة بعد هدأة (الهدأة أول الليل) إذ سمعنا صائحاً يصيح، لا ندري من السماء أو من الأرض: أهليكم، أهليكم بجيفاء - صيح ثلاثة - فلا تربة ولا مال، فقال الحارث بن عوف: يا عيينة والله لقد غيرت (أي بقيت) إن انتفعت. والله إن الذي سمعت لمن السماء، والله ليظهرنّ محمد على من ناوأه حتى لو ناوأته الجبال لأدرك منها ما أراد. فأقام عيينة أياماً في أهله ثم دعا أصحابه للخروج إلى نصر اليهود، فجاءه الحارث بن عوف فقال: يا عيينة أطعني وأقم في منزلك ودع نصر اليهود، مع أنني لا أراك ترجع إلى خيبر إلا وقد فتحها محمد، ولا آمن عليك.

فأبى عيينة أن يقبل قوله وقال: (لا أسلم حلفائي لشيء)^(٤). ثم تحرك عيينة بمن أطاعه من غطفان محاولاً إمداد يهود خيبر ومساندتهم ضد المسلمين، إلا أنه لم يصل خيبر حتى وجد النبي ﷺ قد استولى عليها كلها كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

(١) سلام بن أبي الحقيق هو أبو رافع اليهودي ملك خيبر الذي قتله الفدائيون المسلمون الخمسة قبل غزوة خيبر كما تقدم.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٥١.

(٣) كان الحارث هذا قائد أحد الأجنحة الأربعة في حرب الأحزاب ضد المسلمين عام ٤ من الهجرة.

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٥٢.

الفصل الثالث

- دعوة اليهود إلى الإسلام .
 - اليهود يرفضون الدعوة.
 - الهجوم على خيبر.
 - ضراوة القتال وعنفه.
 - شراسة اليهود في المقاومة.
 - مصرع قادة اليهود مبارزة أمام حصونهم.
 - تحقيق المقام حول قاتل الفارس اليهودي، مرحب.
 - النبي يُجرح بنبال اليهود أثناء القتال.
 - سقوط خمس قلاع في أيدي المسلمين.
 - ائثار مقاومة اليهود في القسم الأول من خيبر.
 - سيطرة المسلمين على الشطر الأول والأهم من خيبر.
 - انسحاب بقايا المقاتلين اليهود إلى الشطر الثاني من خيبر.
 - تحقيق المقام في تزوج النبي ﷺ من ابنة سيد اليهود (صفية) بعد أسرها.
- وصول المسلمين إلى خيبر: استمر النبي ﷺ في زحفه نحو خيبر، وبينما هو يسير بالجيش طلب من أحد أصحابه (وهو عامر بن الأكوع) أن يحدو لهم: والحداء هو إنشاد يرفع به الحادي صوته مع الترنيم فتنشط لذلك الإبل في سيرها.
- فنزّل عامر بن الأكوع عند رغبة الرسول ﷺ وأخذ يحدو للجيش بهذه الأبيات:
- ولا تصدّقنا ولا صلّينا والله لولا الله ما اهتدينا
وتّبت الأقدام إن لاقينا فأنزلا سكينه علينا
- وذكر المؤرخون أن النبي ﷺ أعجب بجداء ابن الأكوع فقال: يرحمك الله.
وكان النبي ﷺ إذا قال لإنسان يرحمك الله، قتل شهيداً، ولهذا قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ: وجبت يا رسول الله.. (أي الشهادة) هلا أمتعتنا به؟.

وفعالاً رزق الله عامر بن الأكوع الشهادة في معركة خيبر، حيث بارز أحد اليهود، وأثناء البراز أراد أن يضرب ساق اليهودي بسيفه (وكان قصيراً) فعاد عليه السيف فأصاب عين ركبته فمات متأثراً بالجرح الذي أصابه من سيفه، فقال البعض: (إن عامر بن الأكوع قد حبط عمله على اعتبار أنه قتل نفسه (بزعمهم) فاغتم أخوه سلمة بن الأكوع^(١) لهذا القول، ولما رآه رسول الله كذلك أخذ بيديه وقال له: مالك؟

قال: فذاك أبي وأمي، زعموا أن عامراً حبط عمله، فقال النبي ﷺ: كذب من قال، إن له أجرين (وجمع بين إصبعيه): إنه لجاهد مجاهد، قلّ عربي مشى به مثله).

أربعوا على أنفسكم: وفي غزوة خيبر - والجيش في طريقه إليها - رفع بعض الجيش أصواتهم بالدعاء والتكبير، فأحدثوا ضجة، فقال النبي ﷺ: (أيها الناس! أربعوا على أنفسكم (أي أرفقوا بها) فإنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً).

وفي هذا الحديث الشيء العظيم من التربية والتوجيه وهو من قواعد التربية الإسلامية إذ أنه يدل على حب النبي ﷺ للهدوء والنظام وكرهه للضوضاء وارتفاع الأصوات (حتى ولو كان بذكر الله) في ظروف الحرب التي تتطلب الهدوء والسكينة.

دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: وعندما وصل النبي ﷺ وأشرف على منطقة خيبر، أمر الجيش بالوقوف ثم دعا بهذا الدعاء: «اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقلن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها»، ثم قال لأصحابه: «أقدموا باسم الله»^(٢).

مفاجأة اليهود: وقد عمى الله على اليهود فلم يعلموا إلا والمسلمون يصبّحون خيبر، وذلك بالرغم من أن الطابور الخامس (من المنافقين ويهود يثرب) قد أخبروا اليهود بتحرك المسلمين.

وقد كان وصول النبي ﷺ بجيشه إلى خيبر (ليلاً) ولم تكن سياسته الحربية إنشابه القتال مع العدو في الليل إلا إذا اضطر كما حدث في معركة الخندق.

ويظهر أن اتباع هذه السياسة راجع إلى أن قيام المسلمين بالهجوم وخوض المعارك مع الأعداء على أرض مجهولونها ولا يعرفون شيئاً عن طبيعتها فيه مخاطرة كبرى بمصيرهم، هذا (والله أعلم) هو الذي حمل النبي ﷺ على أن يبيت بجيشه بالقرب من خيبر، ولا يبدأ

(١) رواه مسلم، وذكره في البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٢.

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٢٧.

بالمهجوم إلا في الصباح . وكان اليهود (حتى اليوم الذي وصل فيه النبي ﷺ مشارف خيبر) يَصْحَوْنَ من نومهم قبل الفجر فيرتدون أسلحتهم لأنهم كانوا يتوقعون أن يقوم المسلمون بمهاجمتهم في أية لحظة وكانوا فوق ذلك يستعرضون المقاتلين اليهود كل يوم استعداداً للمواجهة وتقوية لقلوبهم إلا أن الله تعالى أخذهم بالنوم ليلة وصول النبي ﷺ بجيشه، فلم يلبسوا السلاح كعادتهم، قبل الفجر، بل ناموا ولم يتحركوا، ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس، فأصبحوا وأفتدتهم ترجف، ولم يشعروا إلا وجيش الإسلام أمام حصونهم.

فقد فتحوا الحصون صباح ذلك اليوم وغدوا إلى أعمالهم معهم المساحي والكرازين والمكاتل متجهين نحو مزارعهم، فلما رأوا المسلمين صاحوا (في جزع): محمد والخميس، ثم ولوا هارين إلى حصونهم. فلما رآهم النبي ﷺ قال - مبشراً بالفتح - : «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

لا تمنوا لقاء العدو: ومن الآداب والمواعظ الحربية التي وجهها النبي القائد ﷺ إلى جيشه، هو أنه عند الهجوم قال ﷺ لأصحابه (وكانه لحظ عليهم التلهف للقتال): (لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية فإنكم لا تدرون ما تبتلون به، فإذا لقيتموه، فقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم، ونواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تقتلهم أنت).

ثم علمهم بعض أساليب الحرب ساعة الالتحام، فقال ﷺ: «ثم الزموا الأرض جلوساً، فإذا غشوكم، فأنفضوا وكبروا».

كيف بدأ القتال: تنقسم مدينة خيبر (يوم فتحها) إلى شطرين في كل منهما عدة حصون وقلاع حربية، إلا أن أهم هذه القلاع والحصون ثمانية يقع منها خمسة في الشطر الأول من خيبر، وحيث دارت أعنف المعارك بين المسلمين واليهود.. وهذه الحصون الخمسة هي:

١- حصن ناعم، وهو أول ما هاجمه المسلمون وأمامه قتل (مرحب) الذي كان يتولى وإخوته الدفاع عنه.

٢- حصن الصعب بن معاذ، وهو أعظم حصن فتحه المسلمون فوجدوا فيه المواد الغذائية والعتاد الحربي ما تقووا به إلى حد بعيد.

٣- حصن (قلعة الزبير).

٤- حصن (أبي).

٥- حصن النزار (بعضهم يسميه حصن البزاة).

والحصون الثلاثة الأولى تقع في منطقة يقال لها: (النطاة) أما الحصان الآخران فيقعان في منطقة تسمى (بالشتى)، فالمؤرخون يقسمون الشطر الأول من المدينة إلى قسمين (الشق والنطاة).

وحصون الشق والنطاة كانت مجموعها تمثل خط الدفاع الأول عن المدينة كلها، وقد افتتح المسلمون الحصون هذه كلها عنوة بعد قتال مرير ضار حيث دارت حولها أعنف المعارك.

أما الشطر الثاني من خيبر فتوجد به حصون وقلاع حربية إلا أن أهمها ثلاثة حصون فقط، وهي:

- ١- حصن القموص الخاص (ببنى أبي الحقيق من يهود بني النضير).
- ٢- حصن الوطيح.
- ٣- حصن السلام.

وهذه الحصون الثلاثة مع مناعتها وقوتها وكثرة المحارِبين فيها قد سلمت دون أن يحدث حولها اشتباك كما حدث حول حصون النطاة والشق، وإنما سلم أهلها بعد أن حصرهم الحصار الشديد الذي ضربه المسلمون عليهم، فطلبوا المفاوضة وسلموا على أساس الصلح والجلء كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

عدم التناسق في وصف المؤرخين للمعركة: بالرغم من أن معركة خيبر هي من أكبر وأطول المعارك الحاسمة التي خاضها النبي ﷺ فإن رصيدها من التفاصيل في وصف العمليات الحربية في أمهات التاريخ غير متكامل كما يجب.

فلا شك أن كل حصن من الحصون التي فتحها المسلمون بقوة السلاح (وهي ثمانية حصون) كان لفتحه قصة يتشوق القارئ إلى معرفتها بالتفصيل.

ولكن المؤسف هو أن أغلبية المؤرخين رحمهم الله يكتفون أحياناً بالإشارة العابرة فقط إلى فتح الحصن دونما ذكر للتفاصيل، كما أن الوصف في سير المعركة في كل أمهات التاريخ وصف مبعثر، وأحياناً يستفيضون حيث ينبغي الإيجاز، ويوجزون حيث ينبغي التوسع والاستفاضة، ويقدمون ما ينبغي تأخيره ويؤخرون ما ينبغي تقديمه.

وهذا كله يجعل مهمة المؤرخ الحديث (الذي يرغب في أن يقدم للقراء وصفاً سهلاً متناسقاً) مهمة صعبة، وهذا الذي حدث لنا بالفعل، فإننا لم نلاق فيما ألفنا عن المعارك الفاصلة من الصعوبة في ربط الحوادث بعضها ببعض وتنسيقها وترتيبها مثلما لاقينا في تأليفنا لهذا الكتاب، وقد بذلنا الجهد قدر المستطاع ونرجو أن نكون قد أرضينا القارئ الكريم.

دعوة اليهود إلى الإسلام.. وعدم ذكر الجزية: كان أول شيء أقدم عليه النبي القائد ﷺ أن دعا اليهود إلى الإسلام ليدخلوا فيه فينصرف عنهم بعد أن يكونوا جزءاً من الأسرة الإسلامية.

وتلك طريقة الإسلام المتبعة عند أول لقاء يحدث في ميدان الحرب بين المسلمين وأهل الكتاب.

ويحدثنا البخاري أن علي بن أبي طالب كان أول قائد عرض على هؤلاء اليهود الإسلام قبل القتال، وذلك بأمر من رسول الله ﷺ.

فقد استدعى النبي ﷺ علي بن أبي طالب (ليلة الدخول) فأعطاه الراية فقال علي: (يا رسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: أنفذ على رسلك حتى تزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله! لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم)^(١).

وقد أبى اليهود الدخول في الإسلام، فهاجم المسلمون حصونهم حتى تم النصر للمسلمين عليهم.

لماذا لم يطالبوا بالجزية؟: وهنا سؤال قد يعرض للقارئ وهو أن طريقة المسلمين مع أهل الكتاب (واليهود منهم) هي أنهم عندما يقومون بغزوهم لا يباشرون القتال ضدهم حتى يخيروهم بين واحد من ثلاث: إما الدخول في الإسلام فيكونون بذلك جزءاً من الأسرة الإسلامية، وإما أن يدفعوا الجزية مقابل حمايتهم، وإلا فالقتال.

لكن النبي ﷺ عندما قام بغزو اليهود في خيبر لم يعرض عليهم دفع الجزية بل عرض عليهم الإسلام، ولما رفضوا الدخول فيه قاتلهم.. فلماذا لم يعرض عليهم أن يدفعوا الجزية مقابل حمايتهم وإقرارهم على أرضهم وأموالهم والتكفل بصيانة أرواحهم وأعراضهم من قبل قوات الأمن الإسلامية كما يفعل دائماً مع غيرهم من أهل الكتاب؟ وكما فعل مع يهود تيماء ونصارى نجران ومجوس هجر؟

يجيب بعض المؤرخين على هذا السؤال بقولهم: إن القرآن لم يكن قد نزل بتشريع قبول الجزية من أهل الكتاب وقت قيام النبي ﷺ بمحاربة اليهود في خيبر.

(١) صحيح البخاري ج ٥ ص ٢٢٠ طبعة إدارة الطباعة المنيرية.

وهذا الجواب مع كونه قد يكون صحيحاً من حيث كون تشريع الجزية لم ينزل إلا بعد فتح خيبر، إلا أننا نعتقد (وهذا مجرد اجتهاد) أنه حتى لو كان التشريع بقبول الجزية نزل قبل غزو خيبر، فإن النبي ﷺ لا يمكن أن يعتبر يهود خيبر من الذين يمكن الاطمئنان إلى التعاقد معهم على دفع الجزية لبقى لهم بعد مطلق الحرية مع التزام المسلمين بحمايتهم، بل لا بد من هدم سلطنتهم ومحو كياناتهم عن طريق الحرب أو يستسلموا دونما قيد أو شرط كخونة ومتآمرين سيظلون مصدر تهديد لأمن وسلامة المسلمين إذا لم تحتل مواقعهم ويقضي عليهم فيها كقواعد للعدوان على الإسلام والمسلمين.

وقد أثبتت التجارب (عبر سبع سنوات ذهب فيها النبي ﷺ إلى أقصى حدود التسامح مع هؤلاء اليهود).. أثبتت بأن هؤلاء اليهود أشبه بغدة السرطان في الجسم لا يجدي معها علاج سوى استئصالها كلياً.

فقد حصل اليهود (في ظل التسامح الإسلامي) على ما هو أكرم لهم من قبول النبي ﷺ الجزية منهم، وهو قبول النبي ﷺ - عن طيب خاطر وصفاء نية - أن يكون هؤلاء اليهود حلفاء للمسلمين ومواطنين لهم، آمنين على أرواحهم وأعراضهم أحراراً في دينهم، دون أن يأخذ المسلمون منهم درهماً واحداً مقابل ذلك. مع كون السلطان المطلق لهم في يثرب، فقد كانوا (بموجب معاهدة يثرب) أمة مع المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، الأمر الذي يمكن تسميته بأنهم كانوا (بموجب هذه المعاهدة) أمة ذات كيان مستقل تتساوى مع أمة الإسلام في جميع الحقوق دونما تمييز^(١).

ولكن بماذا قابل اليهود هذا التسامح وحسن المعاملة وكرم المواطنة الذي جعلهم (بالرغم من كونهم أقلية يهودية أجنبية بين أكثرية عربية إسلامية) لا يشعرون بأي تغيير في حياتهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية التي كانوا عليها قبل سيطرة الإسلام على يثرب؟

قابل اليهود كل هذا التسامح والكرم وشرف المقصد وحسن المعاملة بالغدر والخيانة والتآمر والعدوان ونقض العهود والمواثيق في أدق الساعات وأحرج الظروف.. خُلِقَ إسرائيلي قبيح لازمهم ولا يزال يلزمهم منذ أن لعنهم الله على لسان داود وعيسى بن مريم.

(١) انظر كتابنا (غزوة الأحزاب) وكتابنا (غزوة بني قريظة).. الفصل الثاني الخاص بتاريخ اليهود.

فقد عانى النبي ﷺ وأصحابه (في يثرب) من هذا الخلق اليهودي أشد المتاعب وواجه أخطر المشاكل وتعرض لشتى المؤامرات، ومع ذلك ظل التسامح مع هؤلاء اليهود والصفح عنهم شعار النبي ﷺ حيث كان يقابل غدرهم وتآمرهم بالكف عن دمائهم التي كان قادراً على سفكها.

وآخر إجراءات العفو والتسامح التي اتبعتها النبي ﷺ مع هؤلاء اليهود، هي معاملته ليهود بني النضير في المدينة حيث حقن دماءهم وأعطى نساءهم وذريتهم من السبي وسمح لهم بأن يهاجروا إلى أي مكان شاءوا آمنين على أرواحهم وما قدروا على حمله من أموالهم.

غير أن هؤلاء اليهود لم يكذبوا بهم المقام في (خير) حتى جعلوا منها أخطر قاعدة للعدوان على الإسلام والمسلمين فلاقى المسلمون نتيجة وجود هذه القاعدة أشد المتاعب وأخطر الأحوال التي كادت تعصف بوجودهم وتمحو كيانهم على النحو الذي فصلناه في كتابينا (غزوة الأحزاب وبني قريظة).

فأثبت هؤلاء اليهود بذلك (وبما لا يدع مجالاً للشك) أنهم - ما بقوا على قيد الحياة - لن يرضوا بغير هدم كيان الإسلام واستئصال شأفة المسلمين، مهما بلغ المسلمون معهم في الصفح وحسن المعاملة، ومهما أعطى اليهود من عهود وأبرموا من موثائق.

لذلك كان من البديهي (بل من الضروري) أن لا يسلك النبي القائد ﷺ غير سبيل القضاء على هؤلاء اليهود وسحق كيانهم اتقاءً لشرهم وقطعاً لتيار خطر عدوانهم الذي ما كان ليتوقف لولا أن النبي ﷺ نقل المعركة إلى ديارهم واحتل قواعد عدوانهم، فضمن بذلك أمن وسلامة المسلمين من شر عدوان وغدر هؤلاء اليهود.

من هنا (والله أعلم) جاء السبب في أن النبي ﷺ وخلفاءه من بعده (وبعد التشريع بقبول الجزية من أهل الكتاب) لم يعاملوا يهود خيبر كما يعاملون بقية أهل الكتاب من مختلف الطوائف من الاكتفاء بإعطائهم الجزية، لأن هؤلاء اليهود أصبح لهم حكم الخونة الناكثين الذين تكرر منهم الغدر والخيانة والتمرد والتآمر وأثبتت التجارب المتكررة أنهم لا يمكن أن يفوا بعهدهم أو يلتزموا بميثاق .. وقبول المسلمين الجزية من يهود خيبر هو ميثاق من الموثائق.. وعقد مثل هذا الميثاق - مع هؤلاء اليهود - قد أثبتت التجارب عبر السنوات السبع أن لا فائدة منه مطلقاً، بل قد يكون فرصة جديدة يغتتمها هؤلاء اليهود لیسددوا ضربة غدر جديدة للإطاحة بالمسلمين كما فعل بنو النضير حين حزبوا الأحزاب، وبنو قريظة حين نقضوا العهد وغدروا بالمسلمين في أدق ساعات مصيرهم.

لهذا (والله أعلم) لم يقبل النبي من يهود خيبر إلا أحد أمرين إما الدخول في الإسلام فالاندماج في الأسرة الإسلامية، وإما الصدام المسلح حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.. ويدلنا على صحة ما ذهبنا إليه في هذا التحليل والاستنتاج أن النبي ﷺ حين أصر على محاربة يهود خيبر دون أن يعرض عليهم أن يدفعوا الجزية ليقى لهم كيانهم وأموالهم، قد قبل (في نفس الوقت) الجزية من يهود تيماء وترك لهم كل أموالهم ولم يعاملهم كمحاربين فتركوا أحراراً فلم يأخذ منهم أسيراً ولم يسب منهم امرأة أو طفلاً وكذلك فعل مع يهود (فدك) حين صالحهم وقبل منهم نصف أراضيهم وتركوا أحراراً في بلادهم بالرغم من أن (فدك) تعتبر من ضواحي خيبر.

ولا شك أن النبي ﷺ لم يسلك هذا المسلك في التمييز في المعاملة بين يهود تيماء وفدك وبين يهود خيبر، إلا لأن الأولين لم يشكلوا الخطر الذي يشكله يهود خيبر على أمن وسلامة الكيان الإسلامي بعدوانهم المتواصل ومؤامراتهم التي لم تقطع إلا حينما سحق المسلمون كيانهم الزنيم الدخيل بالاستيلاء على خيبر.. ولأن يهود تيماء والشمال وفدك، لم يكن لهم أية يد في أعمال التحريض والتحزيب والعدوان الآثم المخيف الذي رسمت مخططاته في خيبر وقامت به الأحزاب بقيادة سادات خيبر أنفسهم عام الخندق (السنة الرابعة من الهجرة).

بدء المعركة: رفض يهود خيبر الدعوة إلى السلام والتي حملها إليهم علي بن أبي طالب متمثلة في دعوتهم إلى الدخول في الإسلام لتحقق دماؤهم وليكونوا مع العرب المسلمين على قدم المساواة في جميع الحقوق ولينجوا من ظلام الكفر إلى نور التوحيد. لقد كان جواب يهود خيبر (وكانوا معتزين بكثرة عددهم وكمال عتادهم وعدتهم) كان جوابهم على دعوة السلام الرفض البات، بل كان الجواب من اليهود هو البدء بالحرب حيث شنوا في اليوم الأول من وصول النبي ﷺ إلى خيبر هجوماً عنيفاً على المسلمين كان من نتيجته استشهاد عدد منهم وإصابة خمسين بجراح نقلوا على أثرها إلى مركز الإسعاف في معسكر المسلمين^(١).

تنظيم القيادات وتوزيع الرايات: أخذ ﷺ في تعبئة جيشه وتوزيع القيادات، بعد أن أصر اليهود على رفض دعوة السلام وقرروا سلوك سبيل الحرب.

(١) انظر إمتاع الأسماع ص ٣١٢.

العلم النبوي: كان العلم النبوي (علم القيادة العليا) يوم خيبر، علماً أيضاً يقال له: العقاب، وكان مكتوباً فيه بالسواد (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وهذا اللواء هو الذي دفعه النبي ﷺ إلى علي بن أبي طالب في اليوم الأول حينما أمره بدعوة اليهود إلى السلام والدخول في الإسلام^(١).

أربع رايات للمهاجرين والأنصار: وقبل الهجوم ورّع النبي ﷺ أربع رايات على أربع قيادات، رايتين للمهاجرين وأعطاهما لأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، ورايتان للأنصار وأعطاهما لسعد بن عباد والحباب بن المنذر وذكر ابن سعد وابن إسحاق: أن الرايات لم تكن إلا يوم خيبر، وإنما كانت (قبل ذلك اليوم) الأولوية، وهذا يعني أن هناك فرقاً في عرف ذلك العصر بين الراية واللواء^(٢).

الحراسة: كذلك أنشأ ﷺ قوة للحراسة تقوم بالدوريات أثناء الليل لترقب حركات العدو والطواف حول قلاعه وحصونه، وكان من بين الذين يتولون حراسة المعسكر الإسلامي ويقومون بالدورية ليلاً عمر بن الخطاب^(٣). أما قيادة المعسكر وإدارة شؤونه في الرجيع فقد اسندت إلى عثمان بن عفان^(٤).

اجتياح مزارع اليهود.. وحرقت بعض النخيل: يستفاد من أحاديث المؤرخين أن أول عمل حربي قام به النبي ﷺ - بعد إنذار اليهود - هو الشروع في الاستيلاء على مزارعهم ونخيلهم، كما قام المسلمون بقطع النخيل إرهاباً للعدو وكان جملة ما قام المسلمون بقطعه من النخيل أربعمئة نخلة، ثم نهى النبي ﷺ عن القطع فتوقف المسلمون، وكانت المزارع التي استولى عليها المسلمون والنخيل التي قطعوها تقع في الشق الأول في منطقة (النظاة) والشق الأول من مدينة خيبر والتي شهدت أعنف المعارك^(٥).

مهمة صعبة للغاية: والمتتبع لمراحل القتال في خيبر يتضح له أن المسلمين كانوا قد واجهوا متاعب عظيمة ومشقات كبيرة وهم يحاولون إنهاء الوجود اليهودي في خيبر.

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٠.

(٢) انظر طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠٦، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٠، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٤.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٩.

(٤) إمتاع الأسماع ص ٣١٢.

(٥) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٨.

فبالإضافة إلى مناعة القلاع والحصون المشحونة بالمقاتلين اليهود الذين يفوقون المسلمين أضعافاً مضاعفة، كانت هناك رداة الجوى، فقد أصيب كثير من المسلمين بالحُمى وهم لما يبدأوا الهجوم على اليهود؛ لأن خبير منذ القدم مستوطنٌ للحُمى بسبب وجود كثرة المستنقعات فيها، وقد أثرت هذه الحمى على قوى المسلمين الجسدية، ولكن ذلك لم يثبتهم عن عزمهم فواصلوا القتال بصبر وجلد حتى تم لهم النصر.

كيف بدأ الهجوم؟: هناك اختلاف بين المؤرخين في أي من حصون خبير كان عرضة للهجوم الأول من قِبَل المسلمين، إلا أنه بعد الاستقراء والمقارنة ترجح لدينا أن جمهرة المؤرخين يقولون: إن حصون النطاة والشق (وهي التي تقع في الشطر الأول من مدينة خبير) كانت أول ما هاجمه المسلمون في خبير وهي خمسة حصون. وكان حصن (ناعم) أول حصن من حصون النطاة هاجمه المسلمون.

لقد كانت مهمة اقتحام حصون وقلاع خبير مهمة صعبة للغاية، فهي حصون منيعة، وفتحها يتطلب آلات تدميرية مثل المنجنيق وباصقات لهب النفط التي كان استعمالها شائعاً لدى كثير من الأمم ومنهم يهود خبير أنفسهم، ولكن المسلمين عندما جاءوا إلى خبير لم يكن لديهم أي شيء من هذه الآلات التدميرية. ولهذا فقد لاقوا صعوبة كبيرة للمقاومة العنيدة التي أبدتها اليهود المتحصنون وراء أسوار هذه الحصون.

معسكر المسلمين الأول: كان النبي ﷺ - كما ذكرنا فيما مضى من هذا الكتاب - قد قرر أن يهاجم خبير من الناحية الشمالية في أعلى (النطاة) ليحول بين اليهود وبين الشام، ويمنع غطفان من أن تمدهم بالمقاتلين.

وفعلاً جعل النبي ﷺ أول مقر لقيادته في أعلى النطاة في منطقة مكشوفة^(١) بالقرب من حصن (ناعم)^(٢) الذي كان أول حصن هاجمه المسلمون في خبير، وهو حصن مرحب فارس اليهود المشهور الذي قتله علي بن أبي طالب.

فقد ألح النبي ﷺ على حصن ناعم (في اليوم الأول من القتال)، واشترك هو نفسه ﷺ في القتال أثناء الهجوم على هذا الحصن.

(١) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٤٣.

(٢) ناعم اسم رجل من اليهود له حصون ذوات عدد وهذا الحصن منها. كذا قال الواقدي في مغازيه ج ٢ ص ٦٤٥.

وكان ﷺ يمتطي صهوة جواد اسمه الظرب (بفتح أوله وكسر ثانيه)، ويلبس درعين ومغفراً وعليه بيضة، وفي يده قنّاة وثرس^(١).

وأمام حصن ناعم دار القتال عنيماً بين المسلمين واليهود، فقد شدد المسلمون الهجوم على هذا الحصن وظلّوا يهاجمونه طوال اليوم.

ولكنهم لا قوا من اليهود (بقيادة مرحب وأخويه ياسر والحارث) مقاومة عنيفة، إلى درجة أن كل هجمات المسلمين على الحصن باءت بالفشل في ذلك اليوم وهو اليوم الأول من القتال. بل إن اليهود بلغوا في الاستماتة للدفاع عن حصن ناعم إلى أن يفتحوا أبواب الحصن ويقوموا بهجوم معاكس كاسح، فسالت كتائبهم على المسلمين من الحصن بقيادة الحارث (أبي زينب أخي مرحب)، وقد تلقته كتائب الأنصار.. وبعد قتال ضار خارج الحصن تمكن الأنصار من دحر القائد اليهودي الحارث وطاردوهم حتى أدخلوهم الحصن فأغلقوا على أنفسهم الأبواب.

غير أن اليهود عاودوا الهجوم من جديد ففتحوا أبواب الحصن وشنوا (بقيادة أسير أحد أفراد عائلة مرحب) هجمات عنيفة، فصمد لهم المسلمون، ولكن اليهود ضغطوا عليهم بعنف حتى كشفوهم وأخذوا في مطاردتهم حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ فاشتد ذلك عليه^(٢).

خمسون جريحاً وشهيداً واحداً: وقد تكبد المسلمون في اليوم الأول من القتال (أمام حصن مرحب.. ناعم) خسائر لا يستهان بها، إذ أصيب منهم خمسون رجلاً بجراح نتيجة تعرضهم لنبال اليهود التي كانوا يصبونها عليهم من أبراج الحصن^(٣)، وقد نقل هؤلاء الجرحى جميعاً في اليوم التالي إلى وادي الرجيع للمعالجة في مركز الإسعاف هناك بعد أن حوّل النبي ﷺ مقر قيادته إلى هذا الوادي بمشورة الحباب بن المنذر^(٤) كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

محمود بن مسلمة أول شهيد في خير: كما أنه في اليوم الأول هذا قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة الأنصاري، فكان أول شهيد يخرّ صريعاً في معركة خير.

(١) إمتاع الأسماع ص ٣١٣.

(٢) إمتاع الأسماع ص ٤١٣.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٤٦.

(٤) الحباب بن المنذر هو الخبير العسكري المشهور الذي (تبعاً لمشورته) غير النبي ﷺ في بدر مقر قيادته وعسكر بدلاً منه في المكان الذي دارت فيه المعركة، انظر ترجمة الحباب في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

ولم يُقتل محمود بن مسلمة في المعركة، وإنما قتل غيلة وهو يتفياً ظلال أحد الأبنية التابعة لحصن ناعم التي ما كان يظن أن بها أحداً من المقاتلين اليهود.

فقد انحاز محمود (بعد أن قاتل قتال الأبطال وكان ذلك اليوم صائفاً شديد الحر) انحاز إلى ذلك الظل ليستريح قليلاً ألقى عليه مرحب اليهودي حجر رحي، فأصابت رأسه فتحطمت عليه البيضة حتى سقطت جلدة جبينه على وجهه، فجيء به إلى رسول الله ﷺ فرد الجلدة كما كانت ثم عصب رأسه^(١)، وبعدها نقل إلى مركز الإسعاف فظل تحت العلاج في وادي الرجيع ثلاثة أيام حتى فارق الحياة.

تغيير مقر قيادة النبي: وفي هذا اليوم (اليوم الأول من القتال) الذي لاقى فيه المسلمون مصاعب شديدة ومنوا بخسائر لا يستهان بها، لاحظ أحد القادة الكبار من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار (وهو الحباب بن المنذر)، لاحظ أن المكان الذي اتخذته النبي ﷺ مقراً لقيادته غير صالح من الناحية (الاستراتيجية) فأشار على النبي ﷺ لذلك بأن يتحول منه ويختار مكاناً غيره صالحاً لأن يكون مقراً لقيادته.

فقد تفقد الحباب المكان فوجد أن حصون النطاة المراد مهاجمتها تقع على مرتفعات عالية، ووجد أن معسكر المسلمين مكشوف تماماً أمام تلك الحصون (ومنها حصن ناعم) ولاحظ أن نبال اليهود المصوبة من الحصون تخالط المسلمين داخل معسكرهم، الأمر الذي جعل خمسين من المسلمين يصابون بجراح مختلفة. كما لاحظ أن معسكر الجيش يقع في منطقة موبوءة حيث النخيل ونزّ الماء^(٢)، فقد ذكر المؤرخون أن الحباب بن المنذر جاء إلى النبي ﷺ في اليوم الأول من القتال (وهو يهاجم حصن ناعم) فقال: يا رسول الله! إنك نزلت منزلك هذا، فإن كان عن أمر أمرت به فلا نتكلم فيه، وإن كان الرأي تكلمنا.

فقال النبي ﷺ: بل هو الرأي. فقال الحباب: يا رسول الله! دنوت من الحصن ونزلت بين ظهري النخل والنزّ مع أن أهل النطاة لي بهم معرفة، ليس قوم أبعد مدى سهم منهم ولا أعدل رمية منهم (أي أنهم مهرة في تصويب الرمي) وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لاختطاط نبلهم، مع أنني لا آمن من بيأتهم (أي هجومهم في الليل)، يدخلون في حَمَر^(٣) النخل، تحول يا رسول الله إلى موضع بريء من النزّ ومن الوباء، نجعل الحرة بيننا وبينهم، حتى لا ينالنا نبلهم.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٤٥.

(٢) النزّ: ما يتحلب من الأرض من الماء، قاله في الصحاح.

(٣) الحَمَر بفتح أوله وثانيه: كل ما مشترك من شجر أو غيره (النهاية في غريب الحديث ج ١ ص ٣٢٠).

فاستصوب النبي ﷺ رأى الحباب بن المنذر قائلاً: لقد أشرت بالرأي، إذا أمسينا تحولنا^(١).

استمرار القتال حتى المساء: إلا أن النبي ﷺ رأى أن يستمر في مقاتلة أهل حصن ناعم حتى يخيم الليل، ليتمكن من تغيير مقر قيادته في الليل، فقال للحباب بن المنذر: نقاتلهم اليوم.

وعملاً بمشورة الحباب بن المنذر، استدعى النبي ﷺ الصحابي المشهور محمد بن مسلمة الأنصاري قائد حرس النبي ﷺ وطلب منه أن يبحث عن موقع أصلح من الموقع الذي عسكر فيه ذلك اليوم ليتحول إليه قائلاً: انظر لنا منزلاً بعيداً من حصونهم بريئاً من الوباء نأمن فيه بياتهم.

فامتثل محمد بن مسلمة لأمر النبي القائد ﷺ، فانطلق يرتاد المواقع مفتشاً عن مكان يطابق الوصف الذي وصفه النبي ﷺ ليكون معسكراً جديداً للجيش، وبعد بحث دقيق وجد ابن مسلمة المكان المناسب الصالح لأن يعسكر فيه الجيش كما يريد النبي ﷺ وهو وادي الرجيع^(٢).

فرجع إلى النبي ﷺ وهو أمام حصن ناعم يقاتل، فقال: يا رسول الله! وجدت لك منزلاً، وذكر له وادي الرجيع، فقال النبي ﷺ: على بركة الله، إلا أن النبي ﷺ ظل يقاتل يومه ذلك إلى الليل، يقاتل أهل النظاة (التي فيها يقع حصن ناعم) يقاتل من أسفلها، وحشدت اليهود يومئذ، فقال الحباب: لو تحولت يا رسول الله، فقال ﷺ: إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا.

واشتد رمي اليهود حتى جعلت نباهم تخالط عسكر المسلمين وتجاوزه، وجعل المسلمون يلقطون نبلهم ثم يردونها عليهم.

تحول المسلمين إلى وادي الرجيع: وفي مساء ذلك اليوم (اليوم الأول للقتال) تحول النبي ﷺ بجيشه إلى وادي الرجيع الذي اختاره له محمد بن مسلمة الأنصاري^(٣).

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٨ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٤٣.

(٢) الرجيع واد بالقرب من خيبر، وهو غير الرجيع الذي غدر فيه الهذليون المشركون بالسبعة من أصحاب النبي ﷺ فذاك ماء يقع بين مكة والطائف، بينه وبين المدينة عشرين ليلة.

(٣) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة أحد).

وقد اتخذ النبي ﷺ من وادي الرجيع مقراً لقيادته، كما جعله قاعدة لإدارة العمليات الحربية ضد اليهود في حصون النطاة (وخاصة حصن ناعم) يغدو بالمسلمين من معسكره في هذا الوادي للقتال على راياتهم، فإذا أقبل المساء عاد بقواته إلى المعسكر في الرجيع. وقد أنشأ النبي ﷺ مركزاً للإسعاف داخل معسكره في هذا الوادي لمعالجة المسلمين في المعارك، حيث ينقل هؤلاء الجرحى من الميدان ساعة إصابتهم. وفي وادي الرجيع تمت معالجة الخمسين الذين أصيبوا بجروح في اليوم الأول من القتال أمام حصن ناعم.

عثمان بن عفان قائد المعسكر: وقد أسند النبي ﷺ قيادة معسكر الجيش في الرجيع إلى عثمان بن عفان، ويقع وادي الرجيع في أعلى النطاة التي دارت فيها أعنف المعارك بين المسلمين واليهود، وهذا يعني أن النبي ﷺ قاتل اليهود (أول يوم) من أسفل النطاة، ثم قاتلهم (بعد أن تحول إلى الرجيع) من أعلاها حتى فتح الله عليه خيبر^(١).

شدة الانضباط العسكري عند المسلمين: وفي بداية حصار المسلمين لحصن (ناعم) حدثت حادثة ألقى بعدها النبي ﷺ على أصحابه درساً في الانضباط العسكري وخطورة عدم التقيد بأوامر القائد العام للجيش، وأن الجندي لا يمكن أن يقدم على أي عمل حتى يأذن قائده بذلك.

فقد ذكر المؤرخون أن النبي ﷺ (وهو يستعد للهجوم على حصن ناعم في النطاة) نهى عن القتال حتى يتلقى الجند الإذن منه بذلك.

ولكن رجلاً من جند الإسلام (وهو من قبيلة أشجع النجدية) رأى رجلاً يهودياً فحمل عليه يريد قتله، غير أن فارس خيبر مرحباً المشهور، اعترض الأشجعي فقتله.

فقال الناس: يا رسول الله! استشهد فلان، فقال ﷺ: أبعد ما نهيت عن القتال؟.

فقالوا: نعم.

فأمر رسول الله ﷺ منادياً، فنادي: لا تحل الجنة لعاص^(٢)، مشيراً بذلك إلى مخالفة الأشجعي المسلم الذي خالف الانضباط العسكري، فقاتل اليهود قبل أن يأذن النبي القائد ﷺ بالقتال.

(١) انظر إمتاع الأسماع ص ٣١٠، وطبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ٧٧، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٩، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٣، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٧.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٤٩. ولا أظن هذا يصح عن رسول الله إذ الجنة لا تحرم إلا على الكفار والمشركين. أما العصاة فهم من أهل المشيئة أن شاء الله عذبوا على معاصيهم وأنشأ غفرهم ودخلوا الجنة ابتداء. وهم وأن عذبوا على معاصيهم فما لهم إلا الجنة إن شاء الله ما داموا ماتوا على التوحيد.

وهذا يثبت أن المسلمين كانوا أسبق الأمم بالشدة والصرامة في الشؤون العسكرية وخاصة في ظروف الحرب، فهذا رجل مسلم قتله يهودي، في ساحة القتال، ولكن النبي ﷺ مع ذلك، لم يرق له تصرف الأشجعي المسلم، فاعتبره عصياناً كما تقدم.

بساطة الإسلام ويسره: وأثناء حصار حصن ناعم، أسلم عبد حبشي كان مملوكاً لليهود فقاتل مع المسلمين ثم قُتلَ فدخلَ الجنة، دون أن يسجدَ لله سجدة، لأنه قتل في اليوم الذي أسلم فيه وقبل أن يجين موعد الصلاة.

فقد ذُكرَ في التاريخ أن عبداً حبشياً اسمه (أسلم) كان مملوكاً لأحد سادات خيبر الخمسة (عامر الذي قُتلَ مع مرحب)، هذا العبد كان يرعى الغنم لعامر اليهودي، فلما رأى أهل خيبر يتحصنون ويستعدون للقتال، سألمهم، فقالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي، قال: فوقعت تلك الكلمة في نفسه، فأقبل بغنمه يسوقها إلى رسول الله ﷺ، ثم طلب مقابلته فسمح له بذلك، فلما دخل عليه قال له: يا محمد! ما تقول؟ ما تدعو إليه؟ فقال له النبي ﷺ - بكل بساطة-: أَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنْ لَا تَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ.

فقال العبد: فما لي إن شهدت وآمنت بالله عز وجل؟ قال ﷺ: لك الجنة إن مت على ذلك.

فوقع الإسلام في قلبه، فأسلم.

درس في الأمانة: ثم قال الحبشي: يا رسول الله! إن هذه الغنم عندي أمانة فكيف أصنع بها؟

فقال ﷺ: أخرجها من المعسكر ثم صح بها وارمها بمجصيات فإن الله عز وجل سيؤدي عنك أمانتك.

فقام الحبشي فأخذ حفنة من حصباء فرمى بها في وجهها وقال: ارجعي إلى صاحبك، فوالله لا أصحبك، فخرجت مجتمعة كأن سائناً يسوقها حتى دخلت حصن مرحب، فعلم اليهودي أن عبده قد أسلم..

قالوا: فخرج علي بن أبي طالب حاملاً الراية لمقاتلة يهود حصن ناعم، وتبعه الحبشي فقاتل اليهود حتى قتل، فاحتمل إلى مركز الإسعاف، فرآه رسول الله ﷺ فقال لأصحابه: لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين، ولم يصل لله سجدة قط^(١).

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٣، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٤٩، وزاد المعاد ج ٢ ص ٣٢٩.

وفي رواية أخرى أن رجلاً أسود جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني رجل أسود اللون قبيح الوجه منتن الريح لا مال لي، فإن قاتلت هؤلاء حتى أقتل: أأدخل الجنة؟ قال: نعم، فتقدم فقاتل حتى قتل، فأتى عليه النبي ﷺ وهو مقتول، فقال: حسن الله وجهك، وطيب ريحك، وكثر مالك ثم قال: لقد رأيت زوجتيه من الحور العين ينزعان جبته عنه ويدخلان فيما بين جلده وجبته^(١).

حصن ناعم أقوى حصون النطاة: دلت المعارك الضارية التي خاضها المسلمون أمام حصن (ناعم) للاستيلاء عليه.. دلت على أنه أمنع وأقوى حصون خيبر وأن المدافعين عنه من اليهود هم أشجع يهود خيبر وأشدهم مراساً في القتال. ويكفي للتدليل على ذلك أن مرحباً فارس خيبر هو الذي كان يتولى قيادة الدفاع عن هذا الحصن المنيع، يساعده في ذلك فارسان لا يقلان عنه شجاعة وجرأة وهما أخواه (ياسر والحارث) وكل هؤلاء القادة الثلاثة قتلوا مبارزة بأيدي المسلمين ولم يتمكن المسلمون من فتح حصن ناعم إلا بعد أن قضوا على هؤلاء الفرسان المغامرين الثلاثة. كما سيأتي تفصيله.

تشديد الحصار على حصن ناعم: وبالرغم من ضروب الاستبسال التي أبدتها آل مرحب وجنودهم في الدفاع عن هذا الحصن، وبالرغم من التعب الذي لقيه المسلمون بسبب المقاومة العنيفة التي أبدتها اليهود، وبالرغم من وخامة المنطقة وتعرض كثير من جيش النبي ﷺ لوباء الحمى^(٢) فقد أمر النبي ﷺ بمضاعفة الضغط وتشديد الحصار على اليهود في هذا الحصن المنيع الذي يعتبر خط الدفاع الأول عن خيبر.

قتل مرحب وافتتاح حصنه: استمر اليهود في مقاومتهم الشرسة، وألح النبي ﷺ في الهجوم على الحصن بغية فتحه، فدفع بالكتيبة من المهاجرين والأنصار تلو الكتيبة لمهاجمة حصن ناعم، ولكن هذه الكتائب كلها عجزت عن اقتحام الحصن وفتحه لمناعته وشدة مقاومة اليهود.

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٠.

(٢) روى البيهقي في الدلائل عن أبي قلابه، قال: لما قدم النبي ﷺ خيبر، قدم والشمرة خضرة، قال فأسرع الناس إليها فحموا (أي أصابهم الحمى) فشكوا ذلك إليه فأمرهم أن يقرسوا الماء (يقرسونه يجعلونه شديد البرودة) في الشنان ثم يجرؤنه عليهم إذا أتى الفجر ويذكرون اسم الله عليه، ففعلوا ذلك فكانما نشطوا من عقل (البدية والنهاية ج ٤ ص ١٩٥)

قال في (إمتاع الأسماع) يصف صعوبة القتال وضراوته أمام هذا الحصن: وقد دفع لواءه إلى رجل من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً، فدفعه إلى رجل آخر منهم فرجع ولم يصنع شيئاً، ودفع لواء الأنصار إلى رجل منهم فرجع ولم يصنع شيئاً.

فحث ﷺ على الجهاد، وسالت كتائب يهود: أمامهم الحارث أبو زينب (أخو مرحب) يهدّد الناس هدأً فساقهم صاحب راية الأنصار حتى انتهوا إلى الحصن وخرج (أسير) أحد قادة اليهود فكشف الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ مهموماً.

ولم يتضعض موقف المدافعين عن الحصن إلا بعد قتل قائده مرحب.

مقتل عامر بن الأكوع: وذكر ابن كثير في البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٧: أن مرحب اليهودي خرج أثناء محاصرة حصنه يتبختر بسيفه طالباً البراز وهو يقول:

قد علمت خير أبي مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه عامر بن سنان بن الأكوع^(١) وهو يقول:

قد علمت خير أبي عامر شاكي السلاح بطل مغمـر

فاختلفا ضربتين فوق سيف مرحب في ترس^(٢) عامر فذهب يُسفلُ له فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه، وقد سبق تفصيل هذا عند قصة حداء عامر لرسول الله ﷺ أثناء الطريق.

من الذي قتل مرحب؟ هناك خلاف بين المؤرخين وأصحاب الحديث حول الذي تولى قتل فارس اليهود (مرحباً).. فريق يرى أن الذي تولى قتله هو محمد بن مسلمة الأنصاري، وعلى رأس هذا الفريق إمام أهل المغازي محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة. ويرى الواقدي أن محمد بن مسلمة بارز مرحباً، ثم قطع رجله وتركه جريحاً يجود بنفسه حتى مرّ به علي بن أبي طالب ذفف عليه واحتز رأسه.

(١) هو عامر بن سنان بن الأكوع الأنصاري، عم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأنصاري العداة المشهور وصاحب البطولة في

صد عدوان فزارة في غزوة ذات قرد.

(٢) الثرس (بضم التاء) ما يتستر به المحارب بيده أثناء القتال.

أما الفريق الثالث فيرى أن الذي قتل مرحباً هو الإمام علي بن أبي طالب.. وبالنظر في أقوال الفرقاء يتضح للباحث المنصف أن الذي تولى قتل مرحب فكان فتح الحصن على يده هو الإمام علي بن أبي طالب.

ونحن هنا سنورد باختصار رواية كل من الفرقاء الثلاثة. ولنبدأ برأي ابن إسحاق. قال ابن إسحاق: لما خرج مرحب أمام حصنه وطلب البراز، قال رسول الله ﷺ: من لهذا؟ قال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر، قتل أخي بالأمس، فقال له النبي ﷺ فقم إليه، اللهم أعنه عليه، قال فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عمرية من شجر العُشْر، فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه، كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها فنن، وهنا حمل القائد مرحب على ابن مسلمة فأهوى إليه بسيفه فاتقاه بدرقته وكانت من جلد سميك فوقع سيف مرحب فيها فعضت به فأمسكته، وهنا ضربه محمد بن مسلمة حتى قتله^(١).

وبمثل هذا القول قال: موسى بن عقبة عن الزهري^(٢).

أما الواقدي، فقد ذكر أن محمد بن مسلمة لما بارز (مرحباً) قطع رجله، وبعد أن طرحه أرضاً قال له مرحب: أجهز عليّ، فقال: لا، ذق الموت كما ذاقه أخي محمود بن مسلمة، فمرّ به علي بن أبي طالب وقطع رأسه، فاختصما في سلبه إلى رسول الله ﷺ فأعطى رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة سيفه ورمحه ومغفره وبيضته وكان مكتوباً على سيفه بالعبرية:

هَذَا سَيْفٌ مَرَحَبٌ مِنْ يَدِ قَتْلِهِ يُعْطَبُ^(٣)

وكان هذا البيت من الشعر بالعبرية، ترجمه إلى اللغة العربية رجل من اليهود^(٤).

رواية البيهقي وغيره: أما قصة قتل الإمام علي لمرحب، فقد أوردها كثير من المؤرخين وأصحاب الحديث، ولتقتصر هنا على رواية البيهقي، وقبل إيرادها يجمل أن نذكر ما أورده المقرئ من أن الإمام علي قتل الحارث قبل أخيه مرحب.

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٤.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٨.

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٩.

(٤) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٢٨.

فقد جاء في إمتاع الأسماع أن النبي ﷺ لما لم ينجح القادة الذين هاجموا حصن ناعم قال: لأعطين الراية رجلاً يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه، ثم استدعى علي بن أبي طالب ثم دفع إليه اللواء ودعا له بالنصر، وكان أول من خرج إليه الحارث - أخو مرحب - فانكشف المسلمون وثبت علي فاضطربا ضربات فقتل علي الحارث، وانهزم اليهود إلى حصونهم.

أما رواية البيهقي فقد جاء فيها (كما في البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٦): أن رسول الله ﷺ ربما أخذته الشقيقة^(١) فلبث اليوم واليومين، لا يخرج فلما نزل خير أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس، وأن أبا بكر أخذ راية رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً، ثم رجع فأخذها عمر، فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول، ثم رجع فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: لأعطينها غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يأخذها عنوة وليس ثمّ علي، فتناولت لها قريش ورجا كل رجل منهم أن يكون صاحب ذلك.

فأصبح وجاء علي بن أبي طالب على بعير له حتى أناخ قريباً وهو أرمد قد عصب عينه بشقة برد قطري، فقال رسول الله ﷺ: ما لك؟ قال: رمدت بعدك، قال: ادن مني، فتفل في عينيه فما وجعها حتى مضى لسبيله، ثم أعطاه الراية فنهض بها فأتى مدينة خير وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر^(٢) يمانى وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، وهو يرتجز ويقول:

قد علمت خير أبي مرحب
وأحجمت عن صولة المغلب
شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الليوث أقبلت تلهب
فقال علي:

أنا الذي سمّني أمي حيدرة
كليث غابات كـريه المنظرة

أكيلكم بالصاع كيل السندرة

قال: فاختلفا ضربتين، فضربه عليّ فقد الحجر والمغفر ورأسه ووقع (السيف) في الأضراس وأخذ المدينة.

وقد عقب الحافظ البزار على قصة بعث أبي بكر وعمر وعدم قدرتهما على الفتح فقال: إن في سياق الحديث غرابة ونكارة وفي إسناده من هو متهم بالتشيع^(٣).

(١) الشقيقة: نوع من الصداع يعرض في مقدمة الرأس وإلى أحد جانبيه.

(٢) المغفر (بكسر أوله وسكون ثانيه) غطاء من الحديد يقنع به الرأس في الحرب.

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٩.

هذه هي خلاصة الأقوال في قصة مقتل مرحب، غير أننا إذا تفحصنا مختلف الروايات ترجح لدينا أن الذي قتل قائد القوات اليهودية في حصن ناعم (مرحباً) هو الإمام علي، يؤكد هذا الترجيح أن الإمام مسلم (وإن لم يرو قصة عجز أبي بكر وعمر عن الفتح) إلا أنه روى أن قاتل مرحب هو الإمام علي بن أبي طالب^(١). وكذلك الإمام البخاري روى في صحيحه ما يشد من أزر رواية مسلم (فبالرغم من أنه لم يرو قصة عجز أبي بكر وعمر عن الفتح ولم يذكر أن علياً هو الذي قتل مرحباً، إلا أنه ذكر أن النبي ﷺ أعطى علياً الراية - بعد أن قال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله - فتم على يديه فتح الحصن^(٢)).

الزبير يقتل ياسر أخوا مرحب: ويدل سياق المؤرخين - كما تقدم - أن أعنف قتال شهدته خيبر هو القتال الذي دار حول حصن ناعم (حصن آل مرحب وهم من حمير على ما ذكره ابن إسحاق) وقد رأينا كيف بلغ اعتداد اليهود المرابطين في هذا الحصن بأنفسهم إلى أنهم خرجوا أكثر من مرة وهاجموا المسلمين حتى كشفوهم وطاردوهم حتى ألبأوهم إلى مقر قيادة النبي ﷺ الأمر الذي اغتم له الرسول ﷺ واستدعى الإمام علي وأسند إليه مهمة افتتاح هذا الحصن المنيع الذي أعى المسلمين فتحه.

وبالرغم من تمكن الإمام علي بن أبي طالب من القضاء على مرحب كبير القادة المدافعين عن الحصن، فإن الحصن لم يستسلم للمسلمين في الحال، بل ظل اليهود محتفظين به يدافعون عنه بضراوة.. يدلنا على ذلك أن ياسر الذي خلف أخويه (مرحباً والحارث في القيادة) ظل يدافع عن الحصن بضراوة، بل لقد ذهبت به الشجاعة والجرأة (بعد أن لقي أخواه مصرعهما) إلى أن يتحدى المسلمين، حيث خرج من الحصن تحرسه قوات كثيفة من اليهود وركز رمحه أمام الحصن وأخذ يجول بفرسه وهو يطلب المبارزة قائلاً:

قد علمت خيبر أني ياسر
شاكى السلاح بطل مغامر
إذا الليوث أقبلت تُبادر
وأحجمت عن صولتي المخاطر

إن هامي فيه موت حاضر

(١) انظر مختصر سيرة الرسول ص ٢٧٢ للشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ط دار العروبة.. وانظر صحيح مسلم ذاته طبعة محمد علي صبيح ج ٥ ص ١٩٥ في باب غزوة ذات قرد.

(٢) صحيح البخاري ج ٥ ص ٣٧٩ ط المنيرية بمصر.

وكان اليهودي ياسر من أشجع قاداتهم وأشدهم بأساً.. فخرج إليه الزبير بن العوام، فخشيت عليه أمه صفية (عمة رسول الله ﷺ) فقالت: يا رسول الله.. إنه يَقْتُلُ ابني، فقال النبي ﷺ: بل ابنك يقتله إن شاء الله.. وقد رد الزبير على شعر ياسر بقوله:

قد علمت خبير أبي زُبَّار قِرْمَ لِقِرْمٍ غَيْرِ نَكْسِ فَرَّارٍ
وابن حماة المجد وابن الأخيار ياسر لا يفرك جمع الكُفَّارِ

فجمعهم مثل السراب الجرار

فتجاولا برهة بعدها تمكن الزبير من قتل خصمه ياسر^(١)، ويقتله فقد المدافعون عن حصن ناعم قاداتهم الكبار الثلاثة فأثر ذلك تأثيراً كبيراً في معنوياتهم الأمر الذي يسر للمسلمين اقتحام الحصن وفتحه بقيادة علي بن أبي طالب.

وبعد أن قتل الزبير قائد اليهود (ياسراً) قال النبي ﷺ للزبير: فذاك عم وخال، لكل نبي حوارٍ وحواريّ الزبير..

قال ابن كثير في البداية والنهاية: فكان الزبير إذا قيل له: إن كان سيفك يومئذ لصارماً، فيقول: ما كان صارماً ولكنني أكرهته.

مصرع القائد اليهودي الرابع: وجاء في إمتاع الأسماع ص ٣١٦ أن قائداً يهودياً رابعاً لقي مصرعه مبارزة أمام الحصن على يد علي بن أبي طالب، واسم هذا القائد (عامر). كما قتل أمام حصن ناعم أيضاً قائداً يهودياً خامساً (مبارزة) قتله محمد بن مسلمة الأنصاري.

استيلاء المسلمين على حصن ناعم: وبعد مصرع هؤلاء القادة اليهود الخمسة (مرحب والحارث وعامر وياسر وأسير) انهارت المقاومة في صفوف اليهود المدافعين عن الحصن الذي شدد المسلمين الهجوم عليه حتى اقتحموه ففتحوه، فكان هذا الحصن أول وأهم حصن من حصون خيبر يحتله المسلمون.

تفصيلات الواقدي لفتح حصن ناعم: بالرغم من أن معارك حصن ناعم هي أعنف معارك خيبر على الإطلاق، إلا أن عامة المؤرخين في أمّهات التاريخ لم يعطوا وصفاً مفصلاً متناسقاً مترابطاً للقتال عند هذا الحصن، بل كان وصفهم وصفاً مبثراً غير مترابط.

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٤، وإمتاع الأسماع ص ٣١٦، السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٣، زاد المعاد ج ٢ ص ٣٢٩.

ولعل أحسن وصف في كتب التاريخ وأقربه إلى التنسيق هو الوصف الذي جاء في مغازي الواقدي التي نشرتها جامعة أكسفورد بتحقيق الدكتور مارسدن جونز. ولأهمية هذا الوصف بالنسبة للقارئ فإننا سنورده هنا بالرغم من أننا قد ذكرنا بُدأً منه التقطناها بصعوبة من هنا وهناك في أمهات التاريخ.

قال الواقدي (يصف معركة حصن ناعم): فلقد انتهى رسول الله ﷺ إلى حصن ناعم ومعه المسلمون - وحصون ناعم عدّة - فرمت اليهود يومئذ بالنبل، وثرس أصحاب رسول الله ﷺ عن رسول الله، وعلى رسول الله ﷺ يومئذ ذرعان ومغفر وبيضة، وهو على فرس يقال له: الظرب، في يده قنّاة وثرس، وأصحابه محدقون به، وقد كان دفع لواءه إلى رجل من أصحابه من المهاجرين، فرجع ولم يصنع شيئاً ثم دفعه إلى آخر فرجع ولم يصنع شيئاً، ودفع رسول الله ﷺ لواء الأنصار إلى رجل منهم، فخرج ولم يعمل شيئاً، فحث رسول الله ﷺ المسلمين، فسالت كتائب اليهود أمامهم أبو زينب يقدم اليهود يهْدُّ الأرض هدأً، فأقبل صاحب راية الأنصار، فلم يزل يسوقهم حتى انتهوا إلى الحصن فدخلوه، وخرج أسير اليهودي يقدم أصحابه معه عاديته^(١)، وكشف راية أصحاب الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ في موقفه، ووجد رسول الله ﷺ في نفسه حدة شديدة، وقد ذكر لهم الذي وعدهم الله، فأمسى رسول الله ﷺ مهموماً.

سعد بن عباد الجريح: وقد كان سعد بن عباد^(٢) رجع مجروحاً وجعل يستبطن أصحابه، وجعل صاحب راية المهاجرين يستبطن أصحابه ويقول: أنتم، وأنتم، فقال رسول الله ﷺ: إن اليهود جاءهم الشيطان فقال لهم: إن محمداً يقاتلكم على أموالكم نادوهم، قولوا: لا إله إلا الله، ثم قد أحرزتم بذلك أموالكم ودماءكم، وحسابكم على الله، فنادوهم بذلك (والقتال على أشده) فنادت اليهود: لا نفعل ونترك عهد موسى والتوراة بيننا.

فقال رسول الله ﷺ: (لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرّار، أبشر يا محمد بن مسلمة غداً، إن شاء الله يُقتل قاتل أخيك (وقاتل أخيه، مرحب) وتولى عادية اليهود).

(١) عاديته: الذين يمشون أمامه على أرجلهم.

(٢) انظر ترجمة سعد بن عباد في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

فلماً أصبح أرسل إلى علي بن أبي طالب وهو أرمدم، فقال: ما أبصر سهلاً ولا جبلاً، قال فذهب إليه فقال: (افتح عينيك)، ففتحهما، فتفل فيهما، قال علي: فما رمدت حتى الساعة، ثم دفع إليه اللواء، ودعا له ومن معه من أصحابه بالنصر.

فكان أول من خرج إليهم الحارث أخو مرحب في عاديته فانكشف المسلمون وثبت علي، فضرب ضربات فقتله علي، ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن فدخلوه وأغلقوا عليهم، فرجع المسلمون إلى موضعهم. وخرج مرحب وهو يقول:

قد علمت خير أني مرحبُ شاكي السلاح بطل مجربُ
أضرب أحياناً وحيناً أضربُ

فحمل عليه فقطره^(١) على الباب وفتح الباب، وكان للحصن بابان.

ومن طريق آخر يورد الواقدي أن الذي قتل الحارث (أبا زينب أخا مرحب) هو أبو دجانة^(٢) وليس علي بن أبي طالب، فقد قال: وحدثني ابن أبي سبرة عن خالد بن رباح، عن شيوخ من بني ساعدة قالوا: قتل أبو دجانة الحارث أبا زينب، وكان يومئذ معلماً بعمامة حمراء، والحارث معلم بعمامة فوق مغفرة، ويأسر وأسير وعامر (كلهم من قادة اليهود) معلمين.

وحدثني ابن أبي سبره، عن عمرو بن أبي عمرو، قال: نزلت بأريحا، زمن سليمان بن عبد الملك، فإذا حي من اليهود، وإذا رجل يهدج من الكبر، فقال: ممن أنتم؟ قلنا من الحجاز، فقال اليهودي: واشوقاه إلى الحجاز، أنا ابن الحارث اليهودي فارس خير، قتله يوم خيبر رجل من أصحاب محمد يقال له: أبو دجانة، يوم نزل محمد خير وكنا ممن أجلى عمر بن الخطاب إلى الشام، فقلت: ألا تسلم؟ قال: أما إنه خير له لو فعلت، ولكن أعير، تعيرني اليهود، تقول: أبوك ابن سيد اليهود لم يترك اليهودية، قتل عليها أبوك وتحالفه؟

وقال أبو رافع: كنا مع علي حين بعثه النبي ﷺ بالراية فلقي علي رجلاً على باب الحصن فضرب علياً واتقاه بالترس علي، فتناول علي باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده حتى فتح الله عليه الحصن.

(١) قطره: أي ألقاه على أحد قطريه، كذا قال في الصحاح.

(٢) أبو دجانة فارس أنصاري مشهور واسمه سماك بن خرشة، له مواقف بطولية رائعة في الدفاع عن رسول الله يوم أحد، انظر قصته في كتابنا (غزوة أحد).

قال الواقدي: ويقال: إن مرحباً برز كالفحل الصؤول يرتجز وهو يقول:

قد علمت خير إني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
أضرب أحياناً وحيناً أضربُ

يدعو للبراز فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله! أنا والله الموتور الثائر، قتل أخي بالأمس فائذن لي في قتال مرحب، وهو قاتل أخي، فأذن له رسول الله ﷺ في مبارزته، ودعا له بدعوات، وأعطاه سيفه، فخرج محمد فصاح: يا مرحب، هل لك في البراز؟ فقال: نعم فخرج إليه مرحب وهو يرتجز: قد علمت خير إني مرحب. وخرج محمد بن مسلمة وهو يقول:

قد علمت خير إني ماض حدو إذا شئت وسمّ قاض

قال وبرز كل واحد منهما إلى صاحبه، قال: فحالت بينهما عشرات ^(١) أصلها كمثل أصل الفحل من النخل وأفنان منكسرة، فكلما ضرب أحدهما صاحبه استتر بالعشر حتى قطع كل ساق لها، وبقي أصلها قائماً، كأنه الرجل القائم وأفضى كل واحد منهما إلى صاحبه، وبدر مرحب محمداً، فيرفع السيف ليضربه، فاتقاه محمد بالدركة، فلحج ^(٢) سيفه، وعلى مرحب درع مشمّرة فيضرب محمد ساقه مرحب فقطعها، ويقال لما اتقى محمد بالدركة وشمّرت الدرع عن ساقه مرحب حين رفع يديه بالسيف، فطأ محمد بالسيف فقطع رجله ووقع مرحب، فقال مرحب: اجهز عليّ يا محمد، قال محمد: ذق الموت كما ذاقه أخي محمود، وجاوزه ومرّ به عليّ فضرب عنقه وأخذ سلبه، فاختصما إلى رسول الله ﷺ، فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله! والله ما قطعت رجله ثم تركته إلا ليدوق الموت، كما ذاقه أخي، مكث ثلاثاً يموت، وما منعتني من الإجهاز عليه شيء، قد كنت قادراً بعد أن قطعت رجله أن أجهز عليه، فقال عليّ: صدق، ضربت عنقه بعد أن قطع رجله، فأعطى رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة سيفه ودرعه ومغفره وبيضته، فكان عند آل محمد بن مسلمة سيفه فيه كتاب، لا يدري ما هو حتى قرأه يهودي من يهود تيماء فيه:

هذا سيف مرحب من يذُقهُ يُعْطَبُ

(١) العشرات: جمع عشر، وهو شجر يسيل منه - عند كسره رطياً - سائل أبيض لزج كالصمغ.

(٢) لحج السيف إذا نشب، فلا يخرج.

وحدثني محمد بن الفضل، عن أبيه عن جابر، وحدثني زكريا بن زيد، عن أبي سفيان، عن أبيه، عن سلمة بن سلامة ومجمّع بن يعقوب، عن أبيه، عن مجمع بن حارثة، قالوا جميعاً: محمد بن مسلمة قتل مرحباً.

قالوا وبرز أسير، وكان رجلاً أيّداً، وكان إلى القصر، فجعل يصيح من يبارز، فبرز له محمد بن مسلمة فاختلفا ضربات، ثم قتله محمد بن مسلمة، ثم برز ياسر، وكان من أشدّائهم، وكانت معه حربة يحوش^(١) بها المسلمين حوشاً، فبرز له علي فقال الزبير: أقسمت عليك إلا خلّيت بيني وبينه، ففعل عليّ، وأقبل ياسر بحرّبه يسوق بها الناس، فبرز له الزبير، فقالت صفية (عمة رسول الله ﷺ): أبنّي يُقتل يا رسول الله، فقال: بل ابنك يقتله، قال: فاقْتتلا، فقتله الزبير، فقال له رسول الله ﷺ: فذاك عم وخال، وقال النبي ﷺ لكل نبي حوارٍي، وحواري الزبير وابن عمّي، فلما قتل مرحب وياسر، قال رسول الله ﷺ: أبشروا، قد ترخّبت خير وتيسرت.

وبرز عامر وكان رجلاً طويلاً جسيماً، فقال رسول الله ﷺ حين طلع عامر: أترونه خمسة أذرع؟ وهو يدعو إلى البراز، يخطر بسيفه وعليه درعان مقنّع في الحديد يصيح: من يبارز؟ فأحجم الناس عنه فبرز إليه علي فضربه ضربات، كل ذلك لا يصنع شيئاً، حتى ضرب ساقيه فبرك، ثم دَفَفَ^(٢) عليه فأخذ سلاحه.

فلما قتل الحارث ومرحب وأسير وياسر وعامر، مع ناس من اليهود كثير^(٣) ولكن إنما سمّى هؤلاء المذكورون، لأنهم كانوا أهل شجاعة، وكانوا هؤلاء جميعاً في حصن ناعم.

ولما رمى محمود بن مسلمة من حصن ناعم، حمل إلى الرجيع (معسكر الجيش) فمكث ثلاثة أيام يموت، وكان الذي دلى عليه الرحا مرحب، فجعل محمود يقول لأخيه محمد: يا أخي! بنات أخيك لا يتبعن الأفياء^(٤) يسألن الناس، فيقول محمد بن مسلمة: لو لم تترك مالاً لكان مالي لهم مال، ومحمود كان أكثرهما مالاً. ولم تنزل يومئذ فرائض البنات - فلما كان اليوم الذي مات فيه محمود بن مسلمة، وهو اليوم الذي قتل فيه مرحب، فقال

(١) يحوشهم: أي يسوقهم (كذا في الصحاح).

(٢) تذفيف الجريح: الإجهاز عليه، قاله ابن الأثير في النهاية.

(٣) هنا سقط واضح يظهر أنه حدث من النساخ، فالجملة غير كاملة. ويظهر أنه أراد أن يقول: فلما قتل الحارث ومرحب..

الخ ضعفت مقاومة اليهود واستولى المسلمون على حصن ناعم أو كلاماً هذا معناه.

(٤) الأفياء: جمع فيء وهل ظل الجدار وما شابهه.

رسول الله ﷺ: من يبشر محمود بن مسلمة أن الله قد أنزل فرائض البنات، وأن محمد بن مسلمة قد قتل قاتله فخرج جعالة بن سراقه إليه فأخبره، فسر بذلك، وأمره أن يقرئ رسول الله ﷺ السلام منه، قال: فأقرأته من رسول الله ﷺ، وقال: محمود لا أراه يذكرني؟؟ وكان رسول الله ﷺ يبيت في الرجيع^(١) فمات (أي محمود) خلافه، فلما رجع رسول الله ﷺ إلى منزله، وقد جرحَ عامر بن (سنان) بن الأكوع نفسه، حمل إلى الرجيع فمات، فقبر عامر معه في غار، فقال محمد (بن مسلمة): أقطع لي^(٢) عند قبر أخي، قال ﷺ: لك حُضْر^(٣) الفرس، فإن عملت فلك حُضْر فرسين^(٤). أهـ.

اليهودي الذي طلب الأمان فأعطيه: وقرب انهيار مقاومة اليهود في حصن ناعم وبينما كان عمر بن الخطاب يقوم بأعمال الدورية ليلاً (والمسلمون على وشك اقتحام حصن ناعم) ألقى رجاله من الحرس (حول المعسكر) القبض على رجل من اليهود فأتى به إليه، فأمر به عمر أن تضرب عنقه، ظناً منه أنه جاسوس لليهود، ولكن اليهودي قال لابن الخطاب: اذهب بي إلى نبيكم حتى أكلمه، فأمسكه عمر، وانتهى به إلى باب رسول الله ﷺ فوجده يصلي، فدخل عليه به، فقال ﷺ لليهودي: ما وراءك؟ ومن أنت؟ قال: تؤمّي يا أبا القاسم وأصدقك؟ فقال ﷺ: نعم. فقال اليهودي (واسمه سمّك)^(٥): خرجت من حصن النطاطة^(٦) من عند قوم ليس لهم نظام، تركتهم يتسللون من الحصن في هذه الليلة. فقال رسول الله ﷺ لليهودي: فأين يذهبون؟ قال: إلى أذل إلى الشق^(٧) وقد رعبوا منك حتى أن أفئدتهم لتخفق، وهذا حصن اليهود فيه السلاح والطعام والودك^(٨) وفيه آلة

(١) سبق أن رسول الله ﷺ قد غير مقر قيادته واتخذ من وادي الرجيع معسكراً لجيشه ومركزاً لإسعاف الجرحى.

(٢) أقطعها الحاكم أرضاً منحه إياها دون مقابل.

(٣) حُضْر الفرس (بضم الحاء وسكون الضاد) المسافة التي يقطعها الفرس جرياً في شوط واحد.

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٥٢ - ٦٥٨.

(٥) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٤٧.

(٦) المراد به - على ما يظهر حصن ناعم لأنه أحد حصون النطاطة حي من أحياء خيبر جعله اليهود منطقة عسكرية لمكانه الاستراتيجي وحصونه المتينة في قمم الجبال.

(٧) الشق: منطقة محصنة ذوات حصون تقع أيضاً في القسم الأول من مدينة خيبر.

(٨) هذا الحصن هو (حسب سياق المؤرخين) حصن الصعب بن معاذ الذي كان ثاني حصن فتحه المسلمون بعد حصن ناعم، قال في السيرة الحلبية. (ج ٢ ص ١٦٤): وما بخيبر حصن به من التمر والودك والسكر والسمن والشعير والشحم والماشية والمتاع مثل حصن الصعب بن معاذ وهو من حصون النطاطة ويليه حصن (قلة).

حصونهم التي كانوا يقاتلون بها بعضهم بعضاً، قد غيبوا ذلك في بيت من حصنهم (أي حصن الصعب) تحت الأرض، قال رسول الله ﷺ لليهودي: وما هو؟ قال منجنيق مفككة ودبابتان وسلاح من دروع وبيض وسيوف^(١). فإذا دخلت الحصن غداً (وأنت تدخله) قال رسول الله ﷺ: إن شاء الله، قال اليهودي: إن شاء الله.. أوقفك عليه (أي مستودع الأسلحة السري) فإنه لا يعرفه أحد من اليهود غيري، ثم قال اليهودي: وأخرى! قيل ما هي قال: تستخرجه (أي السلاح)، ثم انصب المنجنيق على حصن الشق وتدخل الرجال تحت الدبابتين فيحفرون الحصن فتفتحه من يومك، وكذلك تفعل بحصن الكتيبة^(٢).

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! إنني أحسبه قد صدق، فقال اليهودي: يا رسول الله! أحقن دمي، فقال ﷺ: أنت آمن، قال: ولى زوجة في حصن النزار فهبها لي، قال ﷺ: هي لك، ثم سأل رسول الله ﷺ سماك اليهودي هذا: ما لليهود حولوا ذرارهم من النظاة؟ قال: جرّدها للمقاتلة، وحوّلوا الذراري إلى الشق والكتيبة.

قالوا ثم دعا رسول الله ﷺ اليهودي سماك إلى الإسلام، فقال: أنظرني أياماً، ففعل ﷺ. الوفاء لليهودي بالعهد: وترك النبي ﷺ اليهودي سماك وشأنه حراً، وانشغل ﷺ بإدارة دفة المعارك، وعندما وضعت الحرب أوزارها واستولى المسلمون على جميع حصون خيبر، وكان آخرها حصن (النزار)، أسلم اليهودي سماك، بعد أن وفى له النبي ﷺ بما وعده، فأعطاه زوجته وأسمها (نفيلة) وكانت مع نساء اليهود وذرارهم في حصن (النزار)، قال كعب بن مالك: رأيت اليهودي سماك يأخذ بيد امرأة حسناء (وهي امرأته نفيلة)^(٣).

عدد الخسائر: وهكذا بعد معارك شديدة كانت سجلاً بين المسلمين واليهود حول حصن ناعم تمكن المسلمون في النهاية بقيادة علي بن أبي طالب من اقتحام هذا الحصن والاستيلاء عليه.

(١) استولى المسلمون على كل هذه الآلات الحربية وغنموها عندما فتحوا حصن الصعب كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

(٢) الكتيبة (بفتح الكاف) إحدى مناطق خيبر الغنية بالزراعة وفوقها حصون حربية لليهود. ويظهر أنها تقع في الشطر الثاني

من مدينة خيبر الذي استسلم أهله للمسلمين بدون قتال، وبعد حصار شديد.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٩ ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٤٦ - ٦٤٨.

وتدل لهجة المؤرخين كما تقدم - على أن القتال حول حصن مرحب وهو (حصن ناعم) أعنف قتال دار بين المسلمين واليهود، وقد دام هذا القتال حول الحصن أكثر من خمسة عشر يوماً لاقى المسلمون فيها مقاومة عنيدة شرسة بلغت إلى حد قيام اليهود المدافعين عن هذا الحصن بعدة هجمات مضادة هزموا المسلمين فيها حتى وصلوا حيث يعسكر القائد الأعلى النبي ﷺ، الأمر الذي أزعجه كما تقدم، وجعله يحض المسلمين على الجهاد ويُبدل القائد الذي كان يتولى قيادة الجند المكلف بفتح حصن مرحب.

ومن هنا يمكن القول: أن تمكن المسلمين بقيادة علي بن أبي طالب من فتح حصن ناعم جعل جيش الإسلام يدخل إلى النصر على اليهود في خير من أوسع أبوابه. فاليهود وإن لم يستسلموا كلياً بعد سقوط حصن (ناعم) إلا أن انهزامهم وفشلهم في الاحتفاظ بهذا الحصن المنيع وقتل المسلمين أمامه لأشجع شجعان اليهود (وهم.. مرحب.. وأخويه.. ياسر.. والحارث.. وعامر) ضعضع من معنويات يهود خيبر، وجعلهم يكادون يفقدون الثقة بأنفسهم بعد أن بلغت هذه الثقة إلى حد الغرور والاستهانة بقوات المسلمين كما رأينا في أول القتال حيث فتح اليهود باب حصن ناعم، وحلوا على المسلمين حتى طاردوهم إلى حيث يقف النبي ﷺ وهيئة أركان قيادته. وبالرغم من إجماع المؤرخين على أن القتال كان عنيفاً، ودام طويلاً أمام (حصن ناعم) إلا أن أحداً لم يذكر عدد القتلى (تحديداً) من الجانبين، وإن كان جاء ذكر القادة اليهود الخمسة الذين صرعوا مبارزة أمام الحصن وكلهم من الحميريين قوم مرحب (وهم مرحب، وياسر والحارث وعامر وأسير) وذكر ثلاثة من شهداء المسلمين وهم (محمود بن مسلمة وعامر بن سنان بن الأكوع والعبد الحبشي) إلا أن هذا لا يعني أن هؤلاء القتلى من الفريقين هم (فقط) حصيلة معارك (حصن ناعم)، بل إن القرائن لتدل على أن القتلى بين الفريقين أكثر من ذلك، بدليل أن خمسين من المسلمين أصيبوا (في اليوم الأول من القتال) بجراحات مختلفة نقلوا على أثرها إلى مركز الإسعاف في معسكر الرجيع^(١).

كما أن اليهود في اليوم الذي اقتحم فيه المسلمون حصن مرحب (حصن ناعم) قد دافعوا عن الحصن دفاعاً عنيداً، مما يجعل الإصابة بينهم كثيرة.

(١) انظر: إمتاع الأسماع للمقرئ ص ٣١٢.

الغنائم والمعدات: كذلك عند وصف استيلاء المسلمين على (حصن ناعم) لم يشر أحد من المؤرخين إلى مبلغ الغنائم وكميات السلاح التي استولى عليها المسلمون عند فتحهم هذا الحصن الذي يعتبر أقوى وأمنع حصن في خيبر.

ويمكن القول أن المسلمين لم يحصلوا على شيء يُذكر لأن اليهود تحسباً للطوارئ (كما سيأتي) نقلوا النساء والذرية إلى حصن النزار أحصن وآخر حصون الشطر الأول من خيبر.

* * *

فتح حصن الصعب

كان حصن (الصعب بن معاذ) من حصون النبط، المنطقة الواقعة في القسم الأول من مدينة خيبر.

ويعتبر هذا الحصن: الحصن الثاني من حيث القوة والمناعة والتحصين، بعد حصن مرحب (حصن ناعم) الذي سيطر عليه المسلمون في المرحلة الأولى من المعركة. وكان قادة اليهود عندما رسموا خطة الدفاع عن خيبر، وقرروا ضمن خطتهم أن يكون حصن مرحب (المسمى بحصن ناعم) خط الدفاع الأول لمكانه الاستراتيجي، نقلوا منه (قبل وصول المسلمين) النساء والأطفال وكل أموالهم إلى حصن النزار ولم يتركوا في حصن (ناعم) سوى حملة السلاح الذين عليهم أن يدافعوا عن الحصن.

وذلك ليسهل عليهم الانسحاب من حصن ناعم إلى خط الدفاع الثاني (حصن الصعب بن معاذ) ولتكون نساؤهم وذرايرهم وأموالهم في مأمن إذا ما قدر للمسلمين أن يستولوا على حصن ناعم. وفعلاً، فإن مقاومة اليهود عندما انهارت وعجزوا عن صد هجوم المسلمين على حصن ناعم، تمكنوا بكل سهولة من الانسحاب إلى خط الدفاع الثاني (حصن الصعب بن معاذ) ويدلنا على ذلك أن أحداً من اليهود لم يقع في أسر المسلمين، أثناء معارك حصن ناعم، فلم أر فيما بين يدي من مصادر التاريخ أن أسيراً واحداً من اليهود قد وقع في أيدي المسلمين.

محاصرة حصن الصعب: وبعد أن تمكن المسلمون من الاستيلاء على حصن ناعم (بقيادة علي بن أي طالب) وتحول اليهود إلى خط الدفاع الثاني (حصن الصعب بن معاذ) وجّه المسلمون هجومهم على الحصن فضربوا عليه الحصار تمهيداً لاقتحامه وفتحه.

النبى يعطي الراية الحباب بن المنذر: وكما أعطى النبي ﷺ الراية وقياة المحاربين لعلي بن أبي طالب للقيام بمهمة فتح حصن ناعم أعطى الراية وقياة الجيش للحباب بن المنذر الأنصاري للقيام بالهجوم على حصن الصعب بن معاذ فتولى أمر الهجوم حتى فتحه^(١).
الجماعة في بعض وحدات الجيش: وقد حدث نقص خطير في المواد الغذائية بين عدة كتائب من الجيش الإسلامي إلى حد الجماعة نتيجة طول الحصار وشراسة اليهود في القتال أثناء الدفاع عن الحصون التي كانوا يعتصمون بها.

(١) إمتاع الأسماع ص ٣١٦ وما بعدها.. والسيرة الحلبية ج ٢.

قال معتب الأسلمي: أصابنا معشر أسلم خصاصة^(١) في خير فأقمنا عدة أيام على حصن النطاة، لا نفتح شيئاً فيه^(٢) طعام، فأجمعت أسلم أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ أسماء بن حارثة، فقالوا: إيت محمداً رسول الله ﷺ فقل له: إنا قد جهدنا من الجوع والضعف، فجاء أسماء بن حارثة فقال: يا رسول الله، إن أسلم^(٣) تقول: إنا قد جهدنا من الجوع والضعف فداع الله لنا، فدعا لهم رسول الله ﷺ، ثم قال: والله ما بيدي ما أقرئهم^(٤) ثم صاح فقال: اللهم افتح عليهم أعظم حصن فيه، أكثره طعاماً وأكثره ودكاً^(٥) وقالت أم مطاع^(٦) الأسلمية - وكانت قد شهدت خيبر مع رسول الله ﷺ - قالت: لقد رأيت أسلم حين شكوا إلى رسول الله ﷺ من شدة الحال فندب الناس، فنهضوا، فرأيت أسلم أول من انتهى إلى حصن الصعب بن معاذ، وإن عليه لخمسمائة مقاتل فما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى فتحه الله، وكان عليه قتال شديد، برز رجل من اليهود يقال له: يوشع يدعو إلى البراز، فبرز إليه الحباب بن المنذر، فاختلفا ضربات، فقتله الحباب، وبرز آخر يقال له: الديال، فبرز له عمارة بن عقبة الغفاري^(٧) فيضربه ضربة على هامته، وهو يقول خذها وأنا الغلام الغفاري فقال الناس: بطل جهاده، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: ما بأس به يؤجر ويحمد^(٨).

النهبي عن لحم الحمر الأهلية: وقد بلغ الجوع ببعض وحدات جيش الإسلام بعد أن نفذت مواده الغذائية نتيجة طول الحصار، بلغ الجوع ببعض هذه الوحدات إلى أن يذبحوا الحمير ليأكلوها.. فقد قال رهم الغفار: أصابنا جوع شديد، ونزلنا خير زمان البلح،

(١) الخصاصة: شدة الفقر.

(٢) حصن ناعم من حصون النطاة، فتحه المسلمون، ولكن ليس به أية مواد غذائية.

(٣) أسلم: قبيلة مشهورة، وهي أسلم بن أقصى بطن من خزاعة من القحطانيين تقع منازلهم قريباً من المدينة.

(٤) أقرئهم: أطعمهم.

(٥) الودك: الشحم.

(٦) قال في الإصابة: أم مطاع الأسلمية قال أبو عمر (ابن عبد البر): مدنية حديثها عند عطاء ابن أبي مروان عن أبيه عنها، قال: وروى عنها أنها شهدت خيبر مع رسول الله ﷺ فأسهم لها كسهم رجل وفي ذلك نظر، وشهدها خير صحيح، انتهى.

(٧) هو عمارة بن عقبة بن حارثة الغفاري، ذكره ابن إسحاق فيمن استشهد يوم خيبر، كذلك ذكره ابن عبد البر.

(٨) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٠، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٥، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٢، والسيرة الحلبية

وهي أرض وخيمة حارة شديد حرها، فبينما نحن محاصرون (حصن الصعب بن معاذ) فخرج عشرون حماراً أو ثلاثون، فلم يقدر اليهود على إدخالها، وكان حصنهم له منعة، فأخذها المسلمون فانتحروها وأوقدوا النيران وطبخوا لحومها في القدور، والمسلمون جوع، ومرّ بهم رسول الله ﷺ وهم على تلك الحال، فسأل فأخبر فأمر منادياً ينادي: (إن رسول الله ﷺ ينهاكم عن الحُمُرِ الإنسية - قال: فكفوا القدور - وعن متعة النساء وعن أكل ذي ناب ومخلب).

أما لحوم الخيل فقد أذن فيها^(١).

وكان أبو اليسر^(٢) يحدث أنهم حاصروا حصن الصعب بن معاذ ثلاثة أيام، وكان حصناً منيعاً، وأقبلت غنماً لرجل من اليهود ترتع وراء حصنهم، فقال رسول الله ﷺ: من يطعمنا من هذه الغنم؟ فقلت: أنا يا رسول الله، فخرجت أسعى مثل الطي، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ مولياً قال: اللهم متعنا به! قال: فأدرت الغنم، وقد دخل أولها الحصن فأخذت شاتين من آخرها فاحتضنتها تحت يدي، ثم أقبلت أعدو كأن ليس معي شيء، حتى أتيت بهما رسول الله ﷺ فأمر بهما فدُجِتا، ثم قسمهما فما بقي أحد من أهل العسكر الذين هم معه محاصرين الحصن إلا أكل منها، فقيل لأبي اليسر: وكم كانوا؟ قال: كانوا عدداً كثيراً فيقال: أين بقية الناس؟ فيقول في الرجيع بالمعسكر، فسمع أبو اليسر - فيما بعد وقد كبر وصار شيخاً كبيراً - وهو يبكي في شيء غاظه من بعض ولده، فقال: لعمرى بقت بعد أصحابي ومتعوا بي وما أمتع بهم؟! لقول رسول الله ﷺ: اللهم متعنا به، فبقي فكان من آخرهم.

عدد المدافعين عن حصن الصعب: كان حصن الصعب (الذي تحوّل إليه اليهود من حصن ناعم) يتولى الدفاع عنه وحده خمسمائة مقاتل^(٣) من اليهود بقيادة قائدين منهم، أحدهما يقال له (الدّيال) والثاني يقال له (يوشع).

(١) وقد أباح ابن عباس أكل لحم الحمر الأهلية، انظر البداية والنهاية ج ٢ ص ١٩٢، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٠، وصحيح البخاري ج ٥ ص ٢٨١ وما بعدها.

(٢) أبو اليسر (بفتحين) اسمه كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن سواد الأنصاري. شهد العقبة وبدراً وله في بدر بطولات كبيرة، هو الذي أسر العباس بن عبد المطلب (عم النبي ﷺ) يوم بدر، مات بالمدينة سنة خمس وخمسين، قال ابن إسحاق: وكان آخر من مات من الصحابة، قال ابن حجر في الإصابة: كأنه يعني أهل بدر، روى عنه عبادة بن الوليد بن عبادة الصامت، وحديثه مطول وأخرجه مسلم.

(٣) السيرة الخليلي ج ٢ ص ٦٤، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٠.

كان حصن الصعب منيع الأسوار عالي الأبراج وكان مشحوناً بالمقاتلة اليهود وبينهم رماة بالنبل على غاية من المهارة في إصابة الهدف.

المبارزة أمام الحصن: وذكر المؤرخون أن اليهود دافعوا عن حصن الصعب بن معاذ بشراسة وضراوة لا تقلان عن الضراوة والشراسة التي دافعوا بهما عن حصن (ناعم) بل كان دفاعهم عن حصن الصعب بن معاذ أشد وأقوى؛ لأنه كان يضم كثيراً من الأموال والعتاد الحربي وآلات حربية مختلفة.

وعندما أخذت قوات الإسلام مواقعها وضربت الحصار على اليهود في حصن الصعب، خرج كبير قادة اليهود على فرسه أمام الحصن وطلب المبارزة على الطريقة العربية التقليدية المعروفة، وكان اسم هذا القائد اليهودي (يوشع) فخرج لملاقاته حامل لواء جيش الإسلام والمكلف بقيادة الهجوم على الحصن، الحباب بن المنذر بن الجموح فنازله (مبارزة) وبعد كر وفر ومقارعة عنيفة بالسيوف تمكن قائد قوات المسلمين من قتل القائد اليهودي يوشع.

بعد مصرع القائد اليهودي يوشع غضب اليهود أشد الغضب، وفي الحال خرج قائد يهودي ثان هو (الديال) وركز رمحاً أمام الحصن وطلب من المسلمين المبارزة.

فخرج إليه عمارة بن عقبة الغفاري فجرت المطاردة منهما على فرسيهما كل يريد القضاء على قرينه وبعد مبارزة شاقة حمل عمارة بن عقبة الفارس على الديال حملة صادقة فسدد إليه ضربة من سيفه فكانت القاضية.

وكان تمكن المسلمين من قتل القائدين اليهوديين الكبيرين مبارزة أمام حصن الصعب بداية سيئة لليهود المدافعين عن الحصن.

معركة التراشق بالسهم: وقد استشاط اليهود غضباً لمصرع قائديهم (يوشع والديال) فقاموا بهجوم عنيف معاكس على المسلمين مهدوا له بقذف شديد من سهامهم التي صبوا كالمطر على المسلمين من أبراج الحصن، وقد ركز اليهود (أثناء قذفهم المسلمين بالسهم) على الموقع الذي يقف فيه القائد الأعلى النبي ﷺ بغية إصابته، وكان يهود خبير من أمهر رماة النبل.

وقد تساقطت نبال اليهود المصوّبة من مقاذف الحصن حول النبي ﷺ فأقام المسلمون من أنفسهم تُرساً^(١) حول النبي القائد ﷺ الذي كان راكباً جواده يرقب المعركة.. وذلك حماية لذاته الشريفة من أن يصيبها شيء من سهام اليهود التي أرسلوها نحوه كالمطر طمعاً منهم في أن يتمكنوا من قتله.

وكان المسلمون يردون على قذف اليهود بقذف مثله من نبالهم، ولكن أثر رمي المسلمين على اليهود ليس كأثر رميهم على المسلمين، لأن اليهود كانوا يتسترون وراء أسوار وجدران حصنهم بينما كان المسلمون مكشوفين لليهود أمام الحصن. ولم يذكر أحد من المؤرخين أن سهام اليهود قد أصابت أحداً من المهاجرين المسلمين غير أنه من المحتمل جداً أن تكون هناك إصابات بينهم نتيجة قذفهم بالسهم من الحصن، وقد ذكر بعض المؤرخين^(٢) أن عدداً من المسلمين سقطوا قتلى قبل افتتاح الحصن، ولم يذكر هل قتلوا بنبال اليهود أم بطريقة أخرى.

هجوم اليهود المضاد: وبعد معركة التراشق بالسهم وانتصار المسلمين في عمليات المبارزة أمام حصن الصعب شدّد المسلمون من حصارهم حول الحصن وحاولوا اقتحامه بهجوم عام إلا أنهم قوبلوا من قبل اليهود المدافعين عن الحصن بمقاومة عنيفة حالت بينهم وبين اقتحام الحصن.

بل إن اليهود بلغ بهم الاستبسال والشراسة في الدفاع عن حصن الصعب إلى أن يفتحوا أبواب هذا الحصن ويقوموا بهجوم مضاد كاسح عنيف كشفوا به قوات المسلمين وهزموها وطاردها حتى المكان الذي يقف فيه النبي القائد ﷺ وكادوا في هجومهم المضاد يصلون إلى النبي ﷺ إلا أنه ﷺ ثبت مكانه كعادته في مثل هذه المواقف الحرجة وأخذ يثبت المسلمين أمام هجوم اليهود الكاسح ويخصّهم على الجهاد حتى أن الرسول ﷺ عندما انهزم المسلمون (ما عدا قائدهم الحباب بن المنذر) أمام هجوم اليهود الكاسح - نزل ﷺ من على فرسه كأنه يوطن المسلمين على الثبات، وأمام نداءات الرسول ﷺ الموجهة إلى أصحابه بأن يثبتوا ويواجهوا اليهود المهاجرين مواجهة المجاهد الصابر المحتسب، عاد إلى هؤلاء الأصحاب المنهزمين رشدهم فعادوا إلى ميدان القتال وأخذوا يتحلقون حول نبيهم الأعظم ﷺ الذي كان يلقي عليهم الدروس - عملياً - كيف يكون الثبات ساعة الكرب والشدّة؟ وبهذا صمدوا في وجه هجوم اليهود الكاسح فأوقفوه فاضطر اليهود إلى

(١) الترس (بضم التاء) آلة يتستر بها المحارب أثناء القتال.

(٢) المقرئ في كتابه إمتاع الأسماع.

أن يعودوا إلى حصنهم ويغلقوا الأبواب على أنفسهم بعد أن تركوا عدداً من قتلاهم في الميدان. لكنهم أخذوا يرمون بالحجارة^(١).

وكان قائد المسلمين في حرب (حصن الصعب بن معاذ) الحباب بن المنذر قد ثبت مكانه يقاتل اليهود بشراسة وثبات عندما انكشف رجاله أمام هجوم اليهود المضاد، ولهذا فإن المسلمين المنهزمين عندما ثبتوا بعدما رفع الرسول ﷺ من روحهم المعنوية بثباته مكانه وحضهم على الجهاد جمعوا صفوفهم وعادوا من جديد إلى التجمع خلف قائدهم الحباب بن المنذر الذي قام بتنظيمهم في الحال ثم شنّ بهم في نفس الوقت هجوماً عنيفاً على حصن الصعب بغية اقتحامه فطارد اليهود حتى أدخلهم حصنهم الذي أغلقوا أبوابه.

ولكنه لقي من اليهود مقاومة عنيدة حالت بينه وبين اقتحام الحصن، فقد اقترب المسلمون من أسوار الحصن في هجومهم، ولكن اليهود أطلقوا عليهم سيولاً جارفة من سهامهم، كما قذفوهم من أسوار الحصن قذفاً شديداً بالحجارة التي أعدوها لمثل ذلك الموقف.. فتراجع المسلمون عن الحصن أمام انهيار السهام والحجارة التي سلطها عليهم المدافعون عن الحصن.

الهجوم اليهودي المعاكس مرة أخرى: واغتنم اليهود فرصة تباعد المسلمين المهاجمين عن أسوار الحصن فشنوا في الحال على المسلمين هجوماً معاكساً ثانياً كان أعنف من الهجوم الأول، حيث فتحوا أبواب حصنهم وحملوا على المسلمين حملة منكرة، ولكن المسلمين هذه المرة ثبتوا مع قائدهم (الحباب) وقابلوا هجوم اليهود بهجوم مضاد آخر، فدارت أمام الحصن معركة طاحنة استمات فيها الفريقان وقد سقط في هذا القتال من المسلمين عدد من القتلى، ولكن النصر كان في النهاية لهم حيث تمكنوا من صد هجوم اليهود، فدحروهم حتى ولّوا منهزمين فدخلوا حصنهم وأغلقوا على أنفسهم الأبواب.

قال المقرئ في كتابه (إمتاع الأسماع ص ٣١٧): ولما أقام المسلمون على حصن الصعب يومين عدا بهم الحباب بن المنذر في اليوم الثالث ومعه الراية فقاتلهم أشد قتال، وبكر رسول الله ﷺ فتراموا بالنبل، وقد ترّس المسلمون على رسول الله ﷺ ثم حملت اليهود حملة منكرة، فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ، وهو واقف قد نزل عن فرسه ومدعم^(٢) يمسك الفرس، وثبت الحباب برايته يراميه على فرسه.

(١) مغازي الواقدى ٦٦٢.

(٢) مدعم: اسم أحد موالى النبي.

فندب رسول الله ﷺ وحضهم على الجهاد فأقبلوا حتى زحف بهم الحباب، واشتد الأمر فانهمزمت اليهود وأغلقوا الحصن عليهم، ورموا على جدره بالحجارة رمياً كثيراً، فتباعد عنهم المسلمون، ثم كرّوا فخرجت اليهود وقاتلوا أشد قتال، فقتل ثلاثة من المسلمين ثم هزمهم الله تعالى.

قال الواقدي: حدثني خالد بن إلياس عن جعفر بن محمود بن محمد عن محمد بن مسلمة قال: كنت فيمن ترس عن النبي ﷺ، فجعلت (عند اشتداد هجوم اليهود) أصيح بأصحابه: تراموا بالجحف! ففعلوا، فرمونا (أي اليهود) حتى ظننت أن لا يقلعوا، فرأيت رسول الله ﷺ رمى بسهم فما أخطأ رجلاً منهم، وتبسم إلى رسول الله ﷺ وانفرجوا ودخلوا الحصن.

وحدث الواقدي أيضاً عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال «يصف القتال العنيف أمام حصن الصعب بن معاذ»: لما انتهينا إلى حصن الصعب بن معاذ وغزا بنا الحباب بن المنذر بن الجموح، ومعه رايتنا وتبعه المسلمون، وقد أقمنا على حصن الصعب يومين نقاتلهم أشد القتال، فلما كان اليوم الثالث بكر رسول الله ﷺ فخرج رجل من اليهود (من الحصن) كأنه الدقل^(١).

وخرج وعاديته^(٢) معه فرموا بالنبل ساعة سراعاً، وترسنا عن رسول الله ﷺ وأمطرونا بالنبل، فكأن نبلهم الجراد، حتى ظننت أن لا يقلعوا، ثم حملوا حملة رجل واحد، فانهمزمت المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ، وهو واقف، قد نزل عن فرسه، ومدعم (مولاه) يمسك فرسه، وثبت الحباب رايتنا، والله ما يزال يراميهم على فرسه.

وندب رسول الله ﷺ وحضهم على الجهاد ورغبهم فيه، وأخبرهم أن الله قد وعده خيبر يغنمه إياها، قال: فأقبل الناس جميعاً حتى عادوا إلى صاحب رايتهم، ثم زحف بهم الحباب، فلم يزل يدنوا قليلاً قليلاً، وتراجع اليهود على أدبارهم حتى لحمها الشر فانهمزمت سراعاً ودخلوا الحصن وغلقوا عليهم، ووافوا على جدُر - وله جدر دون جدر - (أي سور خلف سور) فجعلوا يرموننا بالجنديل^(٣) رمياً كثيراً، ونحونا عن حصنهم بوقع الحجارة حتى رجعنا إلى موضع الحباب الأول.

(١) الدقل بفتح أوله وثانيه: سارية طويلة من الخشب يمد ويربط عليها شراع السفينة، وقد شبه الفارس اليهودي بالدقل لطول جسمه.

(٢) العادية هم مشاة من الحرس يعدون أمام القائد وتلك عادة عند اليهود وبعض الأمم الأخرى كالأحباش، يتبعونها للتدليل على الأبهة والعظمة، حتى ولو لم يكونوا في حالة حرب، ترى هؤلاء المشاة يجرون أمام دابة القائد أو الحاكم.

(٣) الجنديل: الصخر.

ثم إن اليهود تلاومت بينها، وقالت: ما نستبقى لأنفسنا؟ قد قتل أهل الجد والجلد في حصن ناعم، فخرجوا مستميتين ورجعنا إليهم فاقتلنا على باب الحصن أشد قتال. وقتل يومئذ ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ - أبو صياح، وقد شهد بدرًا، ضربه رجل منهم بالسيف فأطن قحف^(١) رأسه، وعدي بن مرة بن سراقه، طعنه أحد اليهود بالحربة بين ثديه فمات، والثالث، الحارث بن حاطب وقد شهد بدرًا، رماه رجل من الحصن فدمغه، وقد قتلنا منهم على الحصن عدة، كلما قتلنا منهم رجلاً حملوه حتى يدخلوه الحصن.

مصرع سلام بن مشكم: وفي معارك حصون النطاة لقي سلام بن مشكم أحد سادات اليهود من بني النضير وزوج زينب بنت الحارث أخي مرحب التي دسّت السم للنبي ﷺ في الشاة بغية قتله - كما سيأتي تفصيله إن شاء الله - لقي سلام هذا مصرعه أثناء القتال بين المسلمين واليهود في النطاة.

وبالرغم من إشارة المؤرخين إلى أن سلام بن مشكم كان القائد العام لقوات اليهود المحاربة في منطقة النطاة التي شهدت أعنف المعارك بين المسلمين واليهود، وبالرغم من الإشارة إلى أن هذا القائد اليهودي الكبير قد لقي مصرعه في معارك النطاة، فإن أحداً من المؤرخين - فيما بلغني - لم يذكر أن القائد (سلام بن مشكم) قد كان له أي دور حربي يُذكر، بالرغم من أنهم أكدوا أنه قتل في معارك النطاة. إلا أن أحدهم (وهو الإمام الواقدي) قد أعطى تفسيراً لعدم مباشرة سلام بن مشكم القتال (كزملائه من قادة يهود النطاة مثل مرحب وياسر والحارث وأسير ويوشع) وهو أنه كان مريضاً، وبالرغم من مرضه المقعد، لم يترك النطاة حتى قتل، بالرغم من نصح أصحابه له بأن يهرب إلى منطقة (الكتيبة) ليكون في مأمن، لأن خبراء اليهود كانوا يتوقعون أن أهل الكتيبة لن يقاتلوا المسلمين بل سيصالحونهم.

(١) القحف بكسر أوله وسكون ثانيه: العظم الذي فوق الدماغ.

قال الواقدي: قال عبد الله: سألت إبراهيم بن جعفر عن قول زينب ابنة الحارث «للنبي ﷺ»: قتلت أبي^(١)، قال: قُتِلَ يومَ خيبر أبوها الحارث، أشجع اليهود، وأخوه زبير قتل يومئذ، فكان زوجها سيدهم وأشجعهم (سلام بن مشكم) مريضاً، وكان في حصون النطاة، فقيل له: إنه لا قتال فيكم، فكن في الكتيبة، قال: لا أفعل أبداً، فقتل وهو مريض، وهو (أي سلام بن مشكم) أبو الحكم الذي يقول فيه الربييع بن أبي الحقيق:

ولما تداعوا بأسيا فهم فكان الطعان دعونا سلاما
وكنا إذا ما دعونا به سقينا سراً العدو السامام

وهو (أي سلام بن مشكم) صاحب حربهم (أي قائدهم الحربي الأعلى) ولكن الله شغله بالمرض^(٢).

انهزام اليهود وفتح الحصن: وبالرغم من أن يهود المدافعين عن حصن الصعب بن معاذ أغلقوا الأبواب عند تراجعهم أمام الحباب بن المنذر ورجاله، إلا أن الاضطراب قد عمهم، وأخذت معنوياتهم في الانهيار، ولحظ ذلك قائد الهجوم على الحصن (الحباب بن المنذر) فاغتنم فرصة اضطراب اليهود وتدني معنوياتهم، فرسم في الحال خطة لاحتحام حصن الصعب وفتحه.

وبموجب هذه الخطة شنَّ القائد الحباب برجاله هجوماً عاماً خاطفاً على الحصن، فاقتحموه وقاتلوا بضراوة حتى اقتحموه واستولوا على كل ما فيه من أسلحة وأرزاق، وكانت شيئاً عظيماً فرج الله به الضائقة التي كان يعاني منها الجيش الإسلامي الذي نفذت تمويناته بسبب طول إقامته محاصراً لحصون خيبر.

وقد سقطت قتلى كثيرون من اليهود الذين كانوا يدافعون عن حصن الصعب بن معاذ، كما وقع عدد منهم في الأسر.

معدات ثقيلة وأسلحة يستولي عليها المسلمون في حصن الصعب:

وبالإضافة إلى المواد الغذائية الكثيرة التي استولى عليها المسلمون في هذا الحصن، وجدوا - تحت الأرض مدفوناً - آلات حربية وأسلحة كثيرة مختلفة، بينها دروع وسيوف ومنجنقات «وهي آلات قاذفة مهمتها تدمير القلاع والحصون» كما وجدوا من الآلات الحربية دبابات (وهي آلات من الحديد على شكل صفائح كبيرة العرض والطول تصنع ليتقدم خلفها الجنود لتحميهم من السهام والحرايب عندما يريدون مهاجمة حصن أو قلعة لفتحها).

(١) سيأتي تفصيل قصة دس هذه اليهودية السم للرسول ﷺ.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٨٠.

والدبابات آلات واقية متطورة لا تستعملها في تلك العصور إلا الجيوش الرومانية والفارسية لكونها أرقى الجيوش تنظيماً في العالم آنذاك.

ولا يدري أحد كيف حصل يهود خيبر على هذه الدبابات التي لا يعرف أن أحداً كان يصنعها أو يستعملها في جزيرة العرب في ذلك الوقت أو قبله.

ولا يستبعد أن يكون يهود خيبر قد جلبوها من الشام أو أنهم كانت لهم خبرة بصنعها فصنعوها محلياً في خيبر عندما شعروا بخطر الغزو الإسلامي.

ثم إن الذي يثير سؤالاً آخر هو أن الدبابات التي غنمها المسلمون من يهود حصن الصعب هي آلات هجومية تستخدم في الهجوم على المدن والقلاع، فهل كان اليهود يعدون العدة لغزو المدينة فأعدوا هذه الدبابات ليستخدموها في الهجوم على المدينة؟

إن الجواب على هذا السؤال (بنعم) هو التفسير الصحيح لوجود هذه الدبابات لدى اليهود في خيبر وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه الدبابات هي آلات هجومية بينما المعركة في خيبر بالنسبة لليهود هي معركة دفاعية لا تحتاج إلى هذه الدبابات.

آداب حربية نبوية: وعندما استولى المسلمون على حصن ابن معاذ نادى منادي النبي القائد ﷺ بمنع أخذ أي شيء من الغنائم قبل قسمتها ما عدا الضروري الذي يحتاجه الإنسان حينه فقال: (كلوا وأعلفوا ولا تحتملوا) - يعني لا تخرجوا به إلى بلادكم - فأخذوا من ذلك الحصن طعامهم وعلف دوابهم، ولم يمنع أحد من شيء، ولم يخمس^(١) ثم نقلت الغنائم والأسلاب إلى معسكر الجيش النبوي.

إراقة الخمر وكسر آنيتهما: وقد وجد المسلمون في حصن الصعب ضمن متروكات اليهود المنهزمين كميات كبيرة من الخمر المعتق فأمر النبي ﷺ بكسر آنيتهما وإراقتها.

وشرب رجل من الجند المسلمين من هذه الخمر يقال له: «عبد الله الخمار» فخفقه رسول الله ﷺ بنعليه وأمر من حضروه فخفقوه بنعالهم^(٢).

لا تلعنه: وقد لعن عمر بن الخطاب هذا الرجل لشربه الخمر فقال النبي ﷺ: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله. ثم راح عبد الله كأنه أحدهم فجلس معهم.

كما وجد الجيش في حصن الصعب آنية من نحاس وفخار كانت يهود تأكل فيها وتشرب فقال النبي ﷺ: اغسلوها واطبخوا وكلوا فيها، واشربوا^(٣).

(١) إمتاع الأسماع ص ٣١٨.

(٢) الخفق: هو الضرب الخفيف بالسوط أو النعل أو العصا.

(٣) إمتاع الأسماع ص ٣١٩.

وقد وصف الواقدي معركة حصن الصعب فقال: (فيما رواه عن أبي سبرة أحد الذين شهدوا فتح خيبر): ثم حمل صاحب رايتنا، وحملنا معه، وأدخلنا اليهود الحصن وتبعناهم في جوفه فلما دخلنا عليهم الحصن، فكأنهم غنم، فقتلنا من أشرف لنا ^(١)، وأسرنا منهم، وهربوا في كل وجه يركبون الحرّة ^(٢) يريدون حصن قلعة الزبير، وجعلنا ندعهم يهربون (أي أن عسكر الإسلام لم يتعقبوا اليهود المنهزمين من الحصن)، وصعد المسلمون على جدره، فكبروا عليه تكبيراً كثيراً، ففتتنا أعضاء اليهود بالتكبير، لقد رأيت فتیان أسلم وغفار فوق الحصن يكبرون، فوجدنا والله من الأطمعة ما لم نظن أنه هناك، من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودك.

ونادى منادى رسول الله ﷺ: كلوا واعلفوا ولا تحتملوا، يقول: لا تخرجوا به إلى بلادكم، فكان المسلمون يأخذون من ذلك الحصن مقامهم، طعامهم وعلف دوابهم، لا يُمنع أحد أن يأخذ حاجته، ولا يَحْمَسُ الطعام، ووجدوا فيه من البز والآنية، ووجدوا خوابي السكر ^(٣)، فأمروا فكسروها، فكانوا يكسرونها حتى سال السكر في الحصن، والخوابي ^(٤) كبار لا يطاق حملها، وكان أبو ثعلبة الخشني ^(٥) يقول: وجدنا فيه آنية من نحاس وفخار، كانت اليهود تأكل فيها وتشرب، فسألنا رسول الله ﷺ فقال: اغسلوها واطبخوا فيها واشربوا، وقال أسخنوا فيها الماء ^(٦) ثم اطبخوا بعد.. وكلوا واشربوا، وأخرجنا منه غنماً كثيراً، وبقراً وحُمراً، وأخرجنا منه آلات كثيرة للحرب، ومنجنيقاً ودبابات وعدة، فنعلم أنهم كانوا يظنون أن الحصار يكون دهرأ، فعجل الله خزيهم.

وحدثني عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، قال: لقد خرج من أطم ^(٧) من حصن الصعب ابن معاذ من البز عشرون عكماً محزومة من غليظ متاع اليمن، وألف وخمسمائة قطيفة، يقال قدم كل رجل بقطيفة على أهله، ووجد عشرة أحمال خشب، فأمر به فأخرج من الحصن ثم أحرق، فمكث أياماً يحترق، وخوابي سكر (بفتح أوله وثانيه) كسرت

(١) أشرف الشيء: برز وظهر.

(٢) الحرّة: هي الأرض ذات الحجارة السوداء التي كان رؤوسها أطراف سكاكين.

(٣) السكر (بفتح السين والكاف): هو الخمر بمختلف أنواعه.

(٤) الخوابي جمع خابية: جرار تصنع لتعتيق الخمر فيها.

(٥) ٦ تسخين الماء في الأواني مفيد من الناحية الطبية لأن الغليان يقتل جميع الميكروبات الضارة، ومن هنا أمر ﷺ

بتسخين الماء في الأواني قبل الأكل والشرب فيها خشية أن تكون موبوءة.

(٧) أطم الحصن (بضم أوله وثانيه): أعلاه.

وزقاق خمر^(١) فأهريقته وعمد يومئذ رجل من المسلمين فشرب من الخمر، فرفع إلى رسول الله ﷺ فكره حين رفع إليه، فخفقه بنعليه^(٢)، ومن حضره، فخفقه بنعالهم، وكان يقال له: عبد الله الخمار، وكان رجلاً، لا يصبر عن الشراب، قد ضربه رسول الله ﷺ مراراً، فقال عمر بن الخطاب: اللهم العنه! ما أكثر ما يضرب! فقال رسول الله ﷺ: لا تفعل يا عمر، فإنه يحب الله ورسوله، ثم راح عبد الله فجلس معهم كأنه أحدهم.

وقالت أم عمارة^(٣) (وكانت ممن حضر خيبر): لقد وجدنا في حصن الصعب بن معاذ من الطعام، ما كنت أظن أنه لا يكون بخيبر، جعل المسلمون يأكلون مقامهم شهراً وأكثر، من ذلك الحصن، فيعلفون دوابهم، ما يمنع أحد منهم، ولم يكن فيه خمس وأخرج من البزوز شيء كثير يباع في المقسم، ووجد فيه خرز من خرز اليهود، فليل لها: فمن الذي يشتري ذلك في المقسم؟ قالت: المسلمون واليهود الذين كانوا في الكتيبة فأمنوا، ومن حضر من الأعراب، فكل هؤلاء يشتري، فأما من يشتري من المسلمين، فإنما يجاسب به من المغنم. وقال الواقدي أيضاً: لما نظر عيينة بن حصن، إلى حصن الصعب بن معاذ، والمسلمون ينقلون منه الطعام والعلف والبز قال: ما أحد يعلف لنا دوابنا ويطعمنا من هذا الطعام، فقد كان أهله كراماً فشمته المسلمون^(٤) وقالوا: لك الذي جعل لك رسول الله ﷺ، ذو الرقية^(٥) فأسكت.

رجحان كفة المسلمين: وهكذا (وبسقوط حصن ناعم وحصن الصعب في أيدي المسلمين) ظهر رجحان كفة المسلمين في المعركة، وبدأ اليأس والجزع يتسربان إلى قلوب اليهود، وأخذت حالتهم المعنوية في الضعف، بعد أن كانوا لا يتصورون أن قواتهم (وهي أكثر من عشرة آلاف مقاتل) ستأخذ في التقهقر أمام جيش الإسلام الذي لا يزيد عدده على ألف وأربعمائة مقاتل، مكشوفين في العراء، أمام أبراج اليهود المشحونة بالآلاف الرماة الذين لا يجيد أحد الرمي بالنبل مثلهم، كما شهد بذلك الحباب بن المنذر.

(١) الزقاق: جمع زق وهي أوعية الخمر خاصة.

(٢) خفقه بالسيف ونحوه: ضربه ضرباً خفيفاً.

(٣) أم عمارة، اسمها نسبية بنت كعب كانت لها أدوار بارزة في الدفاع عن رسول الله يوم أحد، انظر ترجمتها في كتابنا (غزوة أحد).

(٤) أشرنا فيما مضى إلى أن النبي ﷺ عرض على عيينة بن حصن (قبل الهجوم) نصف ثمار خيبر شريطة أن يلتزم وغطفان قومه جانب الحياد، غير أن عيينة رفض هذا العرض، وأصر على مساندة يهود خيبر فتحرك بأربعة آلاف مقاتل من حيفاء في نجد لمناصرة اليهود، ولكنه وصل متأخراً حيث وجد المسلمون قد استولوا على خيبر، فأكلت قلبه الحسرة.

(٥) ذو الرقية: جبل مطل على خيبر، وكان ذكر إعطائه لعيينة سخريه به.

لقد كان حصن ناعم (حصن أشجع رجالات اليهود وهم من أسرة مرحب الحميريين المتهودين)، وحصن الصعب بن معاذ يعتبران أقوى خطوط الدفاع اليهودية الأمامية التي كانوا يعلقون على مناعتها وبسالة الرجال المرابطين وراء أسوارهما أعظم الآمال في صد هجمات الجيش النبوي، الذي ما كان قادة اليهود يشكون لحظة، بأن هذا الجيش سيطول به المقام أمام أسوار هذين الحصنين دون أن يتمكن من اقتحامهما، الأمر الذي - كما كان يهود خيبر يتصورون - يضطره للعودة من حيث أتى دون أن يحقق أي شيء من أهدافه.. ولكن الذي حدث كان مفاجأة مذهلة لليهود وأنصارهم، حيث تمكن الجيش الإسلامي من اقتحام هذين الحصنين الذين كان اقتحامهما بداية نهاية مقاومة اليهود في خيبر.

فرقة تطهير منطقة النطا: وتدلل تقارير المؤرخين على أن هناك حصوناً أخرى في النطا (غير حصني ناعم والصعب) إلا أن هذه الحصون ليست ذات أهمية من الناحية العسكرية.

ولهذا فإن قيادة الجيش الإسلامي لم تكلف نفسها بضرب الحصار على هذه الحصون، أو مهاجمتها، لأن تحريبات استخبارات الجيش النبوي أكدت أنه ليس بحصون النطا (ما عدا حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ وقلعة الزبير) ما يخشى منه على الجيش الإسلامي، حيث اتضح أن هذه الحصون خالية تقريباً من المقاتلين اليهود، ولم يكن بها تحصينات حربية تذكر.

ومع ذلك فإن النبي القائد ﷺ قد أمر (بعد احتلال حصني ناعم والصعب) وحدة من الجيش النبوي بالبقاء في منطقة النطا للتفتيش في هذه الحصون وتعقب من يمكن أن يكون محتبئاً من المسلحين اليهود في هذه الحصون، ثم القضاء عليهم.

لأنه - كما يظهر - بلغه أن بعضاً من محاربي اليهود لا يزالون محتفين في بعض حصون النطا.

قال الواقدي: وتحوّلت اليهود من حصن ناعم ومن حصن الصعب بن معاذ، ومن كل حصون النطا إلى حصن يقال له: قلعة الزبير.

فزحف رسول الله ﷺ إليهم والمسلمون، فحاصرهم، وغلقوا عليهم حصنهم، وهو حصن منيع، وإنما هو في رأس قلعة، لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال لصعوبته وامتناعه: (وبقيت في حصون النطاة بقايا، لا ذكر لهم في بعض حصون النطاة، الرجل والرجلان، فجعل رسول الله ﷺ بإزائهم رجالاً يحرسونهم، لا يطلع أحد عليهم إلا قتلوه)^(١).

فتح قلعة الزبير: وبعد أن استولى المسلمون على حصن الصعب بن معاذ - وهو الحصن الثاني من حصون النطاة - تحوّل اليهود إلى الحصن المسمى (بقلعة الزبير) وهو الحصن الثالث من حصون النطاة الواقعة في الشطر الأول من مدينة خيبر. وقلعة الزبير حصن منيع جداً يقع على قمة جبل عالية صعبة المسالك وحسب خطة انسحاب اليهود جعلوا من قلعة الزبير خط دفاعهم الثالث.

فانتقلوا إلى هذا الحصن بعد أن فقدوا (حصن الصعب بن معاذ).

وقد تحصّن اليهود في (قلعة الزبير المنيعة) واستعدوا فيه لقتال المسلمين، فشنوا أبراج القلعة بالمقاتلين، ووضعوا كتائب رماة النبل في مواضع تشرف على قوات المسلمين التي كانت قد تحولت بدورها وضربت الحصار على اليهود في قلعة الزبير بعد احتلال حصن الصعب.

صعوبة اقتحام الحصن: قام المسلمون بعدة محاولات لاقتحام قلعة الزبير وفتحها، ولكنهم لم يتمكنوا وذلك لمناعة هذا الحصن ووعورة المسالك المؤدية إليه ولوقوع هذه المسالك مكشوفة تحت مرمى سهام اليهود.

ومن جهة أخرى لم يقدّم اليهود أول الأمر بفتح أبواب الحصن لمهاجمة المسلمين أو طلب مبارزتهم كما فعلوا أثناء حصار حصن (ناعم) وحصن (الصعب بن معاذ).

ويظهر أن ذلك راجع إلى اطمئنانهم إلى العلو الشاهق الذي يقع عليه هذا الحصن وإلى أن المسلمين لذلك لن يقدروا على اقتحامه لصعوبة الوصول إليه وفتحه بقوة السلاح.

إجبار اليهود على القتال خارج الحصن: وكان المسلمون لا يرغبون في إطالة مدة الحصار على الحصن، بل يتوقون للدخول مع اليهود في معركة فاصلة خارج الحصن؛ لأنهم جازمون أن النصر سيكون حليفهم في هذه المعركة.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٦.

وبينما المسلمون يتبرءون بامتناع اليهود بهذه القلعة المنيعة ويديرون الفكر ويرسمون الخطط التي يمكنهم بها الاستيلاء على قلعة الزبير المستعصية، إذا بأحد اليهود واسمه (غزال) يأتي إلى معسكر المسلمين - سرّاً - ويطلب مقابلة النبي القائد ﷺ.

ولدى اجتماعه بالنبي ﷺ أخبره بأن جيشه لن يقدر على اقتحام هذا الحصن وفتحه بقوة السلاح وأن يهود قلعة الزبير لن يتضرروا بالحصار مهما طال لمناعة الحصن ولكون المدافعين عنه، لديهم من التموينات الضرورية ما يكفيهم لمدة طويلة جداً.

إلا أن هذا اليهودي (غزال) أخبر النبي القائد ﷺ بأنه مستعد لأن يدلّه على إتباع طريقة تيسّر لهم فتح قلعة الزبير، بإجبار اليهود على الخروج مكرهين للقتال، مقابل أن يؤمنه المسلمون على ماله وأهله وولده.. فأعطاه النبي ﷺ الأمان له ولأهله وولده وماله.

وهنا أخبر اليهودي (غزال) النبي ﷺ بأن لليهود الممتنعين بقلعة الزبير منابع من المياه سرية تحت الأرض وخزانات قد صممت خصيصاً لأيام الحرب ينزلون إليها أثناء الليل عبر سرايب سرّية تصلها بالقلعة فيأخذون منها حاجتهم من الماء.

وبما أن هذه المنابع واقعة خارج القلعة فإنه بإمكان المسلمين الاستيلاء عليها بسهولة وعندها يجبر اليهود على الاستسلام أو الخروج للقتال بعد أن يقطع المسلمون عنهم الماء، ثم قاد هذا اليهودي (غزال) المسلمين إلى منابع المياه المذكورة فاستولوا عليها وقطعوا الماء عن اليهود المتعصمين بقلعة الزبير.

وهنا أسقط في يد اليهود ورأوا أنه لا بد من إتباع أحد سبيلين: إما الاستسلام للمسلمين، أو الخروج لمقاتلتهم، واستعادة منابع المياه منهم أو يموتوا عطشاً.

وقد فضّلوا مقاتلة المسلمين ففتحوا أبواب الحصن وشنّوا على المسلمين هجوماً عنيفاً فنشب قتال عنيف بين الفريقين انتهى بانتصار المسلمين الذين تمكنوا من إنزال الهزيمة باليهود ثم اقتحموا القلعة وفتحوها.

قال الواقدي: وتحولت اليهود من حصن ناعم كلها، ومن حصن الصعب بن معاذ، ومن كل حصون النطاة، إلى حصن يقال له: قلعة الزبير^(١)، فزحف رسول الله ﷺ إليهم والمسلمون، فحاصروهم، وغلقوا عليهم حصنهم وهو حصين منيع، وإنما هو في رأس قلعة لا تقدر عليه الخيل ولا الرجال، لصعوبته وامتناعه.

(١) كانت قلعة الزبير هذه آخر حصن من حصون النطاة الحربية التي قارم فيها اليهود، انظر إمتاع الأسماع ص ٣١٩.

وأقام رسول الله ﷺ على محاصرة الذين في (قلعة الزبير) ثلاثة أيام، فجاءه رجل من اليهود يقال له: غزال، فقال: يا أبا القاسم! تؤمّني على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشق^(١)، فإن أهل الشق قد هلكوا منك رعباً، قال: فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله، فقال اليهودي: إنك لو أقمت شهراً تحاصرهم ما بالوا بك إن لهم شرباً ودبولاً وعيوناً تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، فإن قطعت شربهم أصحروا^(٢) لك، فسار رسول الله ﷺ إلى مائهم (الذي دلّه عليه اليهودي غزال) فقطعه^(٣).

إجبار اليهود على القتال: ولقد حدث ما توقع اليهودي (غزال) أنه سيحدث إذا ما قطع المسلمون الماء عن قلعة الزبير، فبمجرد استيلاء النبي ﷺ على منابع المياه وقطعها عن اليهود، اضطر المدافعون عن الحصن إلى الخروج منه للقتال. وكان يهود النطاة - وأهل قلعة الزبير منهم - أحد اليهود وأهل النجدة منهم^(٤).

فخرج منه جميع المقاتلين وشنوا على المسلمين هجوماً عنيفاً، وقاتلوهم قتالاً شديداً استماتوا فيه محاولين إبعاد المسلمين عن الحصن واستعادة منابع المياه منهم. ولكن المسلمين ثبتوا لهجوم اليهود فاحتدمت المعركة أمام القلعة، ثم تحول المسلمون من موقف الدفاع إلى الهجوم، فشدوا على اليهود شدة رجل واحد، فانكشفوا أمامهم، وتسابق اليهود ليعودوا إلى القلعة ويقفلوا أبوابها للتحصن فيها كما كانوا يفعلون في معارك حصن ناعم وحصن الصعب.

ولكن المسلمين لم يتركوا لهم الفرصة ليفعلوا ذلك حيث طاردوهم واقتحموا الحصن بعد أن قاتلوا اليهود عند أبوابه ومنعوهم من إغلاقها ثم استولوا على الحصن.

(١) الشق: منطقة تقع في القسم الأول من خيبر.

(٢) أصحر: ظهر وانكشف.

(٣) انظر زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣١، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٦، والبداءة والنهاية ج ٤ ص ١٩٨، والسيرة الحلبية ج ٢

ص ١٦٥.

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٧.

خسائر المسلمين: وقد فقد المسلمون في معركة قلعة الزبير عدداً من الشهداء^(١) كما تكبد اليهود وهم يدافعون عن القلعة عشرة من القتلى^(٢) إلا أن أحداً من المؤرخين لم يتحدث عن مبلغ الغنائم التي لا شك أنها وقعت في أيدي المسلمين عند احتلالهم لقلعة الزبير.

فتح حصن أبي: ذكرنا فيما مضى من هذا الفصل أن مدينة خيبر تتكون من قسمين: القسم الأول: تقع فيه خمسة حصون منيعة تحصن فيها اليهود وجعلوا منها خط الدفاع الأول عن خيبر وشحنوها بالآلاف من المقاتلين لمقاومة هجوم المسلمين، وهي:

- ١- حصن ناعم، فتحه المسلمون بقيادة علي بن أبي طالب.
- ٢- حصن الصعب بن معاذ، وقد فتحه المسلمون بقيادة الحباب بن المنذر.
- ٣- وحصن أو قلعة (الزبير) ولم أعثر فيما بين يدي من مصادر على اسم القائد الذي تولى قيادة المسلمين عند فتحه.

وهذه الحصون الثلاثة يقال لها حصون (النطاة)؛ لأنها تقع في منطقة تسمى بهذا الاسم^(٣).

أما الحصنان الآخريان فهما:

٤- حصن (أبي).

٥- حصن البزاة.

وهذان الحصنان يقعان في منطقة يقال لها (الشق) ولذلك يقال لهما حصن الشق، وقد افتتحهما المسلمون عنوة بعد قتال ضار عنيف كما سيأتي تفصيله إن شاء الله. وذكر المؤرخون أن منطقة (الشق) بها حصون كثيرة أخرى لليهود^(٤) ولكن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا منها - فيما بلغني - سوى هذين الحصنين (حصن أبي وحصن البزاة)، ويظهر أن ذلك راجع إلى أن المسلمين استولوا على حصون الشق كلها (ما عدا حصن أبي وحصن البزاة) بدون قتال الأمر الذي جعل المؤرخين يكتفون بالإشارة إلى هذه الحصون فقط.

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٧.

(٣) انظر: إمتاع الأسماع للمقرئبي ص ٣١٩، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥.

(٤) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٧، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨، وإمتاع الأسماع ص ٣١٩.

وكل من حصون النطاة وحصون الشق تقع كما قلنا في القسم الأول من مدينة خيبر وتمثل خط الدفاع الأول والأهم عن هذه المدينة، حيث دارت أعنف المعارك بين المسلمين واليهود.

تحويل المعسكر النبوي إلى مكانه الأول: ذكرنا فيما مضى من هذا الفصل (وفي بداية الحديث عن معارك خيبر): أن النبي ﷺ عند بدء القتال قد عسكر بجيشه في أعلى النطاة، فجعل مقر قيادته في منطقة تقع بين حصون النطاة وحصون الشق^(١)، فصار جيشه لذلك عرضة لأن يباغته اليهود في أية لحظة وخاصة أثناء الليل، وذلك لكونه عسكر بجيشه بين سلسلة من حصون منطقتي النطاة والشق^(٢)، وفي موقع تكتنفه أحراش النخيل التي تسهل لوحداث من الجيش اليهودي أن تتسلل من حصونهم وتهاجم المسلمين ليلاً بسهولة، والهجوم الليلي هو الذي يسمونه بالبيات.

الأمر الذي حمل الخبير العسكري الشهير الحباب بن المنذر - كما تقدم - على أن ينصح النبي ﷺ ويقترح عليه تغيير مقر قيادته ونقل معسكره من هذه المنطقة بعيداً عن حصون اليهود قائلاً: (يا رسول الله! دنوت من الحصون ونزلت بين ظهري النخل والتز مع أن أهل النطاة لي بهم معرفة ليس قوم أبعد مدى سهم منهم ولا أعدل رمية منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لاخطاط نبلهم مع أنه لا أمن من بياتهم (أي عملياتهم الهجومية في الليل) يدخلون في خَمَر النخل تحوّل يا رسول الله إلى موضع بريء من النز ومن الوباء، نجعل الحرّة بيننا وبينهم حتى لا ينالنا نبلهم).

وكان المكان الذي عسكر فيه النبي ﷺ بجيشه بين الشق والنطاة (أول نزوله خيبر) يقال له: (المنزلة)^(٣) - وكما تقدم تفصيله في هذا الفصل عمل النبي ﷺ بنصيحة الحباب بن المنذر واتبع مشورته، فتحول بعسكره من المنزلة (أعلى النطاة بينها وبين الشق) إلى وادي الرجيع فجعل فيه معسكر جيشه ومقر قيادته، وصار من هذا الوادي يجرد حملاته العسكرية ضد اليهود - وما زال كذلك - حتى تمكنت قواته من السيطرة على جميع حصون النطاة وخاصة الحصون الحربية القوية الرئيسية الثلاثة (حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن الزبير).

(١) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٤١ - ٦٤٢.

(٢) النطاة والشق بهما سلسلة من القلاع الحربية لليهود وفيهما (فقط) دارت أعنف المعارك التي بها تقرر مصير اليهود.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٤٣.

وباستيلاء الجيش النبوي على حصون هذه المنطقة (النظاة) انتقل النبي ﷺ بجيشه من وادي الرجيع (أسفل النظاة) إلى أعلاها، وهناك وفي المكان الأول الذي اتخذ منه معسكراً لجيشه يوماً واحداً فقط (أول نزوله خيبر).. هناك في (المنزلة) عسكر بجيشه للمرة الثانية، ليدبر عملياته الهجومية ضد اليهود في حصون الشق، الواقعة في القسم المتبقي من الشطر الأول من مدينة خيبر.

وكان سبب انتقاله إلى (المنزلة) بين حصون النظاة والشق (المكان الذي اضطر بناءً على مشورة الحباب بن المنذر إلى التخلي عنه في بداية الحرب) هو أن جيشه (بعد سيطرته على قلاع النظاة) لم يعد واقعاً بين نارين كما كان عندما اتخذ من هذه المنطقة أول معسكر لجيشه، في وقت كانت فيه حصون النظاة المنيعة لا تزال في أيدي اليهود الذين يعتبرون أشجع يهود خيبر^(١). وأشدّهم ضراوة في القتال^(٢). فهذه الحصون أصبحت تحت سيطرة قوات المسلمين، وبهذا أمن النبي ﷺ على نفسه وعلى جيشه من خطر بيات اليهود «هجماتهم الليلية المباغثة» ووقع سهامهم الحادة التي كانت (عندما كانت حصون النظاة العالية بأيديهم) تخالط المسلمين في معسكرهم وتحدث الإصابات بينهم، حيث أصيب بسهام هؤلاء اليهود في اليوم الأول من القتال خمسون من المسلمين بجراح^(٣). وهكذا صار ظهر الجيش النبوي مأموناً بعد أن تخلّى اليهود عن قلعة الزبير وهي آخر قلعة حربية هامة من قلاع النظاة.

قال أهل السّير والمغازي: فلما فرغ رسول الله ﷺ من النظاة أمر بالانتقال، أن يحوّل من منزله بالرجيع إلى مكانه الأول (بالمنزلة)، وأمن رسول الله ﷺ من البيات ومن حرب اليهود (أي أهل النظاة) وما يخاف منهم، لأن أهل النظاة كانوا أحدّ اليهود وأهل النجدة منهم^(٤).

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٧.

(٢) مما يؤكد أن يهود النظاة هم أهل النجدة والشجاعة والبأس بين يهود خيبر وأشدّهم ضراوة في القتال والصبر على الحرب، هو أن حصون النظاة الرئيسية الثلاثة لم يسلمها اليهود للمسلمين إلا بعد أن لقي جميع قادة اليهود ورؤساء أركان حربهم مصارعهم بسيف المسلمين مبارزة (مثل القادة: مرحب وباسر وأسير وعامر والحارث أبي زينب ويوشع وسلام بن مشكم الذين جميعهم (ما عدا سلام بن مشكم) لاقوا حتفهم في ساحة الميدان مبارزة.

(٣) إمتاع الأسماع ص ٣١٢.

(٤) الواقدي ج ٢ ص ٦٦٧.

انتقال اليهود إلى حصون الشق: وبعد أن فقد اليهود حصون وقلاع النطا، وخسروا كبار قادتهم في معارك النطا الضارية، تحوّلت فلولهم المدحورة إلى قلاع الشق. وقد تركزت قواتهم الرئيسية في حصن أمامي يقال له: (قلعة أبيّ)، وتحصّنا في هذه القلعة استعداداً لمقاومة جيش الإسلام الذي كان يتعقبهم في زحفه. ضرب الحصار على القلعة: وكانت (قلعة أبيّ) قلعة منيعة للغاية تقع على قمة جبل من الصعب جداً اقتحامها لوعورة المسالك إليها.. ولكنها على كل حال ليست أحسن ولا أمتع من قلاع النطا التي اقتحمها المسلمون بعد مراحل من أهوال القتال الضاري العنيف.

ولهذا لم يترددوا في مهاجمتها بسرعة، فقد قام الجيش النبوي بضرب الحصار على هذه القلعة، تمهيداً لاقتحامها، وكان النبي ﷺ بنفسه يدير دفة القتال ويجرد الحملات على القلعة المذكورة من مكان مرتفع في المنزلة يقال له: (سموان) ^(١).

شراسة اليهود في المقاومة: وقد استبسل اليهود في القتال، فقاوموا هجمات المسلمين بضراوة عهدتها المسلمون منهم في معارك النطا، فقد استماتوا في الدفاع عن (قلعة أبيّ)، وقاتلوا المسلمين أشدّ قتال ^(٢).

وكان قائد وحدات المسلمين التي تولّت مهاجمة حصن (أبيّ) هو أبا دجانة الأنصاري الفارس المشهور ^(٣).

اليهود يفتحون أبواب القلعة للمبارزة: وقد بلغت الضراوة باليهود في القتال للدفاع عن قلعة (أبيّ) إلى أن يفتحوا أبواب هذه القلعة مستهينين بالموت ومعتدّين بأنفسهم ومتحدّين قوات المسلمين المحيطة بهم، وذلك بدعوة فرسان هؤلاء اليهود، المسلمين إلى المبارزة خارج القلعة.

مصراع قائدين يهوديين: فقد خرج من قلعة (أبيّ) أحد فرسانهم يقال له: (عزول) وجال بفرسه أمام أسوار القلعة طالباً المبارزة.

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥.

(٣) انظر قصص بطولة أبي دجانة في كتابنا (غزوة أحد).

فبرز له من صفوف المسلمين الحباب بن المنذر الأنصاري، وبعد أن تجاوزا ساعة حمل الحباب بن المنذر على الفارس اليهودي (عزول) فقطع يده اليمنى ففرّ هارباً إلى القلعة، إلا أن الحباب طارده حتى لحق به قبل أن يدخل القلعة فقطع رجله ثم قضى عليه.

ثم عاد الحباب إلى صفوف المسلمين، وعقب مصرع القائد اليهودي (عزول) برز فارس يهودي آخر (لم يذكر المؤرخون اسمه) وصاح خارج القلعة طالباً من المسلمين المبارزة، فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله اليهودي في الحال.

فاستبدت الغطرسة بهذا الفارس اليهودي، فظل مكانه يجول بفرسه طالباً المبارزة، فأجابه الفارس الأنصاري الشهير (أبو دجانة سماك بن خرشة)، فحمل كل منهما على صاحبه، وظلا يتعاركان بضراوة حتى تمكن أبو دجانة من قتل الفارس اليهودي المذكور.

إحجام اليهود عن المبارزة وافتتاح القلعة: وبعد أن قتل القائدان اليهوديان أمام أبواب قلعة (أبيّ) دبّ الرعب في قلوب بقية اليهود في القلعة فأحجموا عن المبارزة، ثم أغلقوا أبواب القلعة، محاولين الاعتصام بها والدفاع عنها ومقاتلة المسلمين من وراء أسوارها، ولكن قائد وحدات المسلمين المتقدمة (أبا دجانة الأنصاري) لم يترك الفرصة لليهود ليفعلوا ذلك، فقد أمر وحداته بمهاجمة اليهود بسرعة، فشنّ جند الإسلام هجوماً خاطفاً على القلعة، يتقدمهم قائدهم أبو دجانة.

وقد قاوم اليهود المسلمين مقاومة شديدة، فدار حول القلعة قتال ضار عنيف بين الفريقين، ولكن مقاومة اليهود - بالرغم من ضراوتها - كان مصيرها في النهاية الانهيار، حيث انهزم هؤلاء اليهود مقتحمين أسوار القلعة هرباً في كل ناحية، فاحتل المسلمون القلعة واستولوا على كل ما فيها من المؤن والأسلحة والمواشي، ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه قد وقع في أيديهم أسرى من يهود هذه القلعة، الذين التجأ الباقون منهم على قيد الحياة إلى حصن النزار، وهو الحصن الثاني من حصون الشق الذي قاوم اليهود المسلمين فيه مقاومة عنيفة واعتصموا به حتى قرر النبي ﷺ أن ينصب على هذا الحصن آلات المنجنيق لتدميره كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

قال الواقدي: حدثني موسى بن عمر الحارثي، عن أبي عفير محمد بن سهل بن أبي حثمة، قال: لما تحوّل رسول الله ﷺ إلى الشق، وبه حصون ذات عدد، كان أول حصن بدأ منها حصن أبي، فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها: (سمران) ^(١) فقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديداً، وخرج رجل من اليهود يقال له غزّال ^(٢) فدعا إلى البراز، فبرز له الحباب بن المنذر فاختلفا ضربات، ثم حمل عليه الحباب، فقطع يده اليمنى من نصف الذراع، فوقع السيف من يد غزّال، فكان أعزل، ورجع منهزماً فوقع، فذفف عليه، وخرج آخر فصاح: من يبارز؟ فبرز إليه رجل من المسلمين من آل جحشي، فقتل الجحشي، وقام مكانه يدعو إلى البراز، ويبرز له أبو دجاجة قد عصب رأسه بعصابة حمراء فوق المغفر يختال في مشيته، فبدره أبو دجاجة فضربه فقطع رجله، ثم ذفف عليه وأخذ سلبه، درعه وسيفه، فجاء به إلى النبي ﷺ فنقله رسول الله ﷺ ذلك، وأحجموا عن البراز، فكبر المسلمون، ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه، يتقدمهم أبو دجاجة، فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً، وهرب من كان فيه من المقاتلة، وتحمّوا الجدر كأنهم الظباء ^(٣) حتى صاروا إلى حصن النزار ^(٤) بالشق، وجعل يأتي من بقي من فلل النطاة إلى حصن النزار فغلقوه وامتنعوا فيه أشد الامتناع ^(٥).

فتح حصن النزار

كان حصن (النزار) هو الحصن الثاني من حصون (الشق) والحصن الخامس والأخير من حصون القسم الأول من مدينة خيبر، والتي تحصّن فيها اليهود وقاتلوا المسلمين دفاعاً عن كل حصن منها قتالاً عنيفاً ضارياً كما تقدم تفصيله.

أمنع حصن في خيبر: وكان آخر أمل لليهود معقوداً على حصن النزار؛ لأنه كان أمنيح وأحصن وأقوى حصن في خيبر على الإطلاق ^(٦) ولذلك كان قادة فلول اليهود المنهزمة من النطاة والشق، بل ويهود الشطر الثاني من مدينة خيبر (جماعة بني أبي الحقيق من بني النضير) يعتقدون أن المسلمين ستعجز وحداتهم عن اقتحام هذا الحصن لمناعته وقوة تحصيناته.

(١) في البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ (سموان).

(٢) في السيرة الحلبية ج ٢ (ص) (غزوال).

(٣) في البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨: (كأنهم الضباب).

(٤) في البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨ (البزاة).

(٥) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٧ - ٦٦٨ تحقيق الدكتور مرشد جونس ونشر جامعة أكسفورد وطبعة دار المعارف المصرية.

(٦) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٩.

النساء والذرية في حصن النزار: وقد كان اليهود في جميع الحصون الأربعة التي قاتلوا المسلمين منها في النظاة والشق لا يسمحون للنساء والذرية بالبقاء معهم في هذه الحصون الأربعة وإنما يجعلونها مناطق حربية محظور على غير المقاتلين البقاء فيها، وذلك خوفاً من أن يقع النساء والذرية سبايا في أيدي المسلمين^(١)، كان قادة اليهود (بالرغم من قوة هذه الحصون الأربعة) غير واثقين من قدرتها على الصمود طويلاً أمام هجمات المسلمين، ولهذا جردوها للمقاتلين فقط وأجلوا عنها النساء والصبيان، ولهذا لم يقع أحد من النساء والذرية في قبضة جيش الإسلام عند استيلائه على هذه الحصون الأربعة^(٢).

ولكن هؤلاء اليهود لشدة ثقتهم بمناعة وحصانة وقوة حصن النزار ولكونهم على ما يشبه اليقين بأن قوات المسلمين ستعجز عن فتح هذا الحصن، وأنها ستضجر من طول المقام محاصرة له دون أن تتمكن من فتحه، فتعود أدراجها، أو ستجبر على الدخول في مفاوضة مع اليهود وهم في وضع من القوة يجعلهم يحصلون على شروط أفضل في صلح يعقدونه مع المسلمين.. من أجل هذا كله شحن اليهود (حصن النزار) بأفضل ما لديهم من المحاربين، ثم جمعوا في هذا الحصن النساء والذرية وكانوا حوالي ألفين^(٣) ثم تحصنوا في هذا الحصن أشد التحصن وامتنعوا فيه أشد الامتناع، وصاروا يدافعون عنه دفاع المستميت، لأنهم يدركون تمام الإدراك أن سقوط هذا الحصن في أيدي المسلمين يعني سقوط الشطر الأول والأهم من مدينة خيبر، وبالتالي يعني انهيار المقاومة اليهودية انهياراً كاملاً، قد يجعلهم غير قادرين على الدفاع عن الشطر الثاني من المدينة الذي لم يكن مستوى أهله كمستوى يهود الشق والنظاة من حيث الشجاعة والنجدة والصبر على القتال، وقد كان قادة وزعماء اليهود في الشطر الثاني من خيبر يعرفون هذا، وقد صرح به أحد قادتهم (كنانة بن أبي الحقيق النضري) حيث قال (عند سقوط آخر حصن من حصون النظاة والشق في أيدي المسلمين): قد فرغ محمد من النظاة وليس أحد هاهنا يقاتل، قد قتلت يهود حيث قتل أهل النظاة^(٤).

(١) انظر أوسع التفاصيل عن وجهة نظر الإسلام في إباحتها استرقاق النساء والذرية في حالة الحرب، وأن هذا العمل ليس أكثر من عمل حربي مقابل لا مناص للمسلمين من القيام به إزاء أعدائهم الذين يستبيحون (في نفس الوقت) استرقاق وسيي نساء وأطفال المسلمين إذا ما وقعوا في قبضتهم. انظر كل هذه التفاصيل في الفصل الرابع من كتابنا (غزوة بني قريظة) ص ٢٨٣ تحت عنوان (الإسلام والرق).

(٢) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٩.

(٣) إمتاع الأسماع ص ٣١٨.

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٧٤.

ضرب الحصار على حصن النزار: قال ابن كثير في البداية والنهاية: (وهرب من كان في حصن (أبي) من المقاتلة وتقحموا الجُدُر وكأنهم الضباب، حتى صاروا إلى حصن البزاة (يقصد حصن النزار) بالشق، وتمنعوا أشد الامتناع أ هـ. وكان أهل حصن (النزار) أشد أهل الشق قتالاً^(١)).

إخلاء جميع حصون الشق ما عدا (النزار): وفي منطقة الشق كانت حصون كثيرة، ولكن يظهر أن اليهود أدخلوها وتجمّعوا كلهم في حصن (النزار) لمناعته وقوة تحصينه، ثم هربوا جميعاً (بعد سقوط حصن النزار) إلى حصون الكتيبة في الشطر الثاني من خير^(٢).
الهجوم على حصن النزار: وبعد أن سقطت قلعة (أبي) - كما تقدم - وانهزم المدافعون عنها إلى (حصن النزار) سارع المسلمون إلى مطاردتهم فلم يتركوا لهم فرصة يستريحون فيها، بل سارعوا على ضرب الخناق عليهم بقيادة النبي الأعظم ﷺ، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ليستسلموا.

مقاومة اليهود العنيفة: ولكن اليهود قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة، إلا أنهم بالرغم من شدة مقاومتهم العنيدة لم يخرجوا من حصن (النزار) للاشتباك مع قوات المسلمين بالهجوم عليها، ولم يطلب فرسانهم المبارزة كما كانوا يفعلون أثناء محاصرة المسلمين لهم في حصون (ناعم والصعب بن معاذ والزيبر وأبي) في النطاة والشق.

وكل ما فعله هؤلاء اليهود في حصن (النزار) هو أنهم شحخوا أبراجه ومسالحه الأخرى بالمقاتلة (وخاصة رماة النبل) واعتصموا به وصاروا يمحطرون المسلمين بسيول من نباهم، وكانوا مهرة في الرمي، كما صاروا يسلطون جنادل الحجارة على المسلمين من قلل الحصن الذي يقع على جبل مرتفع منيع^(٣) بغية إبعادهم عن أسواره.

السني يُجرح بنبال اليهود: وكان المسلمون يردون على رمي اليهود برمي شديد مثله بالنبال، إلا أن نبال اليهود كانت أشد فعالية في جند الإسلام وذلك لكون اليهود يسلطونها من أبراج قلعة (النزار) العالية التي يعسكر المسلمون تحتها.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٨.

(٢) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٩.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥، وصاحب السيرة الحلبية يسمى حصن النزار: (حصن البريء) ويظهر أنه تصحيف من النساخ.

وكان النبي ﷺ يشترك مع المسلمين في قذف اليهود بالنبال أثناء الترامي بالسهام، ويظهر أن رماة اليهود كانوا يركزون رمي سهامهم الغزيرة بصفة خاصة على الموقع الذي يربط فيه النبي القائد ﷺ حول الحصن المحصور، لذلك جرح النبي ﷺ نتيجة إصابته ببعض سهام اليهود، كما أصابت بعض نبال اليهود ثيابه فمزقتها وهو يدير العمليات ضدهم^(١).

نصب المنجنيق على الحصن: ويدل سياق المؤرخين على أن يهود قلعة (النزار) قد صمدوا طويلاً، وصدّوا كل المحاولات التي قامت بها وحدات من مشاة الجيش النبوي لاقتحام الحصن وفتحه بقوة السلاح، وذلك راجع إلى تحصين قلعة النزار ووعورة الوصول إليها حيث تقع على أعلى قمة جبل، ثم كثرة المدافعين عنها وشدة تيقظهم، وعنادهم في المقاومة. الأمر الذي جعل المسلمين يضيقون من طول المقام حول الحصن محاصرين بدون نتيجة.

لذلك قرر النبي القائد ﷺ استخدام آلات التدمير لضرب أبراج الحصن وأسواره لتدميرها وفتح ثغرات كبيرة فيها ليتمكن مشاة المسلمين من اقتحام الحصن عن طريقها، ولم يكن هناك مجال للخيل في عمليات الهجوم على الحصن لعدم وجود أي طريق تقدم الخيل على سلوكه ولذلك كانت هجمات المسلمين مقتصرة على وحدات من المشاة. وكان المسلمون قد غنموا في حصن الصعب بن معاذ في النطاة بعض المنجنوقات، وهي الآلات الوحيدة التي تستخدم في ذلك الزمن لتدمير الحصون كما غنموا بعض الدبابات التي تحمي صفايحها الحديدية المشاة أثناء زحفهم على القلاع المنيعة من وقع نبال العدو.

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين التي عجزت عن اقتحامه، أمر النبي ﷺ بنصب آلات المنجنيق^(٢) لتدمير الحصن وإجبار اليهود إما على الاستسلام أو الانسحاب.

ومع تحدث بعض المؤرخين عن قصة نصب النبي ﷺ آلات المنجنيق على حصن النزار بعد أن استعصى فتحه، فإن أحداً منهم لم يذكر هل قذف النبي ﷺ هذا الحصن بقذائف هذه الآلات التدميرية أم لا؟

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٨.

(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥.

ولكن القرائن تدل على أنه فعل ذلك، فقد تمكن المسلمون من اقتحام حصن النزار بعد أن نصبوا المنجنيق عليه، ولا شك أن هناك قتالاً عنيفاً دار بين المسلمين ويهود حصن النزار داخل الحصن بعد أن فتحت قذائف المنجنيق في أسوار الحصن ثغرات وأحدثت فيه قذائف اللهب حرائق مكنت المسلمين من الوصول إلى داخل الحصن، بدليل أن اليهود انهزموا من هذا الحصن شر هزيمة، بعد أن تركوا للمسلمين غنائم كثيرة ومن بينها ألفان من السبايا من النساء والذرية^(١)، «فرّ بقية المقاتلة اليهود مذعورين وتركوهم في حصن النزار».. فلا شك إذن (وهذا مجرد استنتاج) أن الذي يسّر للمسلمين افتتاح هذا الحصن المنيع العاتي الحصين هو قذفه بقذائف آلات المنجنيق التي أمر النبي ﷺ بنصبها على ذلك الحصن، وإلا فكيف تنزل بيهود هذا الحصن العاتي المنيع تلك الهزيمة المدمرة التي جعلتهم يفرون إلى القسم الثاني من المدينة مذعورين تاركين في الحصن نساءهم وذرايرهم يقعون في قبضة المسلمين؟. كيف تنزل بهم هذه الهزيمة، وهم الذين صمدوا للحصار وصدّوا كل محاولات المسلمين الهجومية حتى برم المسلمون وضجروا من طول المرابطة حول هذا الحصن؟ الأمر الذي حدا بالنبي القائد ﷺ إلى أن يأمر بنصب آلات التدمير على الحصن باعتبارها آخر وأقوى سلاح يمكن استخدامه ضد اليهود في هذا الحصن المنيع لإجبارهم على الدخول في معركة فاصلة كانوا يتحاشون الدخول فيها مع المسلمين. وهناك قرينة أخرى تدل على أن يهود حصن النزار، لم ينسحبوا من الحصن إلا بعد قتال مريع ضار داخل الحصن، ذلك أنهم لو انسحبوا من الحصن دونما اشتباك والتحام مع المسلمين (ونتيجة خوفهم فقط من قصف المنجنيق) لتمكنوا من التسلل في غلس الظلام بنسائهم وأطفالهم، ولما تركوهم وعددهم يربو على الألفين في هذا الحصن.

قصة تحتاج إلى تمحيص: وذكر بعض الإخباريين^(٢) أن اليهود لما طال صمودهم وقاوموا حصار المسلمين طويلاً، وأصاب سهاهم بنان النبي ﷺ بجراح، وهو يقود عملية الحصار، ويرمي يهود (حصن النزار) بالنبل، أخذ بيده الكريمة كفاً من الحصى فرمي به حصن النزار المذكور، حتى رجف وساخ في الأرض بمن فيه من اليهود، حتى جاء المسلمون، وأخذوهم باليد أخذاً.

(١) إمتاع الأسماع ص ٣١٨.

(٢) انظر البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٨، السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٥، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٨.

وهذا يعني أن اليهود دافعوا عن حصن النزار بشراسة وعناد واستماتة حالت بين المسلمين وبين اقتحام الحصن وافتتاحه بالأساليب الحربية التقليدية، وأن هذا الحصن (لذلك) إنما فتح بمعجزة حيث ساخ هذا الحصن في الأرض حتى أصبح أثراً بعد عين، فسهل على المسلمين أن يقبضوا على جميع من فيه من اليهود بكل سهولة بعد أن حصبه النبي الأعظم ﷺ بكف من الحصى.

ونحن لا نميل إلى الأخذ بهذا الخبر، لا لأننا ننكر المعجزات التي يكرم الله بها أنبياءه، كلا، فمعجزات الأنبياء ثابتة بالتواتر، وإنما لأن كل الذين رأيتهم أوردوا هذه القصة لم يذكروا لها أي سند متصل بسلسلة من الثقات كما هي الطريقة المفروض إتباعها عن أهل الحديث، وخاصة في نقل مثل هذه المعجزات الخارقة للعادة، وإنما اكتفى هؤلاء الإخباريون بذكر هذه القصة دونما أي سند.

حصن النزار آخر حصن كان فيه قتال: قال الواقدي: فلما فتح رسول الله ﷺ حصن النزار بقيت حصون في الشق، فهرب أهلها منها حتى انتهوا إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلام، وكان محمد بن مسلمة يقول: ونظر رسول الله ﷺ إلى حصن النزار فقال: هذا آخر حصون خيبر كان فيه قتال، لما فتحنا هذا الحصن لم يكن بعده قتال حتى خرج رسول الله ﷺ من خيبر^(١).

كيف صارت صفية اليهودية أما للمؤمنين؟ وكان من السبايا اللواتي وقعن في أيدي المسلمين، صفية بنت سيد يهود بني النضير (حيي بن أخطب) ألد أعداء النبي ﷺ وزوجة كنانة بن أبي الحقيق سيد خيبر، وكانت صفية قبلاً، زوجة لسلام بن مشكم النضري، فطلقها قبل أن يدخل بها كما ذكر ذلك صاحب السيرة الحلبية.

القمر في حجر صفية: كانت صفية (وهي تحت كنانة بن أبي الحقيق) رأت في المنام كأن قمر السماء قد وقع في حجرها، فلما قصت رؤياها على زوجها كنانة بن أبي الحقيق (ملك خيبر) غضب ثم لطمها على وجهها لطمه شديدة اخضرت لها عينها، ثم قال لها: أتمنين ملك يثرب (يعني النبي ﷺ) أن يصير بعلك^(٢).

(١) المغازي ج ٢ ص ٦٦٩.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٦، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٧٤، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٦.

كيف تزوج النبي صفيّة؟ بالرغم من إجماع المؤرخين على أن صفيّة قد وقعت من جملة السبايا في أيدي المسلمين، فقد اختلفوا في الطريقة التي بها وقعت سبية مع السبايا.. فقد ذكر ابن هشام أن صفيّة أُخذت من حصن القموص، حصن زوجها (كنانة بن أبي الحقيق) الواقع في القسم الثاني من خيبر^(١).

إلا أن الواقدي ذكر أن صفيّة وقعت سبيةً في أيدي المسلمين في حصن (النزار) الذي يقع في الشطر الأول من مدينة خيبر الذي لا يوجد فيه شيء من حصون ابن أبي الحقيق، ويذكر سبب ذلك فيقول: حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر، قلت لجعفر بن محمود: كيف صارت صفيّة في حصن النزار في الشق، وحصن آل أبي الحقيق بسلام (أي في القسم الثاني) ولم يسب في حصون النطاة من النساء والذرية أحد ولا بالشق، إلا حصن النزار؟.

فقال: إن يهود خيبر أخرجوا النساء والذرية إلى الكتيبة وفرغوا حصن النطاة للمقاتلة، فلم يسب أحد منهم إلا من كان في حصن النزار، صفيّة وابنة عمها ونسيات معها.. وكان كنانة بن أبي الحقيق قد رأى أن حصن النزار أحصن ما هنالك فأخرجها في الليلة التي تحوّل رسول الله ﷺ في صبيحتها إلى الشق حتى أسرت وبنّت عمّها ومن كان معهما من ذراري اليهود، وبالكتيبة من اليهود ومن نسائهم وذراريهم أكثر من ألفين^(٢).

وفي مكان آخر قال الواقدي وروى عن صفيّة نفسها قالت: وجعلت اليهود ذراريها في الكتيبة وجردوها حصون النطاة للمقاتلة، فلما نزل رسول الله ﷺ خيبر وافتتح حصون النطاة ودخل عليّ كنانة فقال: قد فرغ محمد من النطاة، وليس ها هنا أحد يقاتل، وقد قُتلت اليهود حيث قُتل أهل النطاة وكذبتنا العرب (يعني غطفان الذين خذلوا اليهود ولم يقاتلوا إلى جانبهم) فحولني إلى حصن النزار بالشق - قال وهو أحصن ما عندنا - فخرج حتى أدخلني وابنة عمّي ونسيات معنا، فسُبيتُ في النزار قبل أن ينتهي النبي ﷺ إلى الكتيبة^(٣).

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٦.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٩ تحقيق الدكتور ما رسدن جونس.

(٣) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٧٤ و ٦٧٥.

تخيير النبي صفية بين الإسلام والرجوع إلى أهلها اليهود: وكانت صفية قد وقعت (كما في صحيح البخاري) في سهم أحد أصحاب النبي ﷺ وهو دحية الكلبي^(١) فجاء رجل إلى النبي ﷺ فذكر له شأنها وقال أعطيت دحية صفية سيدة قريظة والنضير، إنها لا تصلح إلا لك، فقال: ادعوه بها، فلما نظر إليها قال: خذ جارية من السبي غيرها، ففعل، واصطفاها النبي ﷺ لنفسه حيث تزوجها بعد أن أعتقها^(٢).

وبهذا الزواج الاختياري^(٣) أصبحت صفيّة بنت حبي بن أخطب (سيد يهود بني النضير وألد أعداء النبي ﷺ) إحدى أمّهات المؤمنين، تتساوى في جميع الحقوق مع عائشة بنت أبي بكر الصديق وحفصة بنت عمر بن الخطاب وكل زوجات النبي ﷺ.

تفسيدهم خبيثة: وبهذه المناسبة هنا نقطة لا بد من الإشارة إليها وتوضيحها، وهي أن حادثة استرجاع النبي ﷺ صفية من دحية الكلبي واصطفاها ﷺ لنفسه زوجة قد جعلت بعض مرضى النفوس (وخاصة أعداء الإسلام من اليهود وغيرهم) يتهمون الرسول الأعظم ﷺ بأنه ما استرجع صفية وتزوجها إلا بدافع رغبة جسدية.

بينما الحقيقة التي يؤكدتها سياق القصة هي أن الدافع لجعل النبي ﷺ صفية زوجة له أسمى وأشرف من ذلك، وهو أن صفية بنت ملك وزوجة ملك، ومثلها لا يوهب كما توهب السبايا الأخريات.

ولهذا استرجعها النبي ﷺ من دحية، مما يدل على الباعث الإنساني النبيل الذي فيه تكريم لهذه السيدة العظيمة في قومها، وذلك حسب القاعدة الإسلامية الشريفة (أكرموا عزيز قوم ذل).. وليس أكرم لها وأجبر لحاظرها من أن تكون زوجة النبي ﷺ بدلاً من أن تكون مملوكة عند رجل من عامة الناس.

بل إن هناك ما هو أقوى في الدلالة على أن باعث استرجاع النبي ﷺ لصفية من دحية الكلبي ليس الرغبة الجسدية كما يدّعي مرضى النفوس، وإنما هو أسمى من ذلك وأرفع، وهو مواساة هذه السيدة العظيمة في قومها وإعزازها وتكريمها.. الأقوى في الدلالة على ذلك هو أن النبي ﷺ لما استرجع صفية أعتقها وبعد أن أصبحت حرة خيرها بين أن تعود معززة مكرمة إلى أهلها اليهود وبين أن تسلم وتكون زوجة للنبي ﷺ طائعة مختارة.

(١) انظر ترجمته في كتابنا (غزوة بني قريظة).

(٢) سمط النجوم العوالي ج ٢ ص ١٦٠.

(٣) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٨، وإمتاع الأسماع ص ٣٢١.

غير أن الله تعالى قذف في قلبها الإسلام فتخلت عن اليهودية باختيارها، فتزوجها النبي ﷺ فصارت إحدى أمهات المؤمنين وكانت من أطيبهن نفساً وأرجحن عقلاً.

فقد روى الواقدي عن أبي بن أبي سبرة عن أبي حرملة عن أخته أم عبد الله عن ابنة أبي القين المزنيّ قالت: كنت ألف صفيّة من بين أزواج النبي ﷺ وكانت تحدّثني عن قومها وما كانت تسمع منهم ثم ذكرت حديثاً طويلاً إلى أن قالت: فقالت صفيّة: «فسُيبتُ في (حصن النزار)»^(١) قبل أن ينتهي رسول الله ﷺ إلى الكتيبة (أحد الأودية في الشطر الثاني من خيبر) فأرسل بي إلى رحله ثم جاءنا حين أمسى فدعاني، فجئت وأنا مقنّعة حيّة فجلست بين يديه فقال: إن أقمت على دينك لم أكرهك، وإن اخترت الله ورسوله فهو خير لك. قالت: أختار الله ورسوله والإسلام فأعتقني رسول الله ﷺ وتزوجني»^(٢).

وعن صفيّة رضي الله عنها أنها قالت: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وما من أحد أكره إلي منه، قتل أبي وزوجي وقومي، فقال: يا صفيّة! أما إنني أعتذر إليك مما صنعت بقومك إن قومك صنعوا كذا وكذا (وأخذ يعدد الأسباب التي حملته على أن يفعل بهم ما فعل)، قالت صفيّة: وما زال يعتذر إلي حتى ذهب ذلك من نفسي، فما قمت من مقعدي ومن الناس أحد أحب إليّ منه ﷺ ثم قالت: ما رأيت أحداً قط أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ»^(٣).

فلو لم يكن باعث استرجاع صفيّة من دحية الكلبي هو باعث إنساني شريف ما خيّرنا النبي ﷺ - بعد أن حررها من رق الأسر - بين أن تعود إلى أهلها حرّة معززة مكّرمة وبين أن يتزوجها لتكون إحدى أمهات المؤمنين.

ولو أراد صلى الله عليه وسلم أخذها لنفسه جارية سرية لفعل، ولا يمكن أن يجد طاعن أي مجال للطعن في تصرفه ﷺ لأن قوانين الحرب المتفق عليها بين جميع الشعوب والأمم والتي عمل بها الإسلام وطبقها (كعمل حربي مقابل)^(٤) في ذلك العصر تبيح للنبي ﷺ أن يعامل صفيّة كنوع من الرقيق فيتخذها لنفسه جارية دونما أخذ موافقتها لأنها أسيرة حرب تعتبر مملوكة بموجب قانون الحرب الدولي المعمول به في ذلك العصر.

(١) حصن النزار آخر حصن افتتحه النبي ﷺ من حصون الشق في الشطر الأول من خيبر.

(٢) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٧٤ - ٦٧٥ تحقيق الدكتور مارسدن جونس.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٨ و ١٦٩.

(٤) انظر كتابنا (غزوة بني قريظة) الفصل الرابع تجد (تحت عنوان: لماذا أباح الإسلام الرق؟) أوسع التفاصيل لدفع الشبه

التي وجهها أعداء الإسلام لموقفه من الرق الحربي.

ولكن النبي ﷺ تكريماً لهذه السيدة العظيمة في قومها أبي إلا أن يخصها من بين جميع السبايا بإعطائها مطلق الحرية في أن تختار أي السبيلين تريد بمحض إرادتها: العودة إلى عشيرتها مع البقاء على دينها أو الدخول في الإسلام لتكون زوجة لرسول الله ﷺ لا فرق بينها وبين ابنة أبي بكر الصديق في الحقوق والواجبات، فاختارت الزواج من رسول الله ﷺ بمحض اختيارها.

وكان النبي ﷺ يبالغ في إكرام هذه السيدة ويراعي شعورها لعلمه بما هي عليه من حساسية وشعور مرهف، كامرأة عزيزة في قومها فقدت الوالد والزوج (كلاهما ملك على قومه).

فقد كانت صفة نفسها تتحدث عن هذه المعاملة النبيلة والمواساة النابعة من أشرف قلب، فقد قالت: كنت ألقى من أزواج النبي ﷺ، يفخرن عليّ، يقلن: يا ابنة اليهودي، وكنت أرى رسول الله ﷺ يلطف بي ويكرمني، فدخل عليّ يوماً وأنا أبكي فقال: ما لك؟ فقلت: أزواجك يفخرن عليّ ويقلن: يا ابنة اليهودي، قالت فأريت رسول الله ﷺ قد غضب ثم قال: إذا قالوا لك أو فآخروك فقولني: أبي هارون وعمي موسى^(١).

وأضاف صاحب كتاب (سمط النجوم العوالي ج ٢ ص ١٦٠) إلى البواعث التي ذكرنا باعثاً آخر فقال: إن صفة بنت حبي بن أخطب، هي بنت ملك وزوجة ملك من ملوك اليهود وليست ممن توهب لدحية لكثرة من كان من الصحابة مثل دحية وفوقه، وقلة من كان في السبي مثل صفة في نفاستها، فلو خصه بها لأمكن تغيير خاطر بعضهم، فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه فإن في ذلك رضي للجميع.

أكرموا عزيز قوم ذل: ثم إننا إذا نظرنا بعين الإنصاف، وجدنا (من خلال تصرفات سادات المسلمين وقادتهم) أن إكرام العزيز (وخاصة العنصر النسائي) الذي ذلّ بعد عزة وانخفاض بعد رفعة، خلق إسلامي أصيل سار عليه صاحب الرسالة العظيم محمد ﷺ ومن بعده من الخلفاء الراشدين والأئمة والحكام المهتدون.

ولعل من أبرز ما يؤكد تغلغل هذا الخلق النبيل في نفوس الفاتحين المسلمين بعد الرسول الأعظم ﷺ اقتداءً به تلك المعاملة النبيلة التي عامل بها الخليفة الفاروق (بتوصية من مستشاره علي بن أبي طالب) بنات الملك كسرى الثالث اللواتي وقعن سبايا في يد الجيش الإسلامي المنتصر في بلاد الفرس في عهد ابن الخطاب.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٧٤ من حديث أبي سبرة عن أبي حرملة عن اخته أم عبد الله عن ابنة القين المزني عن صفة.

فقد ذكر المؤرخون أن الجيش الإسلامي بعد استيلائه على مملكة فارس أحضر إلى المدينة سبائا كثيرات من بنات الفرس، وكان بينهن ثلاث من بنات الملك كسرى (يزدجرد) فأمر الخليفة الفاروق ببيعهن في المزاد العلني من جملة السبائا، ولكن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لفت نظر الخليفة الفاروق إلى أنه ينبغي معاملتهن معاملة خاصة لأنهن بنات ملك حيث قال: إن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة.

ولما استشاره الفاروق: كيف تكون معاملتهن؟ قال: يقوّمن، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن.. فاستصوب الفاروق رأي علي، فقوّمن، فاشترهن علي ثم أعتقهن، فزوّج إحدهن ابنه الحسين، وزوّج الثانية محمد بن أبي بكر الصديق، وزوّج الثالثة عبد الله بن عمر بن الخطاب، وذلك تكريماً لهن وجبراً لخواطرن، لأنهن عزيزات ذلن بعد عزة الملك، وقد سعدن بهذا الزواج سعادة أنستهن مآسي الماضي، وقد أنجب الحسين بن علي من ابنة كسرى ابنه علي الملقب زين العابدين رضي الله عنهم أجمعين، فجميع فروع الدوحة الهاشمية الكريمة بعد علي بن الحسين قد أنجبتهن ابنة الملك كسرى، ولهذا لما تجادل هشام بن عبد الملك وزيد بن علي بن الحسين حول مطالبة زيد بالخلافة، قال له هشام: كيف تطمع أن تكون خليفة وأنت ابن أمة، فأجابه زيد: لقد نال ابن أمة ما هو أعلى من الخلافة: النبوة نالها إسماعيل وهو ابن أمة، فأفحم هشام ولم يتكلم.

وهكذا يتضح نبل القصد وشرف الغاية في كل عمل يعمله النبي ﷺ وصحابته الكرام، كما تنكشف أمام أضواء هذه الحقيقة المشرقة الناصعة خبث نوايا وسوء مقاصد الذين يفسرون تزوج النبي ﷺ من صفية ذلك التفسير المقصود به الطعن في مقام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

فانظر كيف أعتق النبي ﷺ صفية بنت ملك اليهود ومنحها مطلق الحرية لأن تبقى على دينها وتعود إلى عشيرتها اليهود وبين أن تدخل في الإسلام وتكون زوجة له، ثم انظر كيف أكرم علي بن أبي طالب بنات الملك كسرى حيث أعتقهن وزوجهن أبناء أرفع الناس منزلة بعد رسول الله ومن هم (في نظر بنات كسرى من الناحية الاجتماعية) في درجة أبناء الملوك (علي بن الحسين وعبد الله بن عمر ومحمد بن أبي بكر) كلهم أبناء خلفاء، والخلفاء من زاوية النظرة الكسروية هم الملوك.

فهل يفهم الحاقدون على الإسلام ونبي الإسلام وخلفاء الإسلام هذه الحقائق المشرقة والمقاصد النبيلة السامية التي يحاولون طمسها بألوان قائمة كالحلّة من الشكوك الباغية الظالمة؟.

الفصل الرابع

- زحف المسلمين على الشطر الثاني من خيبر.
- فرض الحصار على حصون اليهود في هذا الشطر.
- استسلام اليهود النهائي في خيبر.
- اتفاقية الجلاء.
- تحقيق المقام: هل فتح الشطر الثاني من خيبر عنة أم صلحاً؟
- السماح لليهود بالبقاء في خيبر لفلاحتها مقابل نصف المحصول.
- محاولة اغتيال النبي ﷺ في خيبر بعد فتحها.
- عودة مهاجري الحبشة إلى خيبر بعد فتحها.
- استسلام يهود فدك للمسلمين دون قتال.
- القتال في وادي القرى بين المسلمين واليهود.
- استسلام يهود وادي القرى.
- يهود تيماء يصالحون المسلمين ويدفعون الجزية.
- كيف تلقى أهل مكة نبأ انتصار المسلمين في خيبر؟
- قتلى الفريقين في المعركة.
- عودة النبي بجيشه إلى المدينة.

لقد تمت للجيش الإسلامي السيطرة على مدينة خيبر بسقوط قلعة (البرزة) في أيديهم، وهي آخر قلعة من القلاع الخمس التي اعتصم بها المحاربون اليهود التي جعلوا منها الواحد بعد الآخر خطوط دفاع رئيسية للدفاع عن خيبر كلها ضد الجيش الإسلامي المهاجم الذي كان يستهدف في هجومه (بصفة رئيسية) احتلال منطقة خيبر كلها لإنهاء الوجود اليهودي الدخيل الزنيم في تلك البقعة من الوطن العربي المسلم.

وكما رأينا، فقد قاتل اليهود عن كل حصن من هذه الحصون الخمسة قتالاً لا يسع المؤرخ المنصف إلا أن يصفه بأنه قتال كان يتسم بالشجاعة والجرأة والاستماتة بل والمغامرة، رأينا كيف أن المحاربين اليهود كانوا يفتحون أبواب قلاعهم ويتحدون المسلمين طالبين المبارزة بالسيف بل رأينا كيف كانوا يفتحون أبواب حصونهم ويخرجون للملاقاة المسلمين خارج هذه الحصون فيصدون هجماتهم ويحبطونها مراراً وتكراراً إلى درجة اغتم لها القائد الأعلى النبي ﷺ، بل لقد بلغت الجرأة والإقدام باليهود المدافعين عن هذه الحصون الخمسة إلى أن يفتحوا أبوابها ويشنوا هجمات عنيفة مضادة يكشفون بها المسلمون ويطاردونهم حتى المقر الذي يربط فيه القائد الأعلى النبي ﷺ.

الأمر الذي يدل على أن يهود خيبر يختلفون (من حيث الشجاعة والجرأة والصبر على القتال) عن يهود يثرب الذين (بالرغم من كونهم أكثر عدداً من يهود خيبر) لم يثبت (ولا مرة واحدة) أنهم في نزاعهم المسلح مع المسلمين قد واجهوهم في أية معركة وجهاً لوجه خارج حصونهم كما فعل يهود خيبر الذين (كما شهد التاريخ) بأن خيبر لم تسقط في أيدي المسلمين إلا بعد أن سقط جميع قادتها المحاربين قتلى في ميدان القتال^(١).

الزحف على الشطر الثاني من خيبر: بعد أن خسر اليهود الشطر الأول من مدينة خيبر، والذي وقع بأكمله في يد الجيش النبوي، وبعد أن سقطت في أيدي جند الإسلام القلاع الخمس التي (قاتل اليهود بشراسة وضراوة عن كل قلعة منها في النظاة والشق) تحول المنهزمون اليهود من هذه الحصون إلى الشطر الثاني من مدينة خيبر والتحقوا بإخوانهم المتحصنين في القلاع الواقعة في ذلك الشطر، وكانت قلاعاً منيعة كثيرة أهمها (القَمُوص والوَطِيح والسلام).

وكانت قلعة (القَمُوص) أقوى وأمنع حصون الشطر الثاني من خيبر، وكانت هذه القلعة الكبيرة الحصينة لأبناء أبي الحقيق وهم عائلة حبي بن أخطب ثم من بني النضير المنفيين من المدينة بسبب محاولتهم الشهيرة التي دبروها لاغتيال النبي ﷺ وهو آمن في ديارهم، وحالة عهد وتحالف قائمين بينه وبينهم.

هل فتح الشطر الثاني من خيبر؛ صلحاً أم عنوة؟ اختلف الإخباريون الإسلاميون هل

تم استيلاء المسلمين على الشطر الثاني من مدينة خيبر عنوة أم صلحاً ودون قتال؟

(١) ذكر بعض المؤرخين ومنهم (ابن هشام) أن يهود خيبر هم عرب أصليون دانوا باليهودية. وقد ذكر ابن اسحاق أن عائلة مرحب التي تولى فرسانها الدفاع عن حصن ناعم يرجع نسبها إلى قبيلة حير اليمنية.

فقد ذكر بعضهم أن الشطر الثاني فتح صلحاً وأن مقاومة اليهود انهارت بعد فقدهم الشطر الأول من المدينة، فلم يبدوا أية مقاومة بل سارعوا إلى طلب المفاوضة ثم استسلموا للنبي ﷺ على أساس الصلح، ومن أجل ذلك يقول هذا الفريق إن النبي ﷺ لم يقسم خيبر كلها بين المسلمين وإنما قسم نصفها وأبقى القسم الآخر تحت تصرفه دونما قسمة ليصرفه في مصالح المسلمين باعتباره فيئاً^(١) وليس غنيمة وحثهم ما رواه يحيى بن سعيد عن بشير بن يسار أن رسول الله ﷺ قسم خيبر نصفين: نصفاً له، ونصفاً للمسلمين^(٢).

وفريق آخر قال: إن خيبر بشطريها فتحت عنوة ولم يفتح أي شيء منها صلحاً، وهذا هو الصحيح الذي يدل عليه سياق جمهرة المحدثين وأهل السير.. فكل حصون اليهود في خيبر (كما رأيت وكما سترى فيما يأتي إن شاء الله) فتحت بقوة السلاح وعن طريق الاقتحام والالتحام ما عدا حصنين في الشطر الثاني من المدينة وهما (الوطيح والسلام) استسلم أهلها للمسلمين بعد حصار شديد وتهديد بالضرب بالمنجنيق، وقد استسلموا مقابل حقن دمائهم وإعفاء نسائهم وذرائعهم من السبي، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله، والاستسلام على هذه الصورة يعتبر استسلام بعد قتال وحصار فيدخل تحت حكم العنوة لا الصلح.

روى أبو داود عن ابن شهاب فقال: بلغني أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال.

قال ابن عبد البر: هذا هو الصحيح في أرض خيبر، إنها كانت عنوة كلها مغلوباً عليها، بخلاف فدك، فإن رسول الله ﷺ قسم أراضيها على الغائمين لها الموجفين عليها بالخييل والركاب، وهم أهل الحديبية.

ولم يختلف العلماء: أن أرض خيبر مقسومة وإنما اختلفوا هل تقسم الأرض إذا غنمت البلاد، أو توقف؟.

(١) الفيء: هو ما استولى عليه المسلمون في ظروف الحرب دونما قتال، والغنيمة: ما استولى عليه المسلمون من أموال العدو بعد قتال.

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٥٢.

فقال الكوفيون: الإمام مخير بين قسمتها، كما فعل رسول الله ﷺ بأرض خيبر، وبين إيقافها، كما فعل عمر بسواد العراق، وقال الشافعي: تقسم الأرض كلها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر، لأن الأرض غنيمة كسائر أموال الكفار، وذهب مالك إلى إيقافها إتباعاً لعمر، لأن الأرض مخصوصة من سائر الغنيمة بما فعل عمر في جماعة من الصحابة: من إيقافها لمن يأتي بعده من المسلمين.

وروى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر يقول: «لولا أن يترك آخر الناس لا شيء لهم ما افتتح المسلمون قرية إلا قسمتها سهمانا، كما قسم رسول الله ﷺ خيبر سهمانا.

وهذا يدل على أن أرض خيبر قسمت كلها سهمانا، كما قال ابن إسحاق، وأما من قال: إن خيبر كان بعضها صلحاً وبعضها عنوة: فقد وهم وغلط، وإنما دخلت الشبهة بالحصنين اللذين أسلمهما أهلها في حقن دمائهم فلما لم يكن أهل ذينك الحصنين من الرجال والنساء والذرية مغنومين، ظن أن ذلك لصلح، ولعمري أن ذلك في الرجال والنساء والذرية كضرب من الصلح، ولكنهم لم يتركوا أرضهم إلا بالحصار والقتال، فكان حكم أرضهما، حكم سائر أرض خيبر، كلها عنوة، غنيمة مقسومة بين أهلها، وربما شبه على من قال: إن نصف خيبر صلح، ونصفها عنوة بحديث يحيى بن سعيد عن بشير بن يسار «أن رسول الله ﷺ قسم خيبر نصفين: نصفاً له، ونصفاً للمسلمين».

قال أبو عمر (ابن عبد البر): لو صح هذا لكان معناه: أن النصف له سائر ما وقع في ذلك النصف معه لأنها قسمت على ستة وثلاثين سهماً، فوق السهم للنبي ﷺ، وطائفة معه في ثمانية عشر سهماً ووقع السهم لسائر الناس في باقيها وكلهم ممن شهد الحديبية ثم خيبر، وليست الحصون التي أسلمها أهلها بعد الحصار والقتال صلحاً، ولو كانت صلحاً لملكها أهلها، كما يملك أهل الصلح (من الكفار) أرضهم وسائر أموالهم، فالحق في هذا، ما قاله ابن إسحاق، دون ما قاله موسى بن عقبة وغيره عن ابن شهاب، هذا آخر كلام أبي عمر (ابن عبد البر)^(١)، قال ابن القيم.

قلت ذكر مالك عن ابن شهاب: أن خيبر كان بعضها عنوة وبعضها صلحاً، والكتيبة أكثرها عنوة، وفيها صلح، قال مالك: والكتيبة (بضم الكاف وفتح التاء) أرض خيبر (أي حقولها الزراعية) وهو أربعون ألف عذق، وقال مالك: عن الزهري عن ابن المسيب: «أن رسول الله ﷺ افتتح بعض خيبر عنوة» أهـ.

وذكر ابن كثير: أن النبي ﷺ قسم خيبر نصفين.. نصفاً لنوابه ونصفاً بين المسلمين.. الشق والنظاة وما حيز معهما من الشطر الأول من خيبر هو نصف المسلمين الذي قسمه النبي ﷺ بينهم، والوطيح والسلام والكتيبة وما حيز معها وهو الشطر الثاني من خيبر لم يقسمه ﷺ وإنما رصده لنواب المسلمين ومصالحهم العامة^(١).

استسلام الشطر الثاني من خيبر بعد القتال: والواقع الذي يدل عليه سياق أصحاب المغازي والسير جميعاً أن يهود الشطر الثاني من مدينة خيبر قد تحصنوا في حصونهم واستعدوا لمقاتلة المسلمين وقتلهم وقد كانت مقاومة يهود الشطر الثاني من العناد والعنف إلى درجة عجز معها المسلمون عن اقتحام هذه الحصون بالرغم من استمرار الحصار الخائق عليها أكثر من نصف شهر.

الأمر الذي جعل النبي ﷺ يأمر بنصب آلات التدمير (المنجنيق) على هذه الحصون لتدميرها، وعندما نصبت أيقن اليهود بالهلاك فبعثوا إلى النبي ﷺ يطلبون المفاوضة على أساس التسليم، فتمت المفاوضة بين الفريقين على أن يستسلم اليهود مقابل حقن دمائهم وإعفاء نسائهم وذرائعهم من السبي، وهذا (كما ستراه مفصلاً إن شاء الله) استسلام لا صلح، لأن هذا الاستسلام إنما جاء بعد حصار شديد وقاتل عنيف.

القول الفصل: ولعل القول الفصل الذي يزيل الالتباس الذي نشأ عند بعض المؤرخين من كون مزارع الكتيبة (الشطر الثاني من مدينة خيبر) لم يقسمها النبي ﷺ وإنما رصدها لمصالح المسلمين هو ما أورده الإمام الواقدي من أن سبب ذلك أن أراضي الكتيبة كانت (عند قسمة أراضي خيبر بين المسلمين) الخمس الذي (بموجب قانون الغنائم في سورة الأنفال) يرصد لمصالح المسلمين، ومعنى هذا أن أراضي القسم الثاني من مدينة خيبر لم تكن شيئاً غير مقسوم وإنما كانت غنيمة شملها التقسيم كسائر أراضي خيبر.

قال الواقدي (المغازي ج ٢ ص ٦٩٢): وحدثني قدامة بن موسى، عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزام، قال: كتب إلى عمر بن عبد العزيز في خلافته أن افحص لي عن الكتيبة (أراضي القسم الثاني من خيبر)، قال أبو بكر: فسألت عمرة بنت عبد الرحمن فقالت: إن رسول الله ﷺ لما صالح بني أبي الحقيق جزأ النظاة والشق والكتيبة خمسة أجزاء، وكانت الكتيبة جزءاً منها، ثم جعل رسول الله ﷺ خمس بعرات، وأعلم في بعة

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٠١.

منها، فجعلها لله، ثم قال: اللهم اجعل سهمك (يعني الخمس الخاص بمصالح المسلمين) في الكتيبة، فكان أول ما خرج منها الذي فيه مكتوب على الكتيبة، فكانت الكتيبة، خمس النبي ﷺ، وكان السهمان أغفالا، ليس عليهما علامات، وكانت فوضى للمسلمين على ثمانية عشر سهماً، قال أبو بكر: فكتبت إلى عمر بن عبد العزيز بذلك.

وقال الواقدي أيضاً عن حزام بن سعد بن محيصة أنه قال: لما خرج سهم النبي ﷺ وكان الشق والنظاة أربعة الأخماس للمسلمين فوضى.

وحدثني عبد الله بن عون عن أبي مالك الحميري، عن سعيد بن المسيب، وحدثني محمد (أي ابن عبد الله)، عن الزهري، قال: الكتيبة خمس رسول الله ﷺ قال: فكان رسول الله يطعم من أطعم من الكتيبة وينفق على أهله منها، قال ابن واقد: والثبت عندنا أنها خمس النبي ﷺ من خير، لأن رسول الله ﷺ لم يطعم من الشق والنظاة أحداً وجعلها سهمانا للمسلمين، وكانت الكتيبة التي أطعم فيها، كانت الكتيبة تحرص ثمانية آلاف وسق تمر، فكان لليهود نصفها أربعة آلاف وكان يزرع في الكتيبة شعير، فكان يحصد منها ثلاثة آلاف صاع فكان للنبي ﷺ نصفه، ألف وخمسمائة صاع شعير، وكان يكون فيها نوى فربما اجتمع ألف صاع فيكون لرسول الله ﷺ نصفه، فكل هذا قد أعطى منه رسول الله ﷺ المسلمين من الشعير والتمر والنوى^(١).

دروس في النزاهة والعفة: وفي فتح خير ألقى النبي ﷺ على أصحابه دروساً عالية، كان التمسك بها قاعدة القواعد لنزاهة الجندي المحارب المجاهد في سبيل الله تعالى، وكانت درساً في التمسك بالنظام ورهبة الخروج عليه حتى في أحقر الأمور التي قد لا يؤبه لها. فقد نهى أشد النهي عن أن يأخذ الجندي أي شيء من الغنيمة قبل أن تقسم مهما قل. فقد نادى منادي النبي ﷺ: إن الغلول^(٢) عار وشنار يوم القيامة، أدوا الخيط والمخيط. قال الواقدي: فباع يومئذ فروة بن عمرو (الموكل ببيع الغنائم) المتاع، فأخذ عصابة فعصب بها رأسه ليستظل بها من الشمس، ثم رجع إلى منزله وهي عليه فذكر فخرج فطرحها، وأخبر بها رسول الله ﷺ فقال: عصابة من نار عصبت بها رأسك، وسأل رسول الله ﷺ يومئذ من الفيء شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: (لا يحل لي من الفيء خيط ولا مخيط، ولا آخذ ولا أعطي، فسأله رجل عقلاً)، فقال ﷺ: (حتى تقسم الغنائم ثم أعطيك عقلاً وإن شئت مراراً)^(٣).

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٩٣.

(٢) الغلول: هو أن يأخذ المحارب شيئاً من الغنيمة قبل قسمتها.

(٣) المرار: الخيل (النهاية في غريب الحديث) ج ٤ ص ٨٨.

نموذج نادر في صدق الجهاد لله: وفي معركة خيبر ظهرت نماذج من نوع مثالي بلغت أعلى درجات الكمال في صدق الجهاد والحرص على بذل الروح بسخاء ما بعده سخاء في سبيل مرضاة الله تعالى.

فقد روى البيهقي والنسائي: أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فأمن به واتبعه، فقال: أهاجر معك، فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئاً، فقسّمه، وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم^(١).

فلما جاء الأعرابي (إياه) دفعوا إليه قسمه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: قسم قسمته لك. قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا - وأشار إلى حلقه - بسهم، فأموت، فأدخل الجنة.

فقال النبي ﷺ: إن تصدق الله يصدقك، ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأتى به إلى النبي ﷺ وهو مقتول.

فقال ﷺ: هو، هو؟ قالوا: نعم.

قال: صدق الله فصدقه. فكفنه النبي ﷺ في جبهته، ثم قدمه فصلى عليه، وكان من دعائه له: اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك قتل شهيداً وأنا عليه شهيد^(٢). وكان رجل أسود مع النبي ﷺ يمسك دابته عند القتال يقال له: كركرة، فقتل يومئذ، فقيل: استشهد كركرة؟ فقال رسول الله ﷺ: إنه ليحرق في النار على شملة غلها، فقال رجل: أخذت شركين يومئذ كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: شركان من نار، وتوفي يومئذ رجل من أشجع، وأنهم ذكروه لرسول الله ﷺ فقال: صلوا على صاحبكم، فتغيرت وجوه الناس لذلك فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم غلّ في سبيل الله، قال زيد ابن خالد الجهني ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خراز اليهود لا يسوى درهمين، وكان نفر من المسلمين أصابوا خرزاً من خرز اليهود، وكانوا رفقاء، فقال المحدث لهذا الحديث: لو كان الخرز عندكم اليوم لم يسو درهمين، فأتى بذلك رسول الله ﷺ بعدما فرغ من المقسم فقالوا: يا رسول الله، نسينا هذا الخرز عندنا فقال ﷺ: كلكم يحلف بالله أنه نسيه؟

(١) الظهر: يكتى به عن الإبل المعدة للركوب في المغازي وغيرها.

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٠.

فحلفوا جميعاً أنهم نسوه، فدعا رسول الله ﷺ بسرير الموتى فسجى عليهم بالرباط، ثم صلى عليهم صلاة الموتى، وكان رسول الله ﷺ يجد الغلول في رحل الرجل فلا يعاقبه، ولم يسمع أنه أحرق رحل أحد وجد في رحله، ولكنه يعنف ويؤنب ويعرف الناس به (١).
إشراك غائبين في الغنيمة: وكان من عادة النبي ﷺ أن لا يشرك في الغنيمة غائباً عن المعركة، ولكنه في بدر أشرك في الغنيمة ثمانية لم يشهدوا القتال (٢). وفي خيبر أسهم النبي ﷺ لرجال من المسلمين غابوا عن القتال. قال الواقدي: وكانت خيبر لأهل الحديبية من شهدها منهم أو غاب عنها. قال الله عز وجل: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ (٣) يعني خيبر، وقد تخلف عنها رجال (مرى بن سنان وأيمن بن عبيد وسباع بن عرفطة الغفاري وجابر بن عبد الله) وغيرهم ومات منهم رجلان فأسهم رسول الله ﷺ لمن تخلف منهم ومن مات، وأسهم لرسول كانوا يختلفون إلى أهل فدك (محيصة بن مسعود الحارثي وغيره)، وأسهم لثلاثة مرضى لم يحضروا القتال (سويد بن النعمان وعبد الله بن سعد بن خيشمة ورجل من بني خطامة..)، وأسهم للقتلى الذين قتلوا من المسلمين.

إشراك عشرة من اليهود في الغنيمة: وذكر المؤرخون أن النبي ﷺ غزا بعشرة من يهود المدينة إلى خيبر فكانوا معه في الجيش، وعند تقسيم الغنيمة أسهم لهم كسهمان المسلمين، وكان معهم مملوكون منهم عمير أبو اللحم، قال عمير: ولم يسهم لي وأعطاني خرتي متاع (٤).

غطفان تنجد اليهود ولكن! كنا ذكرنا في الفصل الثالث من هذا الكتاب أن عيينة بن حصن الفزاري قائد غطفان قد رفض نصيحة الحارث بن عوف المرى وأبى إلا أن يظاهر اليهود على النبي ﷺ ويسارع إلى مدهم بقوات كثيفة من غطفان، فقد تحرك من جديد نحو خيبر بجوالي أربعة آلاف مقاتل، وهي التي عادت إلى ديارها بعد أن قطعت مرحلة نحو خيبر وذلك على أثر ما سمعت من أن قوات للمسلمين قد أخلفتها في ديارها، قبل نشوب معركة خيبر بقليل.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٨٢.

(٢) انظر أسماء هؤلاء الثمانية في كتابنا (غزوة بدر الكبرى) في الحديث عن الغنائم.

(٣) سورة الفتح الآية: ٢٠.

(٤) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٨، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٧٥ و ٦٧٦.

غير أن قوات غطفان وصلت إلى خيبر بعد فوات الأوان، حيث لم تصل إلا بعد أن وجدت النبي ﷺ قد استولى على خيبر كلها، ولم يعد بها من اليهود من يحمل السلاح، حيث استسلموا جميعاً لقوات المسلمين.

غطفان تطلب من النبي قسماً من الغنيمة: غير أن قائد غطفان (عيينة بن حصن الفزاري) لم يجد من الحياء ما يمنعه من أن يطلب من النبي ﷺ إعطاءه من غنائم خيبر، فقد قال للنبي ﷺ: أعطني يا محمد مما غنمت من حلفائي فإني انصرفت عنك وعن قتالك وخذلت حلفائي ولم أكثر عليك ورجعت عنك بأربعة آلاف مقاتل.

فقال رسول الله ﷺ: كذبت، ولكن الصياح الذي سمعت أنفرك إلى أهلك قال: أجزني يا محمد، فقال النبي ﷺ: لك ذو الرقبة، قال عيينة: وما ذو الرقبة؟ قال النبي ﷺ: الجبل الذي رأيت في النوم أنك أخذته.

وكان عيينة بن حصن رأى في المنام (وهو بجيشه دون خيبر) أنه أعطى ذا الرقبة - جبلاً بخيبر - وعندها تفاعل قائلاً: قد والله قد أخذت برقبة محمد.

عيينة بن حصن يتحسر على اليهود: قال الواقدي: فانصرف عيينة فجعل يتدسس إلى اليهود ويقول: ما رأيت كالأيوم أمراً، والله ما كنت أرى أن أحداً يصيب محمداً غيركم، قلت: أهل الحصون والعدّة والثروة، أعطيتكم بأيديكم (أي استسلمتم) وأنتم في هذه الحصون المنيعة وهذا الطعام الكثير ما يوجد له آكل، والماء الواتن^(١)! قالوا: قد أردنا الامتناع في قلعة الزبير^(٢) ولكن الدبول قطعت عنّا، وكان الحر، فلم يكن لنا بقاء على العطش، قال: قد وليتم من حصون ناعم منهزمين حتى صرتم إلى قلعة الزبير، وجعل يسأل عمن قتل منهم فيخبر، فقال: قتل والله أهل الجذ والجلد، لا نظام لليهود بالحجاز أبداً.

ويسمع كلامه ثعلبة بن سلام بن أبي الحقيق - وكانوا يقولون: إنه ضعيف العقل مختلط - فقال: يا عيينة أنت غررتهم وخذلتهم وتركتهم وقاتل محمد، وقبل ذلك ما صنعت ببني قريظة^(٣)! فقال عيينة: إن محمداً كادنا في أهلنا (أي أوقعنا في مكيدة) ففكرنا إليهم حين سمعنا الصريخ ونحن نظن أن محمداً قد خالف إليهم، فلم نر شيئاً ففكرنا إليكم لنصركم.

(١) الواتن: المستمر دوغماً انقطاع.

(٢) قلعة الزبير هي الحصن الثالث والأخير من حصون النطاة في القسم الأول من مدينة خيبر.

(٣) كان عيينة بن حصن الفزاري قائد أحد الأجنحة الأربعة في قوات غطفان التي اشتركت ضد المسلمين في قوات الأحزاب في العام الرابع من الهجرة وقد انسحبت هذه القوات وتركت بني قريظة يلاقون جزاءهم على أيدي المسلمين الذين غدرت بهم قريظة معتمدة على قوات الأحزاب الضاربة.

قال ثعلبة: ومن بقي تنصره؟ قد قتل من قتل، وبقي من بقي فصار عبداً لمحمد وسبانا وقبض الأموال!

قال يقول رجل لعينة: لا أنت نصرت حلفاءك فلم يعدوا عليك حلفنا! ولا أنت حيث وليت.. كنت أخذت تمر خبير من محمد سنة^(١)! والله إني لأرى أمر محمد أمراً ظاهراً، ليظهروا على من ناوأه، فانصرف عينة إلى أهله يفتل يديه، فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف المرّي، قال: ألم أقل لك إنك توضع في غير شيء؟ والله ليظهروا محمد على ما بين المشرق والمغرب، اليهود كانوا يخبروننا هذا، أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول: إنا نحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بني هارون، وهو (أي محمد) نبي مرسل واليهود لا تطاوعني على هذا ولنا منه ذبحان، واحد يثرب وآخر بخيبر، قال الحارث: قلت لسلام: يملك الأرض جميعاً؟ قال: نعم والتوراة التي أنزلت على موسى، وما أحب أن تعلم اليهود بقولي فيه^(٢).

كيف استسلم يهود الشطر الثاني من خيبر؟ ذكر المؤرخون جميعهم أن من بقي على قيد الحياة من مقاتلة يهود الشطر الأول من خيبر (النظاة والشق) انهزموا والتحقوا بإخوانهم في الشطر الثاني وتحصنوا معهم في حصونهم، وهي عدة حصون أهمها ثلاثة وهي:

١- القموص (بفتح القاف). ٢- السلام (بضم السين).

٣- الوطيح، ضبطه الواقدي (بفتح الواو وكسر الطاء)^(٣).

وبالرغم من إجماع المؤرخين على أن اليهود المعتصمين بهذه الحصون الثلاثة لم يستسلموا للقوات الإسلامية إلا بعد قتال شديد ومقاومة عنيدة، وحصار دام أربعة عشر يوماً أو أكثر.. فإن هناك (كما ذكرنا في أول هذا الفصل) خلافاً بينهم، هل افتتح المسلمون شيئاً من هذه الحصون عن طريق الاقتحام بالقوة (كما فعلوا في حصون النظاة والشق) أم أن جميع هذه الحصون الثلاثة استسلم المدافعون عنها وسلموها للمسلمين عن طريق المفاوضات؟

(١) ذكرنا فيما مضى في الفصل الثالث من هذا الكتاب أن النبي ﷺ عرض على غطفان أن يعطيها تمر خبير لسنة واحدة إذا امتعت عن مظاهرة اليهود ومدّهم بالجارين، ولكن قائد غطفان عينة بن حصن رفض هذا العرض وأبى إلا مناصرة اليهود فقرر أن يمدّهم بأربعة آلاف مقاتل.

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ٦٧٧.

(٣) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٦، والبداية والنهاية ج ٤ ص ١٩٩.

رأي ابن إسحاق: يرى إمام المغازي ابن إسحاق أن حصناً واحداً من الحصون الثلاثة، وهو حصن القموص (بفتح أوله وضم ثانيه) قد فتحه المسلمون بقوة السلاح كما فعلوا في الشق والنظاة، فهو يقول: ولما افتتح رسول الله ﷺ (القموص) حصن بني أبي الحقيق أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حبي بن أخطب وبأخرى معها، فمر بهما بلال - وهو الذي جاء بهما - على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت، وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: اعزبوا عني هذه الشيطانة^(١)، ثم قال لبلال: أزعجت منك الرحمة، يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما^(٢)؟

وهذا السياق من ابن إسحاق، يدل على أن المسلمين لم يستولوا على حصن (القموص) وهو من حصون الشطر الثاني - إلا بعد مقاومة عنيفة أبداها اليهود وفقدوا خلالها عدداً كبيراً من القتلى. وجاء في السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٦، أن الذي تولى فتح حصن القموص علي ابن أبي طالب، وقال: إن من هذا الحصن سببت صفية بنت حبي بن أخطب، كما قال ابن حجر. وقد سبق تحقيق المقام في ذلك. وقول صاحب السيرة الحلبية هذا، يؤيد ما ذكره ابن إسحاق من أن حصن (القموص) اقتحمه المسلمون وفتحوه بقوة السلاح.

أما الحصنان (الوطيح والسلام) فيتفق ابن إسحاق مع باقي المؤرخين في أن اليهود المعتصمين بهما استسلموا بعد الحصار الشديد وبعد أن أيقنوا بالهلكة^(٣).

غير أن هناك ما ينبغي الإشارة إليه هنا، وهو أن هناك نقصاً في سرد ابن إسحاق لحوادث فتح حصون خيبر، فقد قال عند ابتدائه لوصف فتح خيبر، وتدنى لرسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتحها حصناً حصناً، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم، ثم القموص^(٤).

(١) عبارة الواقدي في المغازي ج ٢ ص ٦٧٣: فكره رسول الله ﷺ ما صنع بلال فقال: أذهبت منك الرحمة؟ تمر بجارية حديثة السن على القتلى، فقال بلال: ما ظننت أنك تكره ذلك، وأحببت أن ترى مصارع قومها، فقال رسول الله ﷺ لابنة عم صفية (كالماوسي): ما هذا إلا شيطان (كذا). وما ذكره الواقدي أقرب إلى آداب النبي ﷺ وعفته في الكلام.

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٦.

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٧.

(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٠.

فهو كما نرى لم يذكر من حصون النطاة والشق الخمسة سوى حصن ناعم، كما أن سياقه هذا يوهم بأن حصن (القموص) هو من حصون النطاة أو الشق في الشطر الأول من خير، بينما الذي عليه جمهرة المؤرخين أنه من حصون الشطر الثاني من خير، في الكتيبة.

قول الواقدي: أما الواقدي (وهو الند لابن إسحاق في المغازي) فقد ذكر في كتابه (المغازي) ^(١): أن اليهود بعد أن فقدوا الشطر الأول من خير انهزموا وتحولوا إلى الشطر الثاني واعتصموا مع يهود هذا الشطر بحصونهم الثلاثة (الوطيح والسلام والقموص) واستعدوا للمقاومة، وظلوا يقاومون ممتنعين بحصونهم حتى ضرسهم الحصار فاستسلموا، وهنا يختلف الإمام الواقدي مع الإمام ابن إسحاق، فبينما يذكر ابن إسحاق أن المسلمين افتتحوا حصن (القموص) بقوة السلاح والحصنين الآخرين (الوطيح والسلام) عن طريق المفاوضة، يذكر الواقدي أن جميع الحصون الثلاثة سلمها اليهود للمسلمين عن طريق المفاوضة وأن المسلمين لم يقتحموا بقوة السلاح أي حصن من هذه الحصون وإنما فتحت بالرعب الذي قذفه الله في قلوب اليهود بعد الحصار الذي دام أربعة عشر يوماً. فقد قال الواقدي: (ثم تحول رسول الله ﷺ إلى الكتيبة ^(٢) والوطيح وسلام (حصن ابن أبي الحقيق الذي كانوا فيه)، فتحصنوا فيه أشد التحصن وجاءهم كل فل ^(٣) كان قد انهزم من النطاة والشق، فتحصنوا معهم في القموص (وهو في الكتيبة) وكان حصناً منيعاً، وفي الوطيح وسلام، وجعلوا لا يطلعون من حصونهم مغلقين عليهم حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب المنجنيق عليهم لما رأى من تغليقهم، وأنه لا يبرز منهم بارز، فلما أيقنوا بالهلكة - وقد حصرهم رسول الله ﷺ أربعة عشر يوماً سألوا رسول الله ﷺ الصلح. قال أبو عبد الله: قلت: لإبراهيم بن جعفر: وجد في الكتيبة خمسمائة قوس عربية.

وقال: أخبرني أبي عمّن رأى كنانة بن أبي الحقيق يرمي بثلاثة أسهم في ثلاثمائة - فيدخلها في هدف شبراً في شبر، فما هو إلا أن قيل: هذا رسول الله ﷺ قد أقبل من الشق في أصحابه - وقد تهياً أهل القموص وقاموا على باب الحصن بالنبل، فنهض كنانة إلى قوسه فما قدر أن يوترها من الرعدة، وأوماً إلى أهل الحصون: لا ترموا! وانقمع، فما رُئي منهم أحد حتى أجهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب ^(٤).

(١) ج ٢ ص ٦٧٠ نشر جامعة أكسفورد بتحقيق الدكتور مارسدن جونز.

(٢) الكتيبة: أحد أودية خير (نهاية الأرب ج ١٧ ص ٢٦٣) وهو واد خصب به وحده أربعون ألف نخلة.

(٣) الفل (بفتح الفاء) بقايا القوم المنهزمين.. يقال رجل فل، وقوم، فل (الصحاح ص ١٧٩٣).

(٤) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٧٠.

ويدل سياق الواقدي وكل المؤرخين أن السيادة على اليهود في الشطر الثاني من مدينة خيبر كانت لبني أبي الحقيق (رهط حبي بن أخطب سيد بني النضير المنفيين من المدينة). وأن بني أبي الحقيق كانوا بمثابة الملوك بين يهود الشطر الثاني من مدينة خيبر.

طلب اليهود المفاوضات للتسليم: فقد ذكروا جميعهم أن اليهود المتحصنين في حصون (القموص والوطيح والسلام) في القسم الثاني من خيبر كلمة واحدة الحصار، وقرر النبي ﷺ أن ينصب على حصونهم آلات التدمير (المنجنقات) وقذفهم بها أيقنوا بالهلاك ودب الذعر في قلوبهم، فقرر ملكهم كنانة بن أبي الحقيق التسليم، فبعث إلى النبي ﷺ بوفد يطلب باسمه الاجتماع به للتفاوض على أساس إنهاء الحرب بتسليم اليهود للمسلمين، وكان رئيس الوفد الذي أرسله كنانة اسمه (شماخ)^(١).

وعندما خرج شماخ (رسول كنانة بن أبي الحقيق) من حصن القموص اعتقله الحرس النبوي ثم جاء به إلى النبي ﷺ في مفر قيادته.

وهناك أبلغ المندوب اليهودي شماخ النبي ﷺ أنه مبعوث من سيد اليهود كنانة بن أبي الحقيق، بعثه ليلغته استعداد يهود الشطر الثاني من خيبر للمفاوضة، وأن ملك اليهود (كنانة بن أبي الحقيق) يرغب في الاجتماع بالنبي القائد ﷺ ويطلب السماح له بذلك. وقد وافق النبي ﷺ على الاجتماع بكنانة بن أبي الحقيق للمفاوضة.

الاستسلام النهائي: فرجع اليهودي (شماخ) إلى كنانة بن أبي الحقيق، وأخبره بموافقة النبي ﷺ على الاجتماع به، فأمر كنانة أصحابه بالكف عن القتال، ثم خرج إلى النبي ﷺ في نفر من زعماء اليهود.

ولدى اجتماعهم بالنبي ﷺ في مفر قيادته حول الحصون جرى التفاوض بين النبي ﷺ وبين كنانة بن أبي الحقيق وباقي الوفد، حول الطريقة التي يتم بها تسليم ما تبقى من منطقة خيبر للمسلمين، وهو القسم الثاني من المدينة.

وقد حاول الوفد اليهودي (برئاسة كنانة بن أبي الحقيق)، الحصول على شروط وضمانات مثل التي يحصل عليها أهل الذمة الذين يقبلون الدخول في مفاوضات مع قائد الجيش الإسلامي قبل إعلان الحرب، فيعقدون معه الصلح الذي بموجبه يكون لهم حق البقاء في بلادهم مع الاحتفاظ بأموالهم وممتلكاتهم، وإعفاء نساءهم وذرائعهم من السبي وحقن دماء الجميع، مقابل دفع شيء معين للمسلمين وهو الجزية، مع الاعتراف بسلطان الإسلام والخضوع لأحكام قانونه.

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٧٠.

حقن الدماء والإعفاء من السبي فقط: ولكن استعداد كنانة بن أبي الحقيق ووجهاء وأعيان وقادة اليهود في الشطر الثاني من خيبر للصلح جاء متأخراً. ذلك أنهم لم يبدوا استعدادهم للتسليم على أساس الصلح، إلا بعد أن قاوموا أشد المقاومة وامتنعوا بمحصونهم، وحاربوا المسلمين وقاوموهم إلى درجة عجز الجيش الإسلامي معها عن اقتحام حصونهم الثلاثة (الوطيح والسلام والقموص) بالرغم من المحاولات الهجومية التي استمرت حوالي نصف شهر.. الأمر الذي جعل النبي ﷺ يستعد لنصب آلات التدمير (المنجنقات) لضرب أبراج الحصون وأسوارها ليسهل على المسلمين اقتحامها، وهو الإجراء الذي جعل كنانة بن أبي الحقيق والمدافعين عن هذه الحصون، يوقنون بالهلاك ويفكرون في المفاوضة والتسليم بعد أن تأكدوا أن مقاومتهم لن تجدي نفعاً إذا ما تمكنت منجنقات الجيش الإسلامي من تهديم أبراج وأسوار الحصون التي امتنع فيها هؤلاء اليهود وقرروا محاربة المسلمين حتى النهاية.

تسامح القائد الأعلى النبي: وبالرغم من أن النبي ﷺ قد أدرك أن كنانة بن أبي الحقيق والوفد المرافق له، لم ينزلوا من حصونهم لمفاوضة النبي ﷺ، إلا بعد أن انهارت مقاومتهم وأيقنوا أنهم مأخوذون عنوة، وأن حكمهم كحكم الذين تؤخذ حصونهم وأراضيهم عنوة، فيؤسر مقاتلوهم وتسيب نساؤهم وذريتهم، وتؤخذ كل أموالهم غنيمة للمسلمين دونما استثناء، كأعداء لم يسلموا إلا بعد حصار وحرب وقتال.. فإن النبي ﷺ، قد تسامح مع هؤلاء اليهود، حيث أبرم معهم اتفاقية أهم ما حصلوا عليه فيها «حقن دمائهم وإعفاء نسائهم وذريتهم من السبي» وهو أمر ما كانوا ليظفروا به لولا روح التسامح التي عاملهم بها النبي ﷺ.

بنود اتفاقية التسليم: ويمكن تلخيص بنود الاتفاق النهائي هذا فيما يلي:

- ١- على اليهود أن يخلوا جميع القلاع والحصون ويتركوا كل ما فيها من آلات حربية وأسلحة، ليستولي عليها الجيش الإسلامي لتصبح جزءاً من أملاك المسلمين الغزاة.
- ٢- على اليهود أن يسلموا للمسلمين كل ما في حوزتهم من أسلحة، وأن لا يحملوا سلاحاً ما داموا في خيبر.
- ٣- يتعهد النبي ﷺ بحقن دماء اليهود التي جرت المفاوضة باسمهم ويعفي نساءهم وأطفالهم من الاسترقاق.

٤- على اليهود أن يجلوا عن خيبر ويغادروها إلى الشام.

٥- يسمح المسلمون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركبهم^(١).

٦- يتعهد اليهود - وعلى رأسهم سيدهم كنانة بن أبي الحقيق - أن يدلوا المسلمين على جميع الأموال بما في ذلك الكنوز المخفية ويسلموها للفاتحين.

٧- يوافق اليهود على أن لا ذمة لهم وأن المسلمين في حل من كل التزامات هذه الاتفاقية وأن دماء اليهود وأموالهم وذرائعهم حلال للمسلمين إذا ما خالفوا شيئاً من بنود هذه الاتفاقية أو غيبوا أو كتموا شيئاً ما يجب أن يظهره.

وقد تم إبرام هذه الاتفاقية في مقر قيادة النبي ﷺ، وأشهد عليها رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً والزبير وعشرة من اليهود.

وعقب إبرام هذه الاتفاقية سلم اليهود الحصون والقلاع للمسلمين كما انتدب النبي من أصحابه من يستلم الأموال والأسلحة والمزارع والبساتين.. وبهذا وضعت الحرب أوزارها في خيبر باستيلاء المسلمين عليها استيلاءً كاملاً بعد معارك وحروب طاحنة دامت حوالي شهرين وهي أطول مدة يقضيها رسول الله ﷺ في أية معركة.

نهاية الاستعمار اليهودي: وبسقوط منطقة خيبر في أيدي المسلمين انهار آخر وأقوى معقل لسلطان اليهود الدخيل الزنيم في جزيرة العرب.. هذا السلطان الاستعماري الذي دام في يثرب وخيبر (بصفة خاصة) حوالي ألفين من السنين، والذي ظل وجوده طيلة تلك القرون مصدر الشرور والفتن والقتال والحروب الأهلية الطاحنة بين العرب، التي دأب اليهود (بأساليبهم التقليدية الشريرة) على إثارتها وتغذية أسبابها للتمكين لوجودهم في بلاد العرب كأقلية دخيلة لا يمكنها الاستقرار والبقاء في أرض غير أرضها وبين شعب هي غريبة عنه (جنساً ولغةً وديناً ولحماً ودماً) إلا باستمرار التخاصم والتناحر والتفرق والتعادي بين عناصر هذا الشعب الواحد، والعمل على تصعيد أسباب الخلاف الدامي

(١) هذه رواية أبي داود عن حماد بن سلمة (انظر نصب الراية للزيلعي ج ٣ ص ٣٩٩) وقد ذكر بعض المؤرخين أن اتفاقية الجلاء تمت على أساس أن لا يحمل اليهود معهم عند الجلاء شيئاً إلا ثوباً على إنسان، ولكن الأول أثبت وأقرب إلى أسلوب الرسول ﷺ في معاملة المهزومين المطلوب إجلاؤهم، إذ يستعد أن يتركهم النبي ﷺ - وقد حقن دماءهم وأغفى نسايتهم وذرائعهم من السبي والاسترقاق - أن يغادروا خيبر بنسائهم وأطفالهم، وليس معهم ما يقتاتونه ويتبلغون به حتى يصلوا الشام.. بل إن النبي ﷺ قد قبل بقاء اليهود في خيبر وعدل عن إجلائهم فظلوا فيها حتى عهد الخليفة الفاروق عمر الذي أجلهم عنها. تمشياً مع روح اتفاقية إبقائهم ليعملوا زراعاً بنصف المحصول كما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

بين مختلف فئات الشعب الواحد، الذي لو توحد وتخلت عناصره (ذات القوة الذاتية العظيمة) عن مساوئ التخاصم الجاهلي والتنافر القبلي، لما استطاع هؤلاء اليهود الدخلاء، أن يجدوا موطناً قدم في جزيرة العرب، ولا اضطروا إلى العودة من حيث أتوا، وهو ما حدث لهم مرغمين (بالفعل) بعد أن وُحد بين أمة العرب تحت راية التوحيد.. الأمر الذي لو حدث قبل ألفين من السنين، لما استطاع اليهود الدخلاء البقاء في جزيرة العرب طيلة هذه المدة الطويلة جداً.

ما أشبه الليلة بالبارحة: فهل يتقي الله العرب (أو المنتسبون إلى العروبة) الذين هم سبب تفريق كلمة العرب وتصنيفهم إلى صنفين، صنف يجب أن يكون له كل شيء وصنف لا يستحق أي شيء ولا حتى البقاء حياً.. هل يتقي الله هؤلاء الذين يكرسون تفرقة العرب وتمزيق وحدتهم تحت شعار الوحدة والتلاقي.. هل يتقي الله هؤلاء فيعودون إلى رشدهم ويدركون الواقع المؤلم فيعملون على تغييره بصدق وإخلاص؟ وهو أن الوجود اليهودي الزنيم المستعمر الدخيل في فلسطين، لا يستمد بقاءه من قوته الذاتية أو طائرات الميراج أو حتى الفانتوم أو التكنولوجيا، وإنما يستمد بقاءه البغيض من تمزيق وحدة العرب واختلاف كلمتهم، وكيد بعضهم لبعض.

إن العرب يستحيل أن يتم اجتماع كلمتهم وقيام وحدتهم إلا في ظل راية الإسلام والإسلام فقط.

الغنائم في خيبر: وبعد سقوط القسم الثاني من مدينة خيبر واستسلام حصونها وقلاعها لجيش الإسلام الظافر، أخذ المسلمون في إحصاء الغنائم، وكانت شيئاً عظيماً لم يغنم الجيش الإسلامي مثله في أية غزوة من الغزوات التي انتصر فيها المسلمون على أعدائهم في العهد النبوي.

فبالإضافة إلى الأسلحة والمعدات والآلات الحربية (مثل الدبابات والمنجنقات) التي استولى عليها المسلمون عند افتتاحهم قلاع الشطر الأول من خيبر، استولوا في قلاع وحصون الشطر الثاني من المدينة على كميات كبيرة من الأسلحة نذكر منها:

١- ألف (١٠٠٠ رمح).

٢- أربعمئة (٤٠٠ سيف).

٣- خمسمئة (٥٠٠ قوس عربية) بجعباتها^(١).

وهو شيء عظيم بالنسبة للمستوى العسكري في ذلك العصر.

(١) الجعبة (بضم الجيم وفتحها) وعاء مستطيل توضع فيه السهام ويحملة النبال على ظهره ساعة الحرب.

الغنائم غير الحربية: أما الغنائم غير الحربية الأخرى التي غنمها الإسلام في هذا الفتح العظيم فهو شيء عظيم لا يمكن حصره.

فبالإضافة إلى الكميات الكبيرة من الذهب والفضة التي يشتهر اليهود (منذ أقدم العصور) باكتنازها، غنم المسلمون ما هو أهم وأعظم من ذلك وهو المزارع والبساتين وأحراش النخيل التي تغطي مئات الأميال المربعة من أرياف مدينة خيبر العربية.

وإذا علمنا أن ما غنمه المسلمون (فقط) في الكتيبة - وهي واحدة من عشرات الواحات التي تغطي أراضي خيبر - هو أربعون ألف نخلة^(١) أدركنا مدى ضخامة كميات الأراضي المزروعة المغنومة من اليهود المهزومين في خيبر.

خيبر أغنى منطقة زراعية في الحجاز: ولا غرو، فقد كانت منطقة خيبر (في ذلك العصر) أغنى منطقة زراعية في الحجاز بل وجزيرة العرب على الإطلاق. حيث كانت - ولا تزال حتى اليوم - تفيض منها بالماء مئات العيون وهو ما لا يوجد مثله في أية منطقة في الحجاز، مع جودة التربة وسعة الأراضي الصالحة لزراعة مختلف أنواع الأشجار والفواكه والحبوب كالذرة والحنطة والشعير.

وقد كان العرب في ذلك العصر يسمون واحات خيبر، ريف الحجاز، وقد ارتفعت ميزانية دخل خزينة الدولة الإسلامية باستيلاء المسلمين على واحات خيبر، ارتفاعاً كبيراً ملحوظاً، لاسيما بعد أن رصد النبي القائد والحاكم الأعلى خمس مغام خيبر لبيت المال للصرف منه على مصالح المسلمين العامة حسب الظروف ومتطلبات الحاجة.

السني يعيد التوراة لليهود: وعند إحصاء الغنائم وجد المسلمون من بينها عدة أجزاء من التوراة (كتاب اليهود المقدس) وقد طلب اليهود من النبي ﷺ أن يعيد إليهم هذه الصحائف من كتابهم، فاستجاب لطلبهم، وأمر بإعادتها إليهم فأعيدت^(٢).

ولعل في إعادة صحائف التوراة إلى اليهود البرهان الذي يلزم متهمي الإسلام بالتعصب ومصادرة غير المسلمين في معتقداتهم وإجبارهم على اعتناق الإسلام حجراً.

(١) انظر إمتاع الأسماع ص ٣١٩ - ٣٢٠.

(٢) كتاب المغازي للواقدي ج ٢ ص ٦٨٠ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٦.

فإعادة صحائف التوراة إلى اليهود (وخاصة في ذلك العصر) فيها أعظم الدليل على تسامح الإسلام وإطلاقه الحريات لمن يخالفه في العقيدة، في عصر بلغ فيه التعصب الأعمى للدين والمذهب بين الأمم الأخرى (كالرومان) إلى أن أباحوا لأنفسهم سفك دم الذين يخالفونهم في المذهب داخل إطار الدين الواحد، كما فعل حكام دولة الروم البيزنطية بمعاينة النصارى في مصر. فكيف بمن يخالفهم في جوهر الدين ذاته؟

وأين تصرفات المسلمين الفاتحين المنتصرين المتسامحة بإطلاقهم الحريات لمخالفهم في الدين ليمارسوا شعائهم في ظل الدولة الإسلامية كما يريدون، من تصرفات الصليبيين الذين أعماهم الحقد والتعصب؟ فلم يكتفوا بمصادرة حرية المسلمين في ممارسة شعائر دينهم، بل لجأوا إلى تخييرهم بين أمرين: إما قتلهم وتحريقهم بالنار، وإما مفارقة دين الإسلام واعتناق النصرانية، كما حدث من الملك فيرديناند والملكة إيزابلا في الأندلس (إسبانيا) عندما كتبت لهم الغلبة على المسلمين هناك، فأقاموا لهم محاكم التفتيش الوحشية التي نفذت حكم الإعدام (ضرباً بالسيف وحرقاً بالنار) في مئات الآلاف من المسلمين ولم تتوقف هذه المجازر الرهيبة إلا بعد أن أجبر جميع المسلمين على اعتناق النصرانية حفاظاً على أرواحهم.. وكما حدث من ملك الصليبيين (قلب الأسد) عندما ذبح ثلاثة آلاف مسلم من أسرى المسلمين بالرغم من إعطائهم الأمان عند استيلائه على مدينة القدس، التي استعادها منه صلاح الدين بقوة السلاح، والذي لم يقتل أسيراً مسيحياً واحداً، بالرغم من تلك المجزرة التي ارتكبتها الصليبيون على يد قلب الأسد الإنكليزي... الذي بلغ التسامح الإسلامي بصلاح الدين إلى أن يعوده وهو في مرضه، ويأمر طبيبه بمعالجته حتى شفي من مرضه كما تشهد بذلك مصادر التاريخ الغربي في أوروبا قبل الشرق في بلاد الإسلام.

كيف سمح النبي لليهود بالبقاء في خيبر؟ وهكذا (وباستسلام حصون الشطر الثاني من مدينة خيبر) وضعت الحرب أوزارها في هذه المنطقة الحيوية الهامة من جزيرة العرب.. وبسقوط خيبر في أيدي المسلمين انهار أقوى وآخر معقل للوجود اليهودي الدخيل في جزيرة العرب.

وقد جاء في نص اتفاقية تسليم الشطر الثاني من خيبر على أن يقوم اليهود بالجلء عن خيبر إلى الشام ويتعهد المسلمون بمحقن دمائهم وإعفاء نسائهم وذرائعهم من السبي والاسترقاق شريطة أن لا يكتفوا أو يغيبوا شيئاً من الأموال التي هي (بموجب قوانين الحرب في ذلك العصر) ملك من أملاك المسلمين المنتصرين، وأنهم (أي اليهود) إن فعلوا

ذلك برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله وحلت دماؤهم وحق للمسلمين سبي نسائهم وذرايهم (انظر تفاصيل الاتفاقية فيما مضى من هذا الكتاب) وقد نقض اليهود العهد وخانوا وغيبوا وكتموا^(١)، الأمر الذي أباح للنبي ﷺ دماءهم وأموالهم كما تنص عليه اتفاقية الجلاء صراحة.

غير أن النبي ﷺ (بالرغم من نقض اليهود العهد وإبطال مفعول الاتفاقية بالخروج على نصوصها كما تقدم، لم يقتل اليهود ولم يسترق نساء وذراي سوى رجلين اثنين هما (كنانة بن أبي الحقيق وأخوه الربيع) اللذان وقعا الاتفاقية بالنيابة عن اليهود. أما بقية اليهود وهم عدة آلاف فلم يتعرض لهم بأذى إذ أعفاهم من عقوبة النكث ونقض العهد، لأن المسئول الأول عن هذا النكث والنقض والغدر إنما هما (كنانة بن أبي الحقيق وأخوه الربيع).

السماح لليهود بالإقامة في خيبر: إلا أن النبي ﷺ تنفيذاً لاتفاقية التسليم قرر إجلاء اليهود عن خيبر، فلم يعارض اليهود في ذلك، إلا أنهم تقدموا إلى النبي القائد ﷺ بعرض من طلبوا فيه أن يسمح لهم بالبقاء في خيبر في ظل حكم الإسلام، ليعملوا كأجراء في أرض خيبر للعناية بمزارعها وبساتينها وتولى فلاحتها مقابل جزء من محصولها يعطى لهم يتفق عليه الفريقان.

فقد جاءوا إلى النبي ﷺ بعد أن علموا أنه سيخرجهم من خيبر فقالوا: يا محمد نحن أعلم منكم بخيبر، دعونا نكون فيها نعلمها لكم بشطر ما يخرج منها.

وقد راقت هذه الفكرة للنبي ﷺ فقبل عرض اليهود فسمح لهم بالبقاء في خيبر وأبرم معهم اتفاقاً خلاصته أن يقوموا بعمارة الأرض واستصلاحها وعمارتها على أن يكون لهم مقابل ذلك نصف ما تخرجه أرض خيبر من ثمار، على أن يكون من حق المسلمين إخراج اليهود من خيبر متى شاءوا.

قال الزيلعي في نصب الراية ج ٣ ص ٣٩٩: وقالوا (أي اليهود) نحن أعلم بكم منها فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف وقال: على آنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم. وفي صحيح البخاري: أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها.

(١) انظر زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٢، والبداءة والنهاية ج ٤ ص ١٩٩، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٦، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٧٢، وإمتاع الأسماع ص ٣٢٠، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٧، وطبقات ابن سعد الكبرى ج ٢ ص ١١٢.

وقال ابن حزم (في جوامع السيرة) : وأقر النبي ﷺ اليهود على أن يعتملوها أي أرض خيبر بأموالهم وأنفسهم ولهم النصف من كل ما يخرج منها من زرع أو ثمر ويقرهم على ذلك ما بدا له، فبقوا على ذلك حتى مات رسول الله ﷺ، ومدة خلافة أبي بكر، وجهور خلافة عمر، فلما كان في آخر خلافته بلغه أن رسول الله ﷺ أمر في مرضه الذي مات فيه أن لا يبقى في جزيرة العرب دينان، فأمر بإجلائهم عن خيبر.. أهـ. وكانت الاتفاقية كما تقدم تعطي المسلمين حق إجلاء اليهود متى شاءوا.

قال ابن إسحاق: وقال اليهود للنبي ﷺ: نحن أعلم بها (أي خيبر) منكم وأمر لها، فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، وقال لهم: على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم^(١).

اليهود في حماية المسلمين: وبعد أن قبل النبي ﷺ عرض اليهود فوافق على أن يبقوا في منطقة خيبر للعناية بزروعها والقيام بفلاحتها وإعمارها مقابل إعطائهم نصف ما تنتجه أرضها - بقي هؤلاء اليهود في ذمة المسلمين وحمايتهم آمنين على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم.

وعقب موافقة النبي ﷺ على بقاء اليهود في خيبر لإعمار أرضها مقابل نصف المحصول من ثمارها أخذ اليهود يعاودون نشاطهم التجاري في المنطقة بمتهى الحرية والأمان، وكانوا (كما هو المشهور عنهم) من أنشط الناس في الأعمال التجارية.

وقد أخفى عامة اليهود أكثر ما لديهم من نقود الذهب والفضة عندما شعروا بأنهم سيخسرون المعركة، ويدل سياق الأحداث (كما هو في أمهات التاريخ) أن النبي ﷺ تسامح معهم في هذا الأمر بالرغم من علمه به وبالرغم من أن نصوص المعاهدة تلزمهم بتسليم كل ما لديهم من أموال منقولة وغير منقولة كغنيمة حرب للجيش الإسلامي (كما هي قوانين الحرب في ذلك العصر).

ويدل على تسامح النبي ﷺ مع هؤلاء اليهود هو أنهم قد اشتروا بأموالهم الشيء الكثير من الغنائم التي غنمها الجيش في خيبر فرجوا من ذلك أرباحاً طائلة.

(١) انظر صحيح البخاري ج ٥ ص ٣٩٠ الطبعة المنيرية، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٩٠، وسيرة ابن هشام ج ٢، ونصب الراية ج ٣ ص ٣٩٩، وجوامع السيرة ص ٢١٣، والسيرة الحلبية ج ٢، وإمتاع الأسماع ص ٣٢٨، والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٥٠، وزاد المعاد ج ٢ ص ٣٤٧.

يدل على ذلك ما رواه الواقدي: فلقد كان من اليهود حين آمنهم رسول الله ﷺ يقبلون ويدبرون ويبيعون ويشترون، لقد أنفقوا عامة المغنم مما يشترون من الثياب والمتاع، وكانوا قد غيبوا نقودهم وعين ما لهم^(١).

النبي يحذر من الاعتداء على أموال اليهود: وبعد أن عقد النبي ﷺ مع اليهود اتفاقية المساقاة والمزارعة وأعطاهم الأمان صار المسلمون يقعون في حرثهم وبقلهم فشكت اليهود ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمر النبي ﷺ بجمع المسلمين والجيش لما يزل في خيبر. فلما اجتمعوا حذّروهم من التعرض لليهود وأخذ أي شيء من زروعهم، فقد وقف فيهم ﷺ خطيباً وقال: (بعد أن حمد الله وأثنى عليه) - إن اليهود شكوا إلى أنكم وقعتم في حظائرهم وقد آمنهم على دمائهم وعلى أموالهم والذي في أيديهم من أراضيهم، وعاملناهم، وأنه لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها.

فامتثل المسلمون أمر النبي ﷺ وصاروا لا يأخذون شيئاً من ثمار الأراضي التي أعطيت لليهود إلا بثمان، ولقد بلغ بالمسلمين التحرز والتعفف إلى أن يقول اليهودي للمسلم، أنا أعطيك هذا (من الثمار) بلا ثمن فيأبى المسلم أن يأخذه إلا بثمان، بعدما سمع من النبي ﷺ ما سمع من نهي عن التعرض لأموال اليهود^(٢).

محاولة اغتيال النبي في خيبر: وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وتمت السيطرة التامة للمسلمين على هذه المنطقة الهامة، وبعد أن عدل النبي ﷺ عن إجلاء يهود خيبر وانفق معهم على إعمار بساتين ومزارع خيبر ومنحهم الأمان والحماية، جرت محاولة شريرة لاغتيال النبي في مدينة خيبر.

وتفصيل ذلك أن امرأة يهودية اسمها زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم المقتول في حصن النطاوة وابنة أخي مرحب (الحارث) وكلاهما قتل في المعركة، قررت اغتيال النبي ﷺ عن طريق دس السم له في الطعام.

فقد عمدت إلى شاة لها فذبحتها - وكانت بالتشاور مع بعض اليهود - قد اختارت أخطر نوع من أنواع السم يقال له: لابطي، لا يلبث أن يقتل متناوله في الحال، ثم وضعته في جميع أوصال الشاة، وأكثرت من هذا السم (بصفة خاصة) في الذراعين، لأنها (كجزء من حيك المؤامرة) سألت أثناء التخطيط لها: (أي أنواع اللحم أحب إلى النبي ﷺ) فقيل

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٦٩ - ٦٧٠ من رواية عبد الرحمن بن أبي بكر عن جعفر بن محمود.

(٢) انظر مغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٩١، والروض الأنف ج ٢ ص ٢٤٣.

لها: الذراع والكتف، وكان قصدها الرئيسي أن يقضي السم على الرسول ﷺ بمجرد تناوله أية كمية من لحم الشاة التي كانت قد شوتها وحملتها إلى معسكر النبي ﷺ بقصد إهدائها له، وكان ﷺ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.

ولما صلى النبي ﷺ صلاة المغرب وعاد إلى مقر قيادته في خيبر وجد زينب اليهودية جالسة عند رحلة فلما سأها: ما شأنها؟ قالت: أبا القاسم هدية أهديتها لك، فقبلها وأمر بقبضها منها فقبضت ثم وضعت الشاة المسمومة بين يديه ﷺ وكان معه بعض أصحابه، فقال لهم: ادنوا فتعشوا فدنوا فمدوا أيديهم، وتناول رسول الله ﷺ الذراع فانتهش منها نهشاً، وازدرد لقمة، وتناول بشر بن البراء^(١) عظماً فأكل منه لقمة أيضاً، وفجأة أمر النبي ﷺ أصحابه بأن يتوقفوا عن الأكل قائلاً: كفوا أيديكم فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة، فقال بشر: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك من أكلتي التي أكلتها فما منعي أن ألفظها إلا كراهية أن أنعص عليك طعامك فلما تسوغت ما في يدك لم أرغب بنفسي عن نفسك.

أما بشر فلم يبق من مكانه حتى تحول لونه أسود من شدة تأثير السم وظل يعاني من وجعه طيلة سنة كاملة مشلولاً حتى مات متأثراً بهذا السم.

وكان بعض الصحابة قد أكلوا شيئاً من هذه الشاة أيضاً، لذلك أمر النبي ﷺ كل من أكل شيئاً من هذه الشاة أن يحتجم كما احتجم ﷺ نفسه على كاهله كعملية لتخفيف تأثير السم.

ويقول ابن القيم: إن النبي ﷺ ظل يعاني من تأثير هذا السم طيلة أربع سنوات حتى توفاه الله تعالى.

وقد روي عنه ﷺ أنه قال في وجعه الذي مات فيه: (ما زلت أجد - أي أتألم - من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر، فهذا أوان انقطاع الأبهري مني)، قال الزهري: فتوفي رسول الله ﷺ شهيداً.

وعلى أثر ما حدث أمر النبي ﷺ بإحضار زينب اليهودية لاستجوابها.

(١) هو بشر بن البراء بن معرور الأنصاري. شهد بيعة العقبة مع أبيه، وشارك في معركة بدر وكل المعارك إلى جانب رسول الله ﷺ، جعله رسول الله ﷺ سيداً على قومه بني نضلة. فقد جاء في كتاب الجود من طريق ابن شهاب الزهري أن النبي ﷺ قال: من سيدكم يا بني نضلة؟ قالوا: جد بن قيس، قال: وبم تسودونه؟ فقالوا: إنه أكثرنا مالاً وأنا على ذلك لنزله بالبخل، قال: وأي داء أدوى من البخل؟ ليس ذا سيدكم، قالوا: فمن سيدنا؟ قال: بشر بن البراء بن معرور.

ولدى التحقيق معها اعترفت بأنها سمّت الشاة قاصدة بذلك قتل النبي ﷺ، ولما سأها النبي ﷺ: ما حملك على ما صنعت؟ فقالت بكل صراحة: لقد بلغت من قومي ما لا يخفى عليك قتلت زوجي وأبي وعمي، فقلت: إن كان نبياً فسيخبره الله، وإن كان ملكاً استرحنا منه، فعفا عنها النبي ﷺ...

وروى حماد بن سلمة أنه عفا عنها بالنسبة لحقه الخاص غير أنه أمر بقتلها فيما بعد قصاصاً ببشر بن البراء الذي مات متأثراً بذلك السم الذي دسّته في الشاة، وقد وفق بهذا بين الروايتين بأنه عفا عنها ولم يقتلها أولاً.. غير أنه لما مات بشر قتلها قصاصاً.. والقصاص مطلوب تنفيذه على أي إنسان مسلماً كان أو غير مسلم^(١).

دور المرأة في معركة خيبر: ومعركة خيبر هي ثاني معركة تشترك فيها المرأة المسلمة في العهد النبوي، فقد روى الإمام أحمد عن حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة خيبر وأنا سادسة ست نسوة، قالت: فبلغ النبي ﷺ أن معه نساء، قالت: فأرسل إلينا فدعانا، قالت: فرأينا في وجهه الغضب، قال: ما أخرجكن؟ وبأمر من خرجتن؟

قلنا خرجنا نناول السهام ونسقي السويق ومعنا دواء للجرجى ونغزل الشعر فنعين في سبيل الله، قال: فمرن فانصرفن، قالت: فلما فتح الله عليه خيبر أخرج لنا سهاماً كسهام الرجال، وفيه ما يدل على أن النبي ﷺ سوى النساء بالرجال في تقاسم الغنيمة. أما ابن إسحاق فقد أورد ما يتفق مع أورده الإمام أحمد بصدد خروج النساء في غزوة خيبر إلا أنه ذكر أن النبي ﷺ إنما رضح^(٢) هن من الغنيمة، ولم يجعل هن أسهماً كأسهم الرجال.

وقال: حدثني سليمان بن سحيم عن أمية بنت بن أبي الصلت - امرأة من غفار قد سماها لي - قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من غفار، فقلنا: يا رسول الله! قد أردنا أن نخرج معك لوجهك هذا - وهو يسير إلى خيبر - فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: على بركة الله.

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٨، وزاد المعاد ج ٢ ص ٣٤٠، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٦٧٨ و ٦٧٩، وإمتاع الأسماع للمقرئ ص ٣٢١ - ٣٢٢، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٧ - ٣٣٨، وصحيح البخاري ج ٥ ص ٢٩٠ الطبعة المنيرية.

(٢) الرضح: إعطاء الشيء على غير قاعدة معلومة أو نصاب معلوم.

قالت: فخرجنا معه، وكنت جارية (أي فتاة حديثة السن) فأردفني رسول الله ﷺ على حقيبة رحله، قالت: فوالله لنزل رسول الله ﷺ إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله وإذا بي يدركني ما يدرك النساء من العادة (ولأول مرة) قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحيت، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي، قال: ما لك؟ لعلك نفست؟ قالت: قلت نعم، قال ﷺ: فأصلي من نفسك ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحاً ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة ثم عودي لمركبك.

قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها، وعلقها في عنقي فوالله! لا تفارقتي أبداً، وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها.

وأخرج الحافظ البيهقي من حديث عبد الله بن أنيس الصحابي المشهور قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ومعني زوجتي وهي حبلى فنفتت في الطريق، فأخبرت رسول الله ﷺ فقال: انقع لها تمرأ، فإذا انغمر فأمر به لتشربه، ففعلت فما رأت شيئاً تكرهه، فلما فتحنا خيبر أجدى النساء ولم يسهم لهن، فأجدى زوجتي وولدي الذي ولد.

الأصل جواز خروج النساء للجهاد: كل هذه الروايات المتساندة لا تدع مجالاً للشك في أن الأصل جواز خروج النساء للمساهمة في الجهاد في سبيل الله شريطة أن لا يصاحب ذلك خروج على آداب وتعاليم الإسلام.. كالأساليب التي يلجأ إليها الكثير في هذا العصر من تجنيد الفتيات بقصد الترفيه بالوسائل المردولة، كالغناء والرقص وما شابه ذلك مما يعد تمرداً على تعاليم الإسلام ويستنزل غضب الله تعالى على المحاربين فيحرمهم النصر ويسبب لهم الهزائم.

قتلى الفريقين في المعركة: وقد استشهد في معارك خيبر ستة عشر من المسلمين:

أربعة من قريش، وواحد من أشجع، وواحد من أسلم، وواحد من أهل خيبر نفسها والباقون من الأنصار.

عدد شهداء المهاجرين: من بني أمية بن عبد مناف:

- ١ - ربيعة بن أكثم بن سخبرة^(١) (حليفاً لهم) قتله بالنطاة الحارث اليهودي.
 - ٢ - ثقيف بن عمرو^(٢) (حليفاً لهم) قتله أسير اليهودي بالنطاة.
 - ٣ - رفاعة بن مسروح^(٣) (حليفاً لهم) قتله الحارث اليهودي بالنطاة.
- من بني أسد بن عبد العزى:

- ١ - عبد الله بن أبي أمية بن وهب (حليفاً لهم) وهو ابن أختهم، قتل بالنطاة.
- من غفار: عمارة بن عقبة، قتل بسهم.
- من أسلم:

- ١ - عامر بن سنان بن الأكوع^(٤) قتله سيفه حين رجع عليه وهو يبارز أحد اليهود.
- من أهل خيبر نفسها:

- ١ - الأسود الراعي، لا يعرف اسمه، قتل في اليوم الذي أسلم فيه وقصته مفصلة في هذا الكتاب.

من أشجع: رجل لم يذكر اسمه.

شهداء الأنصار:

من الخزرج:

- ١ - بشر بن البراء بن معرور^(٥).
- ٢ - فضيل بن النعمان^(٦).

(١) هو ربيعة بن أكثم بن سخبرة بن عمرو بن بكير الأسدي حليف بني عبد شمس قال موسى بن عقبة وابن إسحاق: إنه شهد بدرًا وأحدًا، استشهد بخيبر وهو ابن ثلاثين سنة. قال في الإصابة: قتله بالنطاة الحارث اليهودي، وكان يكنى أبا زيد.

(٢) هو ثقيف بن عمرو بن شميظ من بني غنم ثم من بني أسد بن خزيمه شهد بدرًا (قاله موسى بن عقبة وابن إسحاق) وقد شهد بدرًا مع إخوته مدلاج ومالك.

(٣) هو رفاعة بن مسروح الأسدي.. أسد بن خزيمه.

(٤) عامر بن سنان بن الأكوع الأسلمي تقدمت ترجمته.

(٥) تقدمت ترجمة بشر في هذا الكتاب.

(٦) فضيل بن النعمان الأنصاري السلمي قال في الإصابة، ذكره ابن إسحاق في المغازي في رواية يونس بن بكير وسلمة بن الفضيل وغيرهما عنه. وقال محمد بن سعد، كذا وجدناه في غزوة خيبر وطلبناه في نسب بني سلمة فلم نجد، ولا أحسبه إلا وهماً وإنما أراد الطفيل بن النعمان بن خنساء بن سنان أ هـ.

من الأوس:

١- محمود بن مسلمة، قتله مرحب اليهودي بواسطة سهم رماه بها من أعلى حصن

ناعم.

٢- أبو ضيَّاح بن ثابت بن النعمان^(١).

٣- الحارث بن حاطب^(٢).

٤- عروة بن مروة بن سراقة^(٣).

٥- أوس بن القائد^(٤).

٦- أنيف بن حبيب^(٥).

٧- ثابت بن أثلة^(٦).

٨- طلحة بن يحيى بن مليل.

من بني زهرة: مسعود بن ربيعة (حليفاً لهم من القارة).

عدد قتلى اليهود: أما اليهود فقد كانت حصيلة قتلاهم في معارك خيبر ثلاثة وتسعون رجلاً قتل أكثرهم في معارك النطاة والشق بالشرط الأول من مدينة خيبر، وكان على رأس هؤلاء القتلى اليهود أحد عشر من قادتهم وزعمائهم.

وهم:

١- مرحب، قتله (مبارزة) علي بن أبي طالب، وقيل محمد بن مسلمة أمام حصن

ناعم.

٢- الحارث أبو زينب، وهو أخو مرحب، قتله (مبارزة أمام حصن ناعم) علي بن

أبي طالب.

٣- ياسر.. قتله (مبارزة) الزبير بن العوام أمام حصن ناعم.

(١) أبو الضيَّاح.. اسمه عمير بن ثابت بن أمية الأوسي شهد بدرًا وأحدًا أو الخندق والحديبية.

(٢) هو الحارث بن حاطب بن عمرو بن عبيد الأوسي الأنصاري، كان ضمن الجيش النبوي الزاحف إلى بدر، ولكن النبي ﷺ أعاده إلى المدينة من الروحاء في مهمة تتعلق ببنت عمرو بن عوف، وضرب له بسهم في غنائم بدر فكان كمن شهدها (في قول ابن إسحاق) شهد الحارث أحدًا والخندق.

(٣) قال في الاستيعاب: عروة بن مرة بن سراقة الأنصاري من الأوس قتل يوم خيبر.

(٤) قال في الإصابة: اسمه أوس بن عابد، قال ابن عبد البر: هو من الأنصار قتل يوم خيبر، أنظر الاستيعاب.

(٥) هو أنيف بن حبيب من بني عمرو بن عوف، من الأنصار.

(٦) قال في الإصابة: هو ثابت بن أثلة الأوسي من بني عمرو بن عوف.

- ٤- أسير قتل (مبارزة) أمام حصن ناعم.
 ٥- عامر.. قتله، علي بن أبي طالب (مبارزة أمام حصن ناعم).
 ٦- يوشع.. قتله الحباب بن المنذر، مبارزة أمام حصن الصعب.
 ٧- الديال.. قتله عمارة بن عقبة الغفاري.
 ٨- سلام بن مشكم، قتل في معارك النطاة.
 ٩- عزول.. قتله الحباب بن المنذر مبارزة أمام حصن (أبي) في الشق.
 ١٠- كنانة بن أبي الحقيق النضري.. أعدم في الشطر الثاني من خيبر لإدائته بالخيانة والنكث.

١١- الربيع بن أبي الحقيق النضري.. أعدم أيضاً لنفس الإدانة.
 هؤلاء هم القادة البارزون من اليهود الذين لقوا مصرعهم في معارك خيبر.. أما بقية قتلى اليهود في هذه المعارك والذين يبلغ عددهم ٨١ فلم يذكر أحد من المؤرخين اسم أحد منهم.

قدوم مهاجري الحبشة إلى خيبر: وعقب انتهاء النبي ﷺ من فتح خيبر، قدم إليها المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة هرباً من اضطهاد المشركين في مكة، وكانوا قد هاجروا إلى الحبشة بناءً على تعليمات النبي الأعظم ﷺ عندما اشتد عليهم الأذى من قريش في مكة قبل الهجرة^(١).

وقد كان على رأس هؤلاء المهاجرين جعفر بن أبي طالب، وكان حضور هؤلاء المهاجرين من الحبشة بناءً على طلب من النبي ﷺ بعث به إلى النجاشي ملك الحبشة، وكان مبعوثه بهذا الطلب عمرو بن أمية الضمري^(٢).

وقد جاء هؤلاء المهاجرون على ظهر سفينتين حملتهم من الحبشة إلى بلاد العرب.
 فرح النبي بقدم جعفر: وقد فرح النبي ﷺ بقدم جعفر فرحاً عظيماً، حتى إنه روي عنه أنه - عند قدوم جعفر - قام ﷺ والترم جعفر وقبّل بين عينيه ثم قال: (ما أدري بأيهما أنا أسرّ بفتح خيبر أم بقدم جعفر)^(٣).

(١) انظر تفاصيل هجرة المسلمين من مكة إلى الحبشة وأسماء هؤلاء المهاجرين في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢١.

(٢) انظر ترجمة عمرو بن أمية الضمري في كتابنا (غزوة بدر الكبرى).

(٣) انظر تفاصيل عودة المهاجرين من الحبشة وأسماءهم في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٥٩.

فتح فدك، وتيماء، ووادي القرى: وقد بقيت بعد سقوط خيبر عدة جيوب يهودية في مناطق متفرقة حول خيبر كانت بها قوات تعتزم مقاومة المسلمين ولكنها كانت تنتظر نتائج معركة خيبر، وكان اليهود في هذه الجيوب المبعثرة في نواحي فدك^(١) ووادي القرى وتيماء لا يتوقعون أن تكون الغلبة للمسلمين على يهود خيبر، لأنهم أهل عدد وعدة ومنعة وقوة، ولكن الذي حدث كان مفاجأة لليهود هذه الجيوب الذين سارع بعضهم إلى الاستسلام للمسلمين، وبعضهم دفع الجزية لهم وقاومهم البعض الآخر ولم يستسلم إلا بعد قتال كيهود وادي القرى.

استسلام يهود فدك: كان النبي ﷺ عندما أقبل إلى خيبر (وقبل أن يقوم بمهاجتها) بعث بأحد أصحابه (محيصة بن مسعود) إلى يهود فدك يعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إلى الدخول فيه ليكونوا ضمن الأسرة الإسلامية.

ولكن يهود فدك كان لديهم ما يشبه اليقين، بأن المسلمين سيفشلون في هجومهم على خيبر، ولهذا أظهروا الشيء الكثير من الخبث والمماطلة إزاء دعوة النبي ﷺ إياهم إلى الإسلام، ولم يعطوا رسوله (محيصة بن مسعود) جواباً قاطعاً، وكأنهم كانوا ينتظرون ورود أنباء انتصار اليهود على المسلمين فيعلنون الرفض، ولكنهم فوجئوا باستسلام اليهود في حصن ناعم (وهو أقوى يهود خيبر) فانهارت لذلك معنوياتهم (أي أهل فدك) فصالحوا المسلمين على نصف الأرض.

قال الواقدي: لما أقبل رسول الله ﷺ إلى خيبر فدنا منها بعث محيصة بن مسعود إلى فدك يدعوهم إلى الإسلام، ويخوفهم أن يغزوهم كما غزا أهل خيبر ويحل بساحتهم. قال محيصة: جئتهم فأقمت عندهم يومين، وجعلوا يتربصون، ويقولون: بالنظاة عامر، وياسر وأسير والحارث، وسيد اليهود مرحب، ما نرى محمداً يقرب حراهم^(٢)، إن بها (أي خيبر) عشرة آلاف مقاتل، قال محيصة: فلما رأيت خبثهم أردت أن أرحل راجعاً، فقالوا: نحن نرسل معك رجالاً يأخذون لنا الصلح - ويظنون أن اليهود (أي في خيبر) تمتنع - فلم يزالوا كذلك حتى جاءهم قتل أهل حصن ناعم وأهل النجدة منهم، ففت ذلك عضدهم وقالوا لمحيصة: أكنم عنا ما قلنا لك، ولك الحلي! الحلي من نسائهم، جمعوه كثيراً، فقال محيصة: بل أخبر رسول الله ﷺ الذي سمعت منكم، فأخبر النبي ﷺ بما قالوا.

(١) سبق التعريف بهذه المناطق فيما مضى من هذا الكتاب.

(٢) الحرا (بفتح الحاء) جناب الرجل، يقال: اذهب فلا أراك مجراي. (قاله في النهاية ج ٢ ص ٢٢٢).

قال (محيصة): وقد قدم معي رجل من رؤسائهم يقال له (نون بن يوشع) في نفر من اليهود (للمفاوضة).

كيف صالح النبي يهود فدك؟ وقد اختلف المؤرخون في كيفية استسلام يهود فدك للمسلمين، فقال بعضهم: إنهم صالحوا النبي ﷺ أن يحقن دماهم ويجليهم ويخلوا بينه وبين الأموال ففعل.

وقال بعضهم: إنهم عرضوا على النبي ﷺ أن يخرجوا من بلادهم ولا يكون للنبي ﷺ عليهم من الأموال شيء، وإذا كان جذاذاها جاءوا فجدوها فأبى أن يقبل ذلك. وبعض المؤرخين يشير إلى أنهم بعد رفض النبي عرضهم الأخير، قرروا المقاومة، فقال لهم مبعوث النبي ﷺ - محيصة بن مسعود -: ما لكم مَنعة ولا رجال ولا حصون، لو بعث رسول الله ﷺ إليكم مائة رجل لساقوكم إليه، وهنا طلبوا الصلح، فصالحهم النبي ﷺ على أن لهم نصف الأرض بتربتها، ولرسول الله ﷺ نصفها^(١)، قال الواقدي: وهذا القول أثبت.

وقد تم الصلح بينهم وبين النبي ﷺ دون أن يبلغهم بجيشه، وقد استمروا على حالهم حتى قرر عمر بن الخطاب في خلافته إجلاء يهود خيبر ومعهم يهود فدك، فبعث من خبراء الاقتصاد والمال من الصحابة من يقوم مزارع فدك وكل أراضيها، وبعد أن تم تقدير قيمتها دفع الخليفة إلى يهودها نصف القيمة التي بلغت خمسين ألفاً أو يزيد ثم أجلاهم مع يهود خيبر إلى الشام^(٢). كما تقدم تفصيله في الفصل الأول من هذا الكتاب.

فتح وادي القرى: يقع وادي القرى بين خيبر والمدينة، وهو واد خصب وبه مزارع عظيمة وعيون كثيرة، وكانت تقطنه - عند فتح خيبر - جماعة من اليهود على جانب لا يستهان به من القوة، ولهذا فقد كان يهود هذا الوادي هم الوحيدين من بين الفئات اليهودية التي رفضت - بعد سقوط خيبر - الاستسلام للمسلمين، وقررت مقاومتهم بجد السلاح.. وقد كان يهود وادي القرى (كيهود خيبر) يمتنعون بقلاع وحصون حربية، كما أنهم استغاثوا بجمع من الأعراب الوثنيين استعداداً لمواجهة المسلمين الذين كانوا في طريقهم إلى وادي القرى من خيبر.

(١) انظر الكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٥٠ و ١٥٢، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٥٣، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٧٥، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٠٦.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢١٨، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٧١٠.

وفعلاً انضم كثير من الأعراب الوثنيين إلى يهود وادي القرى واستعدوا جميعاً لمقاتلة المسلمين بمجرد وصولهم إلى الوادي.

اليهود يبدأون القتال: وكانت العادة المتبعة لدى النبي ﷺ أن لا يبدأ أحداً بالقتال حتى ينذر ويعذر ويعرض للإسلام، فإن أسلموا كف عنهم واعتبرهم جزءاً من الأسرة الإسلامية.

غير أن يهود وادي القرى لم يتركوا للنبي ﷺ فرصة توجيه الدعوة إليهم ليكف عن دمائهم، فبمجرد وصول الجيش الإسلامي إلى وادي القرى (وقبل أن يحط رحاله أو يستعد للقتال) شن اليهود الهجوم على المسلمين فقتلوا رجلاً من المسلمين، وهو مدغم مولى رسول الله ﷺ، أصابه سهم من سهام اليهود وهو يحط رحل رسول الله ﷺ.

تعبئة المسلمين للقتال: وعند ذلك عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال وصفحهم، فكتب الكتائب ووزع الرايات على القادة المختارين من أصحابه لخوض المعركة.

فدفع لواءه إلى سيد الخزرج سعد بن عباد^(١) ودفع راية إلى الحباب بن المنذر^(٢) وراية إلى عباد بن بشر^(٣) وراية إلى سهل بن حنيف ليتولوا قيادة المحاربين.

دعوة اليهود إلى الإسلام: ومع بداية يهود وادي القرى بالعدوان، فلم يتعجل النبي ﷺ في مقاتلتهم، بل حرصاً منه على حقن الدماء ورغبة منه في هداية هؤلاء اليهود، وجه إليهم الدعوة إلى الدخول في الإسلام، وأكد لهم أنهم إن أسلموا سيحوزون أموالهم وستحقن دماؤهم وحسابهم على الله.

رفض اليهود الدعوة ومسارعتهم للحرب: غير أن إشعال نار الحرب كان جواب يهود وادي القرى على دعوة الرسول السلمية، فقد رفض اليهود أن يردوا على دعوة رسول الله ﷺ وسارعوا إلى القتال، حيث خرج من حصونهم أحد فرسانهم وطلب المبارزة، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز فارس آخر، فخرج إليه الزبير أيضاً فقتله، ثم برز يهودي آخر فبرز له علي بن أبي طالب فقتله، ثم فارسان آخران فبرز لهما أبو دجانة فقتلها الواحد بعد الآخر، وظلت المبارزة مستمرة حتى قتل من اليهود أحد عشر رجلاً، كلما قتل رجل منهم دعا رسول الله ﷺ من بقي منهم إلى الإسلام.

(١) انظر ترجمة سعد بن عباد في كتابنا غزوة بدر الكبرى.

(٢) انظر ترجمة الحباب بن المنذر في كتابنا، غزوة بدر الكبرى.

(٣) انظر ترجمة عباد بن بشر في كتابنا، غزوة الأحزاب ص ٨١.

وقد استمر القتال بين المسلمين واليهود في الوادي طوال اليوم حتى المساء، وكان النبي ﷺ كلما حضرته الصلاة صلى بأصحابه، وبعد كل صلاة يكرر توجيه الدعوة إلى اليهود للدخول في الإسلام، ولكنهم يرفضون ويستمرون في القتال. استسلام اليهود: وفي اليوم التالي شن المسلمون على اليهود هجوماً عاماً كاسحاً، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعلن اليهود الاستسلام وأعطوا بأيديهم إلى المسلمين، فتم فتح وادي القرى عنوة، فغنمه المسلمون بأكمله.

إبقاء اليهود في وادي القرى: وقد عامل النبي ﷺ يهود وادي القرى كما عامل يهود خيبر المغلوبين، إلا أنه لم يقتل أحداً من أهل وادي القرى بعد الاستسلام. وقد سمح النبي ﷺ لليهود وادي القرى بالبقاء في الوادي وترك النخل والأرض بأيديهم على أن يقوموا برعايتها واستصلاحها وزراعتها مقابل أن يأخذوا نصف المحصول منها (تماماً) كما فعل مع يهود خيبر. وقد أقام النبي ﷺ بوادي القرى أربعة أيام فقط.

ولم أرَ أحداً من المؤرخين ذكر أن المسلمين سبوا أحداً من نساء وذراري يهود وادي القرى، ويظهر أنهم ظفروا بالعفو كما ظفر يهود الشطر الثاني من خيبر. وباستسلام يهود وادي القرى تمّ القضاء على أقوى جيب من جيوب المقاومة اليهودية في جزيرة العرب، كانت قد قاومت المسلمين بعد سقوط خيبر. يهود تيماء يدفعون الجزية: وقد كانت تيماء الواقعة في الركن الشمالي الغربي للجزيرة بها مجموعة من اليهود، وكانت بهم قوة وهم حصون في قمم الجبال، وكان من المتوقع أن يبداً شيئاً من المقاومة، إلا أنه لما بلغهم استسلام خيبر ثم فدك ووادي القرى للمسلمين، بعثوا من تلقاء أنفسهم إلى رسول الله ﷺ يطلبون الصلح ويعرضون دفع الجزية للمسلمين، فقبل منهم النبي ﷺ الجزية، وترك لهم ما بأيديهم من أموال فلم يستول المسلمون على شيء منها لأنهم بدفعهم الجزية أصبحوا أهل ذمة، شأنهم غير شأن العدو المحارب الذي لم يستسلم إلا بعد قتال وحرب.. ولهذا فإن الخليفة لما أجلى يهود خيبر في خلافته، لم يجلب يهود تيماء بل تركهم في ديارهم أحراراً لأنهم أهل ذمة ولم يحدث منهم ما يعتبر نقضاً للعهد الذي بموجبه حقن المسلمون دماءهم وضمنوا لهم أموالهم^(١).

(١) انظر البداية والنهاية ج ٢ ص ٢١٨، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٣، وزاد المعاد ج ٢ ص ٣٥٤، وإمتاع الأسماع ص ٣٣٢، ومغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٠٩ وما بعدها، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٨.

محاولة قبيلة فزارة: كانت قبيلة فزارة الغطفانية من أعتى القبائل النجدية وأشدّها على المسلمين، وقد حاولت بقيادة سيدها عيينة بن حصن أن تمدّ يهود خيبر بأربعة آلاف مقاتل ليكونوا إلى جانبهم في القتال ضد المسلمين كما تقدم تفصيله في هذا الكتاب. كما أن قبائل غطفان (خاصة فزارة) تعتبر نفسها الحليف الأول لليهود خيبر، وقد حاول عيينة بن حصن إنجاد اليهود للمرة الثانية، ولكنه وصل خيبر بعد فوات الأوان، حيث وجد النبي ﷺ قد سيطر بقواته على جميع نواحي خيبر، فعاد عيينة بأصحابه إلى غطفان يجر أذيال الخيبة والفشل.

فزارة تحاول اعتراض النبي فيتحداها: غير أن قبيلة فزارة بالرغم من الهزيمة الساحقة التي نزلت بمخلفائها اليهود في خيبر، وبالرغم من خيبة الأمل التي أصيبت بها لهذه الهزيمة الساحقة، فإن رجال هذه القبيلة قد ظل الأمل يراودهم في الإيقاع بالمسلمين والتغلب عليهم.

ولهذا قررت فزارة بقيادة عيينة بن حصن أن تهاجم المسلمين مرجعهم من خيبر، فحشدت لهذا الغرض قوات كثيفة من رجالها في المناطق الواقعة على الطريق الذي سيمر به النبي ﷺ بجيشه عائداً إلى المدينة.

وعندما بلغ النبي ﷺ أن فزارة تنوي مقاتلته أرسل إليها يتحداها إذ عين لها موضعاً أبلغها بأنه على استعداد لملاقاة رجالها فيه.

غير أن قادة فزارة لم يكادوا يتبلّغون هذا التحدي النبوي حتى خارت قواهم وخافوا خوفاً شديداً، فعدلوا عن قرارهم، وهربوا كل مهرب وذهبوا من طريق النبي ﷺ (مدعورين) كل مذهب بعد أن علموا بتحرك قواته في اتجاههم^(١)، ويظهر أن زعماء فزارة أرادوا بإعلان محاربة المسلمين إخافتهم بأنهم سيقطعون الطريق عليهم لعل ذلك يحمل النبي ﷺ على أن يفاوض هؤلاء الزعماء ليعطيهم شيئاً من المال مقابل التخلي عن اعتراض سبيله، لأنهم لا يزالون يذكرون كيف عرض عليهم (قبل معركة خيبر) ثمار خيبر مقابل أن يخلوا بينه وبين اليهود فلا يعينوهم بل يلتزموا جانب الحياد، ولكن هيهات هيهات، فشان النبي ﷺ - عند زحفه على خيبر - غير شأنه عند عودته منها.

فعند زحفه عليها كان في موقف حرج، أوقعه فيه إصرار غطفان على نجدة اليهود بأربعة آلاف مقاتل ضد المسلمين، الأمر الذي جعل النبي ﷺ وجيشه (يوم ذاك) بين نارين.. اليهود وعددهم عشرة آلاف مقاتل، وغطفان بقيادة سيد فزارة وعددهم أربعة آلاف مقاتل، بينما لا يزيد عدد المسلمين على ألف وأربعمائة مقاتل.

لذلك فقد اضطر النبي ﷺ إلى أن يعرض على قائد غطفان وسيد فزارة عينه بن حصن إعطاءهم ثمار خيبر، مقابل أن يلتزموا جانب الحياض في الصراع الذي سينشب بين المسلمين واليهود، ولكن غطفان رفضت هذا العرض في حينه، ومع ذلك فقد كسب النبي المعركة وألغى الوجود اليهودي الدخيل بأكمله في خيبر والشمال كله.

والآن وقد عاد بجيشه منتصراً من خيبر ذلك الانتصار الساحق الرائع، فشأنه شأن آخر فهو لم يعد يخشى أحداً - لا فزارة ولا غطفان كلها - بعد أن سحق أقوى قوة عاتية في المنطقة وهي عشرة آلاف مقاتل من اليهود، هزمهم وهم أهل العدة والعدد والحصون المنيعة والقلاع الشامخة.. لذلك لم يُرهب ﷺ فزارة حينما استعرضت عضلاتها وحشدت قواتها في طريق عودته، بل بعث إليها يتحداها ويعين مكاناً لملاقاتها فيه، فما كان منها إلا أن ولت فراراً منه وخلت بينه وبين الطريق الذي قررت اعتراضه فيه.. فاستمر ﷺ في تحركه عائداً إلى المدينة فوصلها دون أن يجراً أحد من أعراب المناطق على اعتراضه.

قصة الرهان الشيقة في مكة: كان رجالات قريش (الموالون منهم والمعادون للمسلمين) ينظرون إلى نتائج معركة خيبر على أنها الفيصل القاطع في الصراع الدائر بين الكفر والإيمان، وأنه على ضوء نتائج هذه المعركة - التي هي أعظم وأخطر معركة يخوضها المسلمون في العهد النبوي - سيتقرر المصير النهائي لكل من المعسكرين المتصارعين لا في خيبر وحدها بل في الجزيرة كلها.

لأنه لا توجد هناك في جزيرة العرب (يومها) قوة تناوئ المسلمين أعظم من يهود خيبر وحلفائهم الغطفانيين، سواء من ناحية العدد والعدة أو من ناحية متانة وحصانة القلاع والحصون التي يعتصم بها اليهود في خيبر، أو من ناحية الشجاعة وقوة البأس والشراسة في القتال التي يتميز بها يهود خيبر على جميع يهود الجزيرة كلهم.

لذلك كان أهل مكة يترقبون بحساسية بالغة واهتمام شديد أنباء المعارك الدائرة في

خيبر.

الجدل والرهان حول نتائج المعركة: ولأهمية المعركة في خير كان الحديث عنها وعن نتائجها شغل قريش الشاغل في أنديةها، وكثيراً ما يدور الجدل في أندية قريش بشدة حول أي من الفريقين يكون له النصر في هذه المعركة الفاصلة.. المسلمون أم اليهود؟. ففريق من المشركين في مكة - وعلى رأسهم حويطب بن عبد العزى^(١) - يصرون على القول بأن النصر سيكون للمسلمين على اليهود وحلفائهم في هذه المعركة، وفريق - وعلى رأسهم صفوان بن أمية يصرون على القول بعكس ذلك وهو أن النصر سيكون لليهود وحلفائهم على المسلمين.

الرهانة بمائة ناقة: وقد بلغ الجدل بالفريقين في مكة إلى أن يضعوا بينهم رهاناً مائة بعير يأخذها الفريق الذي يتحقق قوله.

كما أن اهتمام سادات مكة بأبناء معارك خبير قد حملهم على أن يخرجوا كل يوم عدة أميال خارج مكة يتحسسون أبناء هذه المعارك من الركبان.

ولنترك الإمام الواقدي يحدثنا عن قصة الجدل والرهان والاهتمام الشيقة هذه بكاملها، قال الواقدي: حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أنه سئل عن الرهان الذي بين قريش حين سار رسول الله ﷺ إلى خيبر، فقال: كان حويطب بن عبد العزى يقول: انصرفت من صلح الحديبية وأنا مستيقن أن محمداً سيظهر على الخلق وتأبى حمية الشيطان إلا لزوم ديني.

فقدم علينا عباس بن مرداس السلمي^(٢) فخبّرنا أن محمداً سار إلى خيبر وأن خيابر (أي يهود خيبر) قد جمعت الجموع، فمحمد لا يفلت، إلى أن قال عباس: من شاء بايعته، لا يفلت محمد، فقلت: أنا أخطرك (أي أراهنك)، فقال صفوان بن أمية: أنا معك يا عباس، وقال نوفل بن معاوية^(٣) أنا معك يا عباس، وضوى (أي مال) إلى نفر من قريش

(١) هو حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس العامري (أبو محمد) قال في الإصابة: أسلم عام الفتح وشهد حيناً، كان هو الذي جدد أنصاب الحرم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، كان من أغنياء قريش، أقرض النبي ﷺ أربعين ألفاً، تحول حويطب من مكة إلى المدينة ومات بها.

(٢) هو العباس بن مرداس بن عامر السلمي كان سيداً في قومه، أسلم قبل الفتح، انضم بسبع مائة مقاتل من قومه إلى النبي ﷺ وهو في طريقه لفتح مكة فشهد بهم يوم الفتح، وشهد حيناً مع النبي ﷺ ويقال إنه ممن حرم الخمر في الجاهلية.

(٣) هو نوفل بن معاوية بن عروة الدؤلي البكري الكناني، أسلم يوم الفتح، قال ابن حجر في الإصابة: عاش ستين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام، توفي بالمدينة في خلافة يزيد بن معاوية.

فتخاطبنا (مائة بعير) خماساً إلى مائة بعير، أقول أنا وحيزي: «يظهر محمد»، ويقول عباس وحيزه: تظهر غطفان (واليهود)، فاضطرب الصوت (أي ارتفع لشدة الجدل) فقال أبو سفيان بن حرب: خشيت واللات حيز عباس بن مرداس، فغضب صفوان^(١) وقال: أدركتك المنافية! فأسكت أبو سفيان، وجاءه الخبر بظهور رسول الله ﷺ فأخذ حويطب وحيزه^(٢) الرهن.

قالوا: وكانت الأيمن تُحلفُ عن خيبر، وكان أهل مكة حين توجه رسول الله ﷺ إلى خيبر قد تبايعوا بينهم، منهم من يقول: يظهر الحليفان أسد غطفان واليهود بخيبر، وذلك أن اليهود أوعبت في حلفائها، فاستنصروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنة، فكانت في ذلك بينهم بيوع عظام.

قصة الحجاج بن علاط: وكان الحجاج بن علاط^(٣) السلمي ثم البهزي قد خرج يغير في بعض غاراته، فذكر له أن رسول الله ﷺ بخيبر، فأسلم وحضر مع رسول الله ﷺ خيبر، وكانت أم شيبه بنت عمير بن هاشم أخت مصعب العبدي امرأته، وكان الحجاج مكثراً، له مال كثير، - معادن الذهب التي بأرض بني سليم^(٤) -، فقال: يا رسول الله! ائذن لي حتى أذهب فأخذ مالي من عند امرأتي، فإن علمت بإسلامي لم آخذ منه شيئاً، فأذن له رسول الله ﷺ وقال: لا بد لي يا رسول الله أن أقول فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما شاء.

(١) انظر ترجمة صفوان بن أمية في كتابنا غزوة بدر الكبرى.

(٢) الحيز: بفتح أوله وتشديد ثانيه مع الكسر، في الأصل الناحية واستعير هنا للفريق المناصر.

(٣) هو الحجاج بن علاط (بكسر العين) ابن خالد السلمي ثم الفهري كان أول من بعث إلى رسول الله ﷺ بصدقة من معدن بني سليم، حضر معارك الشام وكان مبعوث أهل الشام إلى عمر بن الخطاب حين كتب إليهم أن ابعثوا إلى برجل من أشرافكم، مات الحجاج في خلافة عمر.

(٤) بنو سليم الذين منهم الحجاج بن علاط، تقع منازلهم في المنطقة التي فيها وادي فاطمة، وهذا يعني أن معدن الذهب المشار إليه هو في هذه المنطقة من الحجاز.

قال الحجاج: فخرجت فلما انتهيت إلى الحرم هبطت فوجدتهم بالثنية البيضاء، وإذا بهم رجال من قريش يتسمعون الأخبار، قد بلغهم أن رسول الله ﷺ قد سار إلى خيبر، وعرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومَنَعَةً ورجالاً وسلاحاً، فهم يتحسسون الأخبار مع ما كان بينهم من الرهان، فلما رأوني قالوا: الحجاج بن علاط عنده والله الخبر! يا حجاج، إنه قد بلغنا أن القاطع^(١) قد سار إلى خيبر بلد اليهود وريف الحجاز. فقلت: بلغني أنه قد سار إليها، وعندي من الخبر ما يسرُّكم. فالتبطوا^(٢) بجاني راحلتي يقولون: يا حجاج أخبرنا، فقلت: لم يلق محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتال غير أهل خيبر. كانوا قد ساروا في العرب يجمعون له الجموع، وجمعوا له عشرة آلاف، فَهَزَمَ هزيمة لم يسمع قط بمثلها، وأسير محمد أسراً. فقالوا: لن نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فنقتله بين أظهرهم بمن قتل منا ومنهم! ولهذا فإنهم يرجعون إليكم يطلبون الأمان في عشائرهم ويرجعون إلى ما كانوا عليه، فلا تقبلوا منهم وقد صنعوا بكم ما صنعوا، قال: فصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر، هذا محمد إنما ينتظر أن يقدم به عليكم وقلت: أعينوني على جمع مالي على غرمائي، فأنا أريد أن أقدم فأصيب من فل محمد^(٣) وأصحابه قبل أن تسبني التجار إلى هناك. فقاموا فجمعوا إليّ مالي كأحسن جمع سمعت به، وجئت صاحبتني (زوجته) وكان لي عندها مال فقلت لها: مالي، لعلي ألحق بخيبر فأصيب من البيع قبل أن يسبني التجار إلى من انكسر هناك من المسلمين.

وسمع ذلك العباس بن عبد المطلب، فقام، فأنخذل ظهره فلم يستطع القيام، فأشفق أن يدخل داره فيؤذي، وعلم أن سيؤذى عند ذلك، فأمر بباب داره يفتح وهو مستلق، فدعا بابنه قثم وكان يشبه النبي ﷺ، فجعله يرتجز ويرفع صوته ألا يشمت به الأعداء، وحضر باب العباس بين مَغِيظ محزون، وبين شامت، وبين مسلم ومسلمة، مقهورين

(١) يعنون قاطع الأرحام أي النبي ﷺ.

(٢) التبط القوم به . قال في القاموس المحيط: أي طافوا به ولزموه.

(٣) في سيرة ابن هشام: من فل محمد، والفل (بفتح أوله) القوم المنهزمون.

لظهور الكفر والبغي، فلماً رأى المسلمون العباس طيبة نفسه طابت أنفسهم واشتدت منتهم^(١) ودعا غلاماً يقال له أبو زينة، فقال له: اذهب إلى الحجاج فقل: يقول العباس: «الله أعلى وأجل من أن يكون الذي تخبر حقاً» فجاءه فقال الحجاج: قل لأبي الفضل: أجلسني في بعض بيوتك حتى آتيك ظهراً ببعض ما تحب فأكرم عني. فأقبل أبو زينة يبشر العباس «أبشر بالذي يسرك» فكانه لم يمسه شيء، ودخل عليه أبو زينة فاعتنقه العباس واعتقه وأخبره بالذي قال، فقال العباس: لله عليّ عتق عشر رقاب! فلماً كان ظهراً جاءه الحجاج فناشده الله: لتكتمنّ عليّ ثلاثة أيام. فوائقه العباس على ذلك قال: فإنني قد أسلمت ولي مال عند امرأتي ودين على الناس، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوا إليّ، تركت رسول الله ﷺ قد فتح خيبر، وجرت سهام الله ورسوله فيها وانتثل ما فيها^(٢)، وتركته عروساً بابنة حيي بن أخطب وقتل ابن أبي الحقيق.

قال: فلماً أمسى الحجاج من يومه خرج، وطال على العباس تلك الليالي، وجعل العباس يقول: يا حجاج، انظر ما تقول فإنني عارف بخيبر هي ريف الحجاز أجمع وأهل المنعة والعدة في الرجال. أحقّ ما تقول؟ قال: أي والله، فأكرم عني يوماً وليلة.

قال الواقدي: حتى إذا مضى الأجل والناس يموجون في شأن ما تبايعوا (أي تراهنوا) عليه، عمد العباس إلى حلة فلبسها وتخلّق الخلق (أي تطيّب) وأخذ في يده قضيباً ثم أقبل يخطر حتى وقف على باب الحجاج بن علاط، فقرعه فقالت زوجته: لا تدخل، أبا الفضل! قال: فأين الحجاج؟ قالت: انطلق إلى غنائم محمد ليشتري منها التي أصابت اليهود منه قبل أن تسبقه التجار إليها.

فقال لها العباس: فإن الرجل ليس لك بزواج إلا أن تتبعي دينه، إنه قد أسلم وحضر الفتح مع رسول الله ﷺ وإنما ذهب بماله هارباً منك ومن أهلك أن يأخذه. قالت: أحقاً يا أبا الفضل؟ قال: أي والله، قالت: والثواقب إنك لصادق، ثم قامت تخبر أهلها.

(١) المنة بضم الميم: القوة.

(٢) انتثل الشيء: استخرجه وأخذه.

وانصرف العباس إلى المسجد، وقريش يتحدثون بما كان من حديث الحجاج، فلما نظروا إلى العباس وإلى حاله تغامزوا، وعجبوا من تجلده، ثم دخل في الطواف بالبيت، فقالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلد حرّ المصيبة! أين كنت منذ ثلاث لا تطلع؟. قال العباس: كلا والذي حلفتكم به، لقد فتح خيبر وترك عروساً على ابنة ملكهم حبي بن أخطب، وضرب أعناق بني أبي الحقيق البيض الجعاد الذين رأيتموهم سادة النضير من يثرب، وهرب الحجاج بماله الذي عند امرأته. قالوا: من خبرك بهذا؟ قال العباس: الصادق في نفسي، الثقة في صدري، فابعثوا إلى أهله! فبعثوا، فوجدوا الحجاج قد انطلق بماله واستكتم أهله حتى يصبح، فسألوا عن ذلك كله فوجدوه حقاً، فكُتِبَ المشركون وفرح بذلك المسلمون، ولم تلبث قريش خمسة أيام حتى جاءهم الخبر بذلك.^(١)

* * *

(١) مغازي الواقدي ج ٢ ص ٧٠٢ وما بعدها.

نظر وتحليل

مقارنة بين الجيشين المسلم واليهودي:

إذا كانت معركة الأحزاب من وجهة النظر المصرية هي أهم وأخطر معركة خاضها المسلمون في العهد النبوي.. لأن الغزو كان يستهدف الكيان الإسلامي واقتلعه من الجذور.. فاعتبر نجاح المسلمين في صد عدوان الأحزاب (بالنسبة لحماية الكيان من الانهيار) أعظم نصر يحققه المسلمون؛ لأن به رسخ الكيان الإسلامي وضرب بجذوره بعيداً في أعماق الوجود. بعد أن كان يهتز في مهب العاصفة مائلاً نحو العدم.. إذا كان انتصار المسلمين انتصارهم على اليهود في معركة خيبر هو (في حساب المقاييس الحربية) أعظم من أي انتصار حققه المسلمون في العهد النبوي.

فالمسلمون في معركة الأحزاب إذا كانوا قد انتصروا بعد العدوان. فإنهم فعلوا ذلك وهم يمتازون على ما كانوا عليه في معركة خيبر بما يلي:

١- كانوا يحتمون وراء خندق طويل واسع عميق. ومثل هذا الخندق الذي حُفِرَ في أهمّ المواقع الصالحة لعبور جيوش الأحزاب، يعتبر (بين خطط الدفاع الحربية) أكبر عامل من عوامل الصمود، وأخطر عائق يواجهه العدو ذو القوات الكثيفة الغامرة الذي وضع خطته على أساس القيام بحرب خاطفة تقوم بها أكثرية ساحقة ضد قلة قليلة كما هي خطة قادة عدوان الأحزاب الثلاثي الفاشل.. فقد اعترف قادة جيوش الأحزاب أن أكبر سبب مادي أحبط خططهم لاحتلال المدينة هو الخندق الذي فوجئوا به حتى قالوا - وهم يقفون على مشارفه مدهوشين - : «مكيدة والله ما كان العرب يعرفونها».

٢- كانت قوات الأحزاب هي المهاجمة.. وكان المسلمون هم المدافعون.. وعادة يكون المهاجم أكثر كلفة.. أما المدافع المتحصن فتكون كلفته أقل بكثير من كلفة المهاجم. حتى وإن كانت قواته أقل من قوات المهاجم.. هذا شيء معروف في حساب الموازين الحربية في كل عصر وزمان.

٣- ومع كون الأحزاب هم المهاجمون فقد كانت نسبة قوات أعدائهم المسلمين المدافعين إلى قواتهم واحداً لعشرة. بينما كانت نسبتهم إلى اليهود في خيبر واحداً لخمسة عشر.

٤- كانت قوات الأحزاب الغازية لفيماً من الأعراب أكثرهم مرتزقة، ليسوا في مقام الدفاع عن النفس والأهل والولد. كما أنه ليس لهم باعث عقائدي حتى يستبسلوا في القتال. وإنما جاءوا وشاركوا في هذا الغزو ليحصلوا على المغنم دون أن يتعرّضوا لأي مغرم يذكر. لذلك رأوا أنّ ما سيحصلون عليه من غنائم - فيما لو اقتحموا الخندق عنوة واحتلوا المدينة - لن يساوي شيئاً بالنسبة لما سيفقدون من القتلى بسيف المسلمين على مشارف الخندق قبل أن يقتحموه. فتقاعسوا عن الهجوم على المدينة واكتفوا من الغنيمة بالإياب.

٥- أمّا المسلمون الذين يربضون وراء الخندق. فقد كانوا في قتالهم ينطلقون من مفهوم عقائدي، وهو ما يسمّى بلغة هذا العصر (بالأيديولوجية).. فقد كانوا يدافعون (بالإضافة إلى الدفاع عن الحرمات والأعراض والأموال والأرواح) عن كيان وليد.. قيامه وبقاؤه، أعزّ عليهم (في قرارة أنفسهم) من أرواحهم وأبنائهم وأموالهم وهو كيان الإسلام.. ولذلك (مع احتمالهم بالخندق الحصين) قاتلوا الغزاة بشراسة وضراوة أبطلت عامل التفوّق العددي الذي كانت قوات الأحزاب تمتاز به.

أمّا الحالة في معركة خيبر فقد كانت عكساً، حيث لم يكن هناك (من وجهة النظر العسكرية المجرّدة) أي عامل مادي يتفوق به المسلمون على اليهود. بل كان يبدو واضحاً أن اليهود في خيبر كانوا في وضع حربي ممتاز، يمكن القول معه - وحسب المقاييس العسكرية المادية المجرّدة - أن لديهم كل العوامل والأسباب التي يحتاجونها للانتصار على المسلمين. وأهم هذه العوامل والأسباب هي:

- ١- التفوّق العددي.. فقد كان عدد قوات اليهود عشرة آلاف مقاتل، يساندتهم حوالي خمسة آلاف من حلفائهم غطفان ظلوا لهم كالاكتياطي ضد المسلمين حتى انتهت معركة خيبر، بل وحاولوا ضرب المسلمين من الخلف لحساب حلفائهم اليهود.
- ٢- إزاء هذا العدد الهائل، كانت قوات المسلمين لا تزيد على ألف وأربعمائة مقاتل.. وهذا يعني أن نسبة المسلمين لليهود وحلفائهم في هذه المعركة واحد لخمسة عشر^(١). وهو تفوّق عددي هائل لا يشك عسكري خبير - يتوقع نتائج المعارك حسب المقاييس المعتادة - في أنّ الانتصار الحاسم سيكون لليهود على المسلمين.

(١) إذ كان المسلمون ألف وأربعمائة، واليهود خمسة عشر ألفاً فإن النسبة هي واحد إلى عشرة تقريباً وليست واحد لخمسة

٣- التفوق الساحق في العتاد والسلاح.. فقد كان اليهود مع كثرتهم العددية الغامرة يتفوقون على المسلمين في ذلك تفوقاً ساحقاً. حيث كان اليهود على غاية من جودة التسليح واستكمال عدة الحرب الدفاعية والهجومية.. وذلك لما تحت أيديهم من ثروات هائلة تمكّنتهم من الحصول على أي نوع من أنواع السلاح والعتاد.

٤- الاستراتيجية الممتازة التي كان يتمتع بها المحارب اليهودي في خيبر.. فقد كان اليهود - مع تفوقهم العددي الساحق ووفرة العتاد لديهم وجودة التسليح بينهم - متحصنين داخل حصون وقلاع كبيرة منيعة، بنيت على قمم جبال وتلال حسب تخطيط حربي مدروس، بحيث يكاد يكون من المستحيل الإقدام على مهاجمتها فضلاً عن اقتحامها وافتتاحها لأن هذه القلاع والحصون تقع في مرتفعات عالية وبها أبراج يكشف المرابطون فيها كلّ ما حوالها ويتمكنون بسهولة من أن يصبّوا سهامهم القاتلة على كل من يقترب منها.

٥- وفرة المواد الغذائية.. فقد خزن اليهود في قلاعهم وحصونهم (استعداداً للقتال) كميات هائلة من المواد الغذائية المختلفة، تكفي لتموينهم عدة سنوات، كما دلّ على ذلك إحصاء الغنائم التي غنمها المسلمون عند استيلائهم على هذه الحصون والقلاع. أما الماء فقد كان متوفراً في جميع الحصون والقلاع بصفة دائمة، الأمر الذي يمكّنتهم من الاستمرار في القتال سنوات عديدة.

٦- الشجاعة.. كان يهود خيبر (وهذا يعترف لهم به التاريخ) أشجع يهود الجزيرة العربية على الإطلاق.. فلم تكن الشجاعة تنقصهم وهم يحاربون المسلمين.. أثبت ذلك سير المعارك الضاربة التي خاضوها وهم يدافعون عن حصونهم وقلاعهم حيث يمكن القول: أنهم لم يتخلّوا للمسلمين عن حصن أو قلعة إلا بعد أن دافعوا دفاعاً شرساً عن كل شبر منها.. وخاصة قلاع وحصون الشطر الأول من مدينة خيبر.. ولا أدلّ على هذه الحقيقة من أن جميع قادتهم - مثل مرحب وياسر وأسير والحارث وعامر - قتلوا وبأيديهم السيوف في ساحة الوغى.

٧- الدفاع عن الدين.. كان لليهود دين عريق في القدم.. وهو وإن كان ديناً مدخولاً أصابه الشيء الكثير من التحريف والتبديل.. إلا أنهم ظلوا متمسكين به ومتعصبين له إلى درجة أنهم يفضلون التضحية بكل شيء على التخلي عنه ومفارقته.. وتعصب اليهود الشديد لدينهم، يؤكده واقعههم المشهود في كل عصر وزمان.. وزاد اليهود تعصباً لدينهم أنه دين عنصر ي يعتبر بني إسرائيل وحدهم شعب الله المختار. وهو أمر يجعلهم لا يحملون وجود أي دين إلى جانب دينهم.

فيهود خيبر إذن لهم عقيدة يتعصبون لها أشد التعصب.. وانطلاق المحارب من مفهوم عقيدة راسخة (حتى وإن كانت غير صحيحة) يجعله شديد العناد والضراوة في قتاله، وخاصة إذا توهم أن خطراً يهدد دينه وعقيدته.. وهذا هو الذي فعله محاربو اليهود في خيبر.

٨- عامل الحفاظ على المال والزوجة والولد والجاه والسلطان.. فقد كان يهود خيبر يقاتلون وبينهم نساؤهم وأطفالهم وهم أعز ما يحافظ عليه الإنسان.. كذلك كان اليهود ذوي ثروات طائلة وأموال عظيمة منقولة وغير منقولة.. كما أنهم ذوي عزة وسلطان مطلقين في منطقة خيبر لا ينازعهم فيها منازع.. وكل هذه الأمور العزيزة لديهم يعلمون حق العلم أنهم (بموجب شرعة الحرب المعمول بها عالمياً في ذلك العصر) سيفقدونها إذا ما تغلب عليهم المسلمون واحتلوا مدينتهم.. لهذا كان من البديهي أن يكون قتال اليهود (تحت تأثير عوامل الحفاظ على كل هذه الأمور) قتالاً عنيداً شرساً لا هوادة فيه ولا تساهل.. وهو أمر يجعل وجعل (بالفعل) مهمة المسلمين المهاجمين شاقة إلى أبعد الحدود حيث واجه الجيش الإسلامي من يهود خيبر نوعاً من القتال لم يشهد مثله في الضراوة والشراسة في أية معركة خاضها مع الأعداء في العهد النبوي، اللهم إلا معركة حنين.

٩- كان الجيش الإسلامي هو المهاجم.. وكان الجيش اليهودي هو المدافع.

ومن المعلوم (عسكرياً) أن مهمة المهاجم هي أشق من مهمة المدافع. كما يتوجب - بديهياً - على من يريد القيام بهجوم في حرب شاملة أن تكون قواته أكثر عدداً من قوات عدوه. وإذا علمنا أن اليهود يتحصنون خلف أسوار وأبراج وحصون وقلاع منيعة وأن عددهم عشرة آلاف مقاتل وأن عدد المسلمين المهاجمين لا يزيد على ألف وأربعمائة مقاتل أدركنا مدى الصعوبة العظيمة التي واجهها الجيش الإسلامي وهو يهاجم اليهود في حصونهم وقلاعهم.

وأما كل هذا التفوق الشامل لدى اليهود في العدد والعتاد والسلاح والاستراتيجية والتمتع بالمواقع الدفاعية الحصينة الممتازة. وتوفر كل العوامل المادية التي يحتاجونها لتحقيق النصر على المسلمين. كان المسلمون ينقصهم كل شيء مادي.

فقد كان الجيش الإسلامي - بالإضافة إلى قلة عدده - ليس لديه أية أسلحة وقائية كبيرة كالدرع الضخمة، وهي صفائح كبيرة من الحديد تبلغ عدة أمتار وتسمى في ذلك العصر بـ (الدبابات) لأن الجنود يحتمون بها ويدبون خلفها وهم يهاجمون القلاع والحصون.

بل إن أغلبية الجيش النبوي ليس لديهم الدروع العادية التي يلبسها المحارب العادي ساعة القتال حيث كان أكثرهم حاسراً. وكانوا مع ذلك يقومون بالهجوم وهم مكشوفون أمام حصون اليهود وقلاعهم.

كذلك ليس لدى الجيش النبوي الصغير أي شيء من الأسلحة التدميرية الثقيلة التي لا بد من توفرها لدى من يريد مهاجمة مثل حصون اليهود في خيبر.. كالمجنقات القاذفات بالنار والراجمات مما يخرب الحصون. وهي أسلحة معروفة في ذلك العصر وخاصة لدى الرومان والفرس. وكان لدى اليهود أنفسهم كميات منها استولى عليها الجيش الإسلامي، ثم استخدموها لضرب بعض الحصون التي كانت آخر ما فتح في خيبر.

وهكذا فقد كان كل شيء (حسب المقاييس المادية والتقديرية العسكرية المجردة) يشير إلى أن يهود خيبر سيتمكنون - بكل سهولة - من دحر المسلمين والتغلب عليهم، عندما يقومون بالهجوم.

لأن كل الأسباب والوسائل المادية وغير المادية التي يحتاجها المحارب لكسب النصر كانت متوفرة (تماماً) لدى هؤلاء اليهود.

ولكن الذي حدث هو العكس وهو انتصار المسلمين القلة القليلة التي ينقصها كل شيء مادي على الكثرة اليهودية الغامرة التي توفرت لديها كل الإمكانيات المادية لكسب النصر.

فكان ذلك مفاجأة مذهلة أبطلت المقاييس العسكرية التقليدية. وأثبتت (عملياً) أن القوة الحربية (مهما عظمت) ليست وحدها كافية لكسب النصر في المعارك.

كما أثبت انتصار المسلمين على اليهود في خيبر أن النقص في السلاح والعتاد، والقلة في عدد الرجال لا يكونان - دائماً وفي كل الأحوال - سبباً في الانهزام أو عدم تحقيق النصر المطلوب.

ولعلنا هنا (وعلى ضوء هذه الحقائق) لسنا بحاجة إلى القول: أن العقيدة المستقيمة الحقبة الراسخة التي كان المحارب المسلم يلتزم بها ويقا تل (بصدق ووفاء) تحت لوائها هي التي قلبت موازين القوى في معركة خيبر وكانت العامل الحاسم الأول في انتصار تلك القلة المسلمة القليلة على تلك الكثرة اليهودية الغامرة التي (مع كثرتها) العددي تفوق تفوقاً ساحقاً في كل شيء مادي يحتاجه المحارب.

دروس في معركة خيبر: إن في طيات تفاصيل (معركة خيبر الحاسمة) من نماذج البطولة والتضحية وزخم العقيدة وصدق الجهاد وقوة الإيمان ما يجب أن يفهمه ويعيه ويجعله شعاعاً يستضيء به على دروب الجهاد وصون الكرامات واستعادة الحقوق المسلوبة كل الذين تضع الأقدار في أيديهم مسئولية حماية الأمة وغسل العار الذي لحق بها ولطخ جبينها ودنس مقدساتها وأذل كرامتها بأيدي اليهود اليوم.

لقد التحم في معارك خيبر ألف وأربعمائة من أصحاب محمد ﷺ بعشرة آلاف يهودي كانوا يتحصنون في قلاع منيعة وحصون عالية، وتساندهم (كقوات احتياطية) حوالي خمسة آلاف مقاتل من أعراب نجد ذوي القوة والشجاعة والبأس، واستمرت المعارك كأعنف ما تكون طوال شهرين كاملين.

كان اليهود - كما قلنا - يتفوقون على المسلمين في كل شيء مادي، القوة البشرية.. السلاح.. التموينات.. الاستراتيجية، والتكنولوجيا أيضاً، إذا صح هذا التعبير. وكان المسلمون (مع هذا التفوق اليهودي الساحق) مكشوفين أمام حصون اليهود ومستعمراتهم المحصنة أحسن تحصين.

ومع ذلك فقد كان النصر في النهاية للمسلمين على اليهود الذين قاتلوا المسلمين داخل قلاعهم وخارجها قتالاً شرساً ضارياً لم يعهد المسلمون مثله عبر صراعاتهم المسلحة مع الفئات اليهودية وغير اليهودية في جزيرة العرب في العهد النبوي. وهذا دليل عملي قائم يؤكد أن التفوق الساحق في العدد ووفرة السلاح وجودة التسليح والعلوم الحربية (التكنولوجيا) ليس وحده الذي يضمن النصر في المعارك، وإنما الذي يضمن ذلك ويحققه هو (في الدرجة الأولى) رسوخ العقيدة الصادقة في نفس المحارب والسير في دروب الكفاح على هدى نورها والتسليح بها قبل حشد الرجال وتكديس السلاح الذي لا قيمة حربية له إذا لم تحمله يد يحركها قلب مليء بالإيمان بالله تعالى. هذا بالنسبة لنا نحن المنتسبين إلى الإسلام: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ ﴿وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾. «ومن طلب العزة بغير الإسلام أذله الله»^(١).

فانتصار ألف وأربعمائة من المسلمين على عشرة آلاف مقاتل من اليهود في خيبر إنما عامله الأول رسوخ عقيدة الإسلام في نفس المحارب المسلم إلى درجة كان من أثر رسوخها وزخها أن يرفض بعض الجند في الجيش النبوي المحارب حظه في الغنيمة (بعد النصر) ليكون جهاده جهاداً مثالياً خالصاً لوجه الله تعالى كما فصلناه في هذا الكتاب.

(١) من أقوال الخليفة الفاروق الماثورة.

فلولا عامل العقيدة السليمة لما تمكن المسلمون من التغلب على اليهود لأن كل مقومات النصر (من وجهة النظر العسكرية المجردة) متوفرة لدى اليهود حيث كان هؤلاء اليهود يتفوقون على المسلمين في كل شيء تفوقاً ساحقاً.

خرافة التفوق التكنولوجي: إن انتصار المسلمين على اليهود في خير هو دليل حي على بطلان خرافة معزوفة القول: إن سبب انتصار اليهود علينا في حرب الأيام الستة في حزيران سنة ١٩٦٧م هو تفوق اليهود في التكنولوجيا، خرافة وأية خرافة هذا القول.

لقد كان المحاربون اليهود في معارك خير يتفوقون على أجدادنا المسلمين في كل شيء مادي يحتاجه المحارب لكسب النصر، بما في ذلك ما يسمونه اليوم بـ (التكنولوجيا) حيث كان لدى يهود خير من الوسائل الحربية الفنية للدفاع والهجوم ما ليس لدى المسلمين منه شيء، ومع ذلك فقد هزم أولئك اليهود هزيمة ساحقة. بينما انتصر اليهود علينا في حرب حزيران، وأنزلوا بنا تلك الهزيمة المخزية مع تفوقنا الساحق عليهم، في العدد ووفرة السلاح، وكل شيء مادي يحتاجه المحارب لكسب النصر.

وعليه؛ فإنه لا يمكن لعامل منصف قبول دعوى التفوق التكنولوجي لدى اليهود، تفسير مبرر لهزيمتنا الفاضحة، وإنما التفسير الصحيح لأسباب هذه الهزيمة هو أن الإسلام - كدين ودولة وخلق ومعاملة ومهدب وحافظ شريف كان غائباً كلياً عن المعركة حيث حرصت جهات مخصوصة على إخماد صوته ومحو أي أثر له في نفوس المحاربين منذ الحشد لهذه المعركة - طوال عشرين عاماً - وحتى نهايتها الفاضحة المخزية. في حين أفسح المجال لشعارات مذاهب ومبادئ دخيلة مستوردة هي والإسلام على طرفي نقيض لتحل محل الإسلام في التوجيه المعنوي والإعداد التربوي بين المحاربين طوال كل هذه المدة، الأمر الذي صنع الهزيمة لنا على النحو الفاضح الذي لم يشهد مثله تاريخ الأمة العربية والإسلامية في جميع العصور.

ولا شك أن ما أصابنا إنما هو بمثابة انتقام من الله وتذكير لكي نعود إلى جادة الإسلام الذي بمعاداته ومحاربة تعاليمه والاستهزاء بها لا يمكن أن يتم لنا النصر على اليهود حتى ولو خضنا معهم ألف معركة.

ولعل أقبح ما سمعنا في دنيا الدجل والمغالطة والافتراء ما يردده عملاء الشيوعية في بلاد العرب من أن هزيمة الخامس من حزيران إنما يتمثل في تمسك العرب ببقايا الأيديولوجية الغيبية (الدين)، وأن العرب إذا ما أرادوا تحقيق نصر حاسم على إسرائيل فإن عليهم (أولاً) أن يقطعوا كل صلة تصلهم بالماضي بما في ذلك الدين، لينبأوا حاضريهم على الواقع التقدمي المستمد من تعاليم ماركس ولينين^(١) لأن إتباع هذه التعاليم (بزعمهم) هو الكفيل بتحقيق النصر الساحق على اليهود.

ولست أدري كيف يتم للعرب النصر على اليهود بإتباع تعاليم هي من صنع اليهود أنفسهم، ابتدعوها وعملوا بدهاء وخبث على نشرها لتخريب المجتمعات، بينما صانوا أنفسهم عن مزالتق إتباعها.. وهل الماركسية التي وفدت على بلاد العرب في أُنفة مختلفة إلا من اختراع الصهيونية؟؟ أليس كارل ماركس يهودي لحماً ودماً وأماً وأباً وصهيوني فكرياً ومعتقداً؟ فكيف إذن يريد منا هؤلاء المفكرون العملاء أن نسير على هدى تعاليم يهودية لنتنصر على اليهود. إن هؤلاء الشيوعيين العرب، لو أنصفوا لرأوا أن العكس هو الصحيح، وهو أنه ليس من سبب لهزيمة الخامس من حزيران سوى الحجر على الإسلام وقطع الصلة بينه وبين جيل العشرين سنة لتحل محله في مختلف القيادات الفكرية والتربوية وفي جميع قطاعات الجماهير من سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية نفس التعاليم الماركسية التي أغرقت روافدها (تحت مختلف الشعارات) أكثر أقطار العالم العربي، إلى درجة أنه عندما نشبت حرب الأيام الستة لم يكن أي وجود للأيديولوجية الغيبية (العقيدة الإسلامية كما هي) في أي قطاع من قطاعات الدولة العسكرية أو السياسية أو التربوية، في أكثر البلاد العربية. وإنما الوجود والسلطان والنفوذ والسيادة والقيادة في جميع هذه القطاعات للأيديولوجية الماركسية أو مشتقاتها.

ومن هنا يتضح أن السبب في هزيمة الخامس من حزيران ليس التمسك بالعقيدة الإسلامية (كما يزعم سماسرة الشيوعية في بلادنا) هذا التمسك الذي لا وجود له بين مختلف القطاعات في الأقطار المعنية إياها، وإنما السبب هو الاعتصام بالأيديولوجية الماركسية على حساب نبذ العقيدة الإسلامية، هذا الاعتصام الذي بلغ من الشدة إلى درجة اعتُبرَ معها الجهر بالأيديولوجية الإسلامية والدعوة إلى العمل بموجبها (في بعض الأقطار) جريمة تستحق عقوبة الموت، وقد لاقى رجال حثفهم على أعواد المشانق في البلاد العربية لاتهامهم بأنهم ممن يدعون إلى العمل في بلادهم المسلمة بالأيديولوجية الإسلامية.

(١) انظر كتاب (من النكسة إلى الثورة) للدكتور نديم البيطار، وكتاب نقد الفكر الديني لمؤلفه جلال العظم.

فهل بعد هذا يحق لهؤلاء المفكرين من السماسرة اليساريين (عملاء الشيوعية في بلاد العرب) القول: أن سبب هزيمة الخامس من حزيران هو التمسك بالأيديولوجية الإسلامية؟ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

لقد تركت الجماهير العربية (أكثرها عن طواعية واختيار وقليل منها عن كراهية) قيادها لخصوم الأيديولوجية الإسلامية المبشرين بالأيديولوجية الماركسية طوال عشرين عاماً، فماذا كانت النتيجة؟؟ كانت النتيجة قيام خصوم العقيدة الإسلامية هؤلاء بصنع أشنع هزيمة عرفها العرب في تاريخهم ولم يحدث ذلك في ظل التمسك بالأيديولوجية الغيبية (عقيدة الإسلام).

حتى يحمل المفكرون من عملاء الشيوعية، هذه العقيدة مسئولية هزيمتهم هذه. وإنما حدث في ظل الاعتصام بالعقيدة الماركسية نفسها.

فلا أظن عاقلاً يستطيع القول: إن القيادات المسئولة عن هزيمة الخامس من حزيران كانت تنطلق (في حربها وسلمها وسلوكها الخاص والعام وأساليبها التربوية والتوجيهية بين محكومياتها) من مفهوم العقيدة الإسلامية.

وإنما كانت - ولا زالت - تنطلق في كل ذلك من مفهوم عقيدة ماركس ولينين.. فصحّ يقيناً أن الهزيمة إنما نزلت بهم في غياب الإسلام عن المعركة غياباً كلياً.. وفي حضور العقيدة اليسارية المنبثقة من الفلسفة الماركسية التي كانت ولا زالت هي الرائد والموجه لهذه القيادات في السلم والحرب والسياسة والاقتصاد والتربية والتوجيه.

فلا معنى (إذن) لدعوة المفكرين اليساريين إلى أن ينسلخ الذين صنعوا هزيمة الخامس من حزيران عن الأيديولوجية الإسلامية. إذ أن انسلاخهم عن هذه الأيديولوجية كان تاماً قبل أن يخوضوا حرب الخامس من حزيران.

ولا معنى كذلك للقول أيضاً بأن الانسلاخ عن العقيدة الإسلامية واستبدالها بالعقيدة الماركسية سيضمن النصر المؤزر للعرب على اليهود في المعركة القادمة.. إذ لو كان ذلك صحيحاً لتم النصر على اليهود في حرب حزيران لليساريين العرب الذين تمثل جيوشهم أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط لأنه لم يكن لهؤلاء اليساريين (ومنذ عشرين عاماً) أي ارتباط بالعقيدة الإسلامية في أي مجال من مجالات الحياة والسلوك الخاص والعام.

وإنما ارتباطهم طيلة هذه المدة وحتى اليوم (فكراً وعقيدة وسلوكاً) كان بالعقيدة الماركسية فحسب.

ولو أنصف هؤلاء المفكرون؛ لدعوا إلى نبذ الماركسية وردم روافد الشعارات المنبثقة منها، في العالم العربي. لأن التجربة العملية أثبتت (على محك معركة حزيران) إفلاس هذه الشعارات حيث كان الالتزام بها (لا بالإسلام) السبب الأول في تمزيق الأمة العربية وتفجير براكين الحقد والبغضاء بين مختلف طبقاتها. وبالتالي كان السبب المباشر في ضياع شرف وهيبة وكرامة الأمة العربية والإسلامية على يد اليهود يوم أنزلوا بنا تلك الهزيمة الفاضحة التي ما كانت لتنزل بنا (والله) لو أن العرب تمسكوا بالإسلام تمسكاً حقيقياً، وجعلوا عقيدته السامية - لا العقيدة الماركسية الفاسدة - منطلقها إلى المعركة.

اللهم ألهم قادتنا الرشد والسداد من كانوا وأينما كانوا ليعودوا إلى المنبع الصافي؛ منبع الإسلام فينهلوا وشعوبهم منه كما نهل محمد ﷺ وأصحابه فتم لهم العزة والنصر على أعدائهم في كل موطن رغم قتلهم وكثرة أعدائهم.

* * *

- ٩٥٤ لماذا أحجم اليهود عن غزو المدينة؟
- ٩٥٥ خيبر.. وغزوة الأحزاب
- ٩٥٥ مشروع الغزو الخطير
- ٩٥٦ خيبر تحزب الأحزاب ضد النبي ﷺ
- ٩٥٦ أعضاء وفد التحزب
- ٩٥٧ نجاح وفد العدوان في مهمته
- ٩٥٨ وفد اليهود التحزبي في نجد
- ٩٥٩ الترحيب بالوفد اليهودي في نجد
- ٩٦٠ مساومة أثناء المفاوضات
- ٩٦١ آخر حلقة في سلسلة الإجماع اليهودي
- ٩٦٢ اليهود في خيبر بعد فتحها
- ٩٦٢ إجلاء اليهود في عهد الفاروق
- استخدام اليهود لبعض النصارى في
- ٩٦٣ اغتيال المسلمين
- ٩٦٤ الخليفة يأمر بجلاء اليهود
- ٩٦٤ تعويض يهود فدك عند الجلاء
- ٩٦٥ الفصل الثاني
- ٩٦٥ وعد الله المسلمين بفتح خيبر
- ٩٦٦ ابتهاج المسلمين بفتح خيبر
- ٩٦٦ عدم قبول تجنيد المخلفين
- ٩٧٠ النساء في الجيش
- ٩٧٠ نموذج من الديمقراطية الصحيحة
- ٩٧١ إحراج اليهود للمسلمين
- ٩٧١ وقفة التدبر والإمعان
- ٩٧١ يهود المدينة والتجسس على المسلمين
- ٩٧١ عدم التورية في غزوة خيبر
- ٩٧٣ المنافقون طابور اليهود الخامس
- ٩١٧ ثوار العيص وحكومة المستضعفين
- ٩١٧ ثورة المستضعفين ضد قريش
- غزوة خيبر
- تقديم الكتاب : بقلم الكولونيل عبد الله
- ٩٢١ التل
- ٩٢٥ تمهيد الكتاب
- ٩٣٣ الفصل الأول
- ٩٣٣ موجز عن تاريخ اليهود في خيبر
- ٩٣٣ جغرافية خيبر
- ٩٣٣ متى جاء اليهود إلى خيبر؟
- ٩٣٩ اليهود عنصر دخيل في الجزيرة
- ٩٣٩ شجاعة يهود خيبر وقوة وحدتهم
- ٩٤٢ حياذ يهود خيبر
- ٩٤٢ موقف خيبر عند ظهور الإسلام
- ٩٤٣ التحول الخطير في موقف خيبر
- ٩٤٣ وكر التآمر على المسلمين
- ٩٤٣ لمحة من تاريخ بني النضير
- ٩٤٤ أعداء النبي ﷺ رقم (١)
- ٩٤٥ التآمر على حياة النبي ﷺ
- ٩٤٦ إجلاء بني النضير إلى خيبر
- ٩٤٨ بنو النضير في خيبر
- ٩٤٨ أخطر وكر للتآمر على الإسلام
- ٩٤٩ خفض الأرض ورفعها
- ٩٤٩ خيبر قاعدة للعدوان
- ٩٥٠ قيادة بني النضير
- ٩٥٠ لو اتعظ اليهود؟
- ٩٥٣ هل فكر اليهود في غزو المدينة؟

- | | | | |
|------|-------------------------------------|-----|--------------------------------------|
| ٩٩٣ | وصول المسلمين إلى خيبر | ٩٧٤ | الرتل الخامس وبنو النضير |
| ٩٩٤ | أربعوا على أنفسكم | ٩٧٥ | رأس النفاق يشعر اليهود بغزو المسلمين |
| ٩٩٤ | دعاء النبي ﷺ | ٩٧٥ | استعداد اليهود للمواجهة |
| ٩٩٤ | مفاجأة اليهود | ٩٧٦ | اختلاف قادة اليهود في وضع الخطط |
| ٩٩٥ | لا تمنوا لقاء العدو | ٩٧٧ | فكرة غزو المدينة |
| ٩٩٥ | كيف بدأ القتال؟ | ٩٧٨ | خيبر تستنجد بأعراب نجد |
| ٩٩٦ | عدم التناسق في وصف المؤرخين للمعركة | ٩٧٩ | مرابطة الأعراب مع اليهود في خيبر |
| | دعوة اليهود إلى الإسلام.. وعدم ذكر | ٩٧٩ | رفض بني مرة أن ينجدوا اليهود |
| ٩٩٧ | الجزية | ٩٨٠ | الحارث بن عوف ينصح عيينة بن حصن |
| ٩٩٧ | لماذا لم يطالبوا بالجزية؟ | ٩٨٠ | تحرك الجيش النبوي نحو خيبر |
| ١٠٠٠ | بدء المعركة | ٩٨٠ | نائب النبي على المدينة |
| ١٠٠٠ | تنظيم القيادات وتوزيع الرايات | ٩٨٠ | مدى قوة المسلمين |
| ١٠٠١ | العلم النبوي | ٩٨١ | سلاح الاستكشاف |
| ١٠٠١ | أربع رايات للمهاجرين والأنصار | ٩٨١ | أدلاء الجيش |
| ١٠٠١ | الحراسة | ٩٨١ | طريق الجيش إلى خيبر |
| | اجتياح مزارع اليهود وحرق بعض | ٩٨٢ | إلقاء القبض على جاسوس |
| ١٠٠١ | النخيل | ٩٨٤ | نموذج من الانضباط العسكري |
| ١٠٠١ | مهمة صعبة للغاية | ٩٨٤ | النبي وخط الرجعة |
| ١٠٠٢ | كيف بدأ الهجوم؟ | | النبي يطلب من غطفان عدم مناصرة |
| ١٠٠٢ | معسكر المسلمين الأول | ٩٨٥ | اليهود |
| ١٠٠٣ | خمسون جريحاً وشهيد واحد | | النبي يفاوض غطفان لتخلي بينه وبين |
| ١٠٠٣ | عمود بن مسلمة أول شهيد في خيبر | ٩٨٦ | اليهود |
| ١٠٠٤ | تغيير مقر قيادة النبي ﷺ | ٩٨٨ | تأزم الموقف لدى المسلمين |
| ١٠٠٥ | استمرار القتال حتى المساء | ٩٨٩ | الانتصار بالرعب |
| ١٠٠٥ | تحول المسلمين إلى وادي الرجيع | ٩٨٩ | بشائر النصر قبل الاشتباك |
| ١٠٠٦ | عثمان بن عفان قائد المعسكر | | غطفان ترجع هاربة إلى بلادها قبل |
| ١٠٠٦ | شدة الانضباط العسكري عند المسلمين | ٩٩٩ | نشوب القتال |
| ١٠٠٧ | بساطة الإسلام ويسره | ٩٩٣ | الفصل الثالث |

- ١٠٣٠ في حصن الصعب ١٠٠٧ درس في الأمانة
- ١٠٣١ آداب حرية نبوية ١٠٠٨ حصن ناعم أقوى حصون النطاوة
- ١٠٣١ إراقة الخمر وكسر آيتها ١٠٠٨ تشديد الحصار على حصن ناعم
- ١٠٣١ لا تلغنه ١٠٠٨ قتل مرحب وافتتاح حصنه
- ١٠٣٣ رجحان كفة المسلمين ١٠٠٩ مقتل عامر بن الأكوع
- ١٠٣٤ فرقة تطهير منطقة النطاوة ١٠٠٩ من الذي قتل مرحب؟
- ١٠٣٥ فتح قلعة الزبير ١٠١١ رواية البيهقي وغيره
- ١٠٣٥ صعوبة اقتحام الحصن ١٠١٢ الزبير يقتل ياسر أخا مرحب
- إجبار اليهود على القتال خارج الحصن ١٠١٣ مصرع القائد اليهودي الرابع
- ١٠٣٥ إحصان ١٠١٣ استيلاء المسلمين على حصن ناعم
- ١٠٣٧ إجبار اليهود على القتال ١٠١٣ تفصيلات الواقدي لفتح حصن ناعم
- ١٠٣٨ خسائر المسلمين ١٠١٤ سعد بن عبادة الجريح
- ١٠٣٨ فتح حصن أبي ١٠١٨ اليهودي الذي طلب الأمان فأعطيه
- تحويل المعسكر النبوي إلى مكانه الأول ١٠١٩ الوفاء لليهودي بالعهد
- ١٠٣٩ الأول ١٠١٩ عدد الخسائر
- ١٠٤١ انتقال اليهود إلى حصون الشق ١٠٢١ الغنائم والمعدات
- ١٠٤١ ضرب الحصار على القلعة ١٠٢٢ فتح حصن الصعب
- ١٠٤١ شراسة اليهود في المقاومة ١٠٢٢ محاصرة حصن الصعب
- اليهود يفتحون أبواب القلعة ١٠٢٢ النبي يعطي الراية الحجاب بن المنذر
- ١٠٤١ للمبارزة ١٠٢٢ المجاعة في بعض وحدات الجيش
- ١٠٤١ مصرع قائد يهوديين ١٠٢٢ النهي عن لحم الحمر الأهلية
- إحجام اليهود عن المبارزة ١٠٢٤ عدد المدافعين عن حصن الصعب
- ١٠٤٢ وافتتاح القلعة ١٠٢٥ المبارزة أمام الحصن
- ١٠٤٣ فتح حصن النزار ١٠٢٥ معركة التراشق بالسهم
- ١٠٤٣ أمنع حصن في خيبر ١٠٢٦ هجوم اليهود المضاد
- ١٠٤٤ النساء والذرية في حصن النزار ١٠٢٧ الهجوم اليهودي المعاكس مرة أخرى
- ضرب الحصار على حصن النزار ١٠٢٨ مصرع سلام بن مشكم
- ١٠٤٥ إخراج جميع حصون الشق ما عدا ١٠٣٠ انهزام اليهود وفتح الحصن
- معدات ثقيلة وأسلحة يستولي عليها المسلمون

غطفان تطلب من النبي قسماً من	١٠٤٥	(النزار)
١٠٦٣ الغنيمة	١٠٤٥	الهجوم على حصن النزار
١٠٦٣ عيينة بن حصن يتحسر على اليهود	١٠٤٥	مقاومة اليهود العنيفة
كيف استسلم يهود الشطر الثاني من	١٠٤٥	النبي يجرح بنال اليهود
١٠٦٤ خيبر؟	١٠٤٦	نصب المنجنيق على الحصن
١٠٦٤ رأي ابن إسحاق	١٠٤٧	قصة تحتاج إلى تمحيص
١٠٦٤ قول الواقدي	١٠٤٨	حصن النزار آخر حصن كان فيه قتال
١٠٦٧ طلب اليهود المفاوضة للتسليم		كيف صارت صفة اليهودية أما
١٠٦٧ الاستسلام النهائي	١٠٤٨	للمؤمنين؟
حقن الدماء والإعفاء من السبي	١٠٤٨	القمر في حجر صفة
١٠٦٨ فقط	١٠٤٩	كيف تزوج النبي صفة؟
١٠٦٨ تسامح القائد الأعلى النبي		تخيير النبي صفة بين الإسلام
١٠٦٨ بنود اتفاقية التسليم	١٠٥٠	والرجوع إلى أهلها اليهود
١٠٦٩ نهاية الاستعمار اليهودي	١٠٥٠	تفنيذ تهمة خبيثة
١٠٧٠ ما أشبه الليلة بالبارحة	١٠٥٢	أكرموا عزيز قوم ذل
١٠٧٠ الغنائم في خيبر		
١٠٧١ الغنائم غير الحربية	١٠٥٥	الفصل الرابع:
خيبر أغنى منطقة زراعية في		الزحف على الشطر الثاني من خيبر
١٠٧١ الحجاز		هل فتح الشطر الثاني من خيبر؟
١٠٧١ النبي يعيد التوراة لليهود	١٠٥٦	صلحاً أم عنوة؟
كيف سمح النبي لليهود بالبقاء في		استسلام الشطر الثاني من خيبر
١٠٧٢ خيبر؟	١٠٥٩	بعد القتال
١٠٧٤ السماح لليهود بالإقامة في خيبر	١٠٥٩	القول الفصل
١٠٧٤ اليهود في حماية المسلمين	١٠٦٠	دروس في النزاهة والعفة
النبي يحذر من الاعتداء على أموال	١٠٦٠	نموذج نادر في صدق الجهاد لله
١٠٧٥ اليهود	١٠٦٢	إشراك غائبين في الغنيمة
١٠٧٦ محاولة اغتيال النبي في خيبر	١٠٦٢	إشراك عشرة من اليهود في الغنيمة
١٠٧٧ دور المرأة في معركة خيبر	١٠٦٢	غطفان تنجد اليهود ولكن؟

- الأصل جواز خروج النساء للجهاد ١٠٧٨
- ١٠٨٦ محاولة قبيلة فزارة
- ١٠٧٨ قتلى الفريقين في المعركة
- ١٠٨٦ فزارة تحاول اعتراض النبي فيتحداهما ١٠٨٦
- ١٠٧٩ عدد شهداء المهاجرين
- ١٠٨٧ قصة الرهان الشيقة في مكة
- ١٠٧٩ من بني أمية بن عبد مناف
- ١٠٨٨ الجدل والرهان حول نتائج المعركة ١٠٨٨
- ١٠٧٩ من بني أسد بن عبد العزى
- ١٠٨٨ الرهان بمائة ناقة
- ١٠٧٩ من غفار
- ١٠٨٩ قصة الحجاج بن علاط
- ١٠٧٩ من أهل خيبر نفسها
- ١٠٨٩ نظرة وتحليل مقارنة بين الجيشي
- ١٠٧٩ من أشجع
- ١٠٩٣ ن المسلم واليهودي
- ١٠٧٩ شهداء الأنصار
- ١٠٩٣ دروس في معركة خيبر
- ١٠٧٩ من الخزرج
- ١٠٩٩ خرافة التفوق التكنولوجي
- ١٠٨٠ من الأوس
- ١٠٨٠ من بني زهرة
- ١٠٨٠ عدد قتلى اليهود
- ١٠٨١ قدوم مهاجري الحبشة إلى خيبر
- ١٠٨١ فرح النبي بقدوم جعفر
- فتح فذك، وتيماء، ووادي
- ١٠٨٢ القرى
- ١٠٨٢ استسلام يهود فذك
- ١٠٨٣ كيف صالح النبي يهود فذك؟
- ١٠٨٣ فتح وادي القرى
- ١٠٨٤ اليهود يبدأون القتال
- ١٠٨٤ تعبئة المسلمين للقتال
- ١٠٨٤ دعوة اليهود إلى الإسلام
- رفض اليهود الدعوة ومسارعتهم
- ١٠٨٤ للحرب
- ١٠٨٥ استسلام اليهود
- ١٠٨٥ إبقاء اليهود في وادي القرى
- ١٠٨٥ يهود تيماء يدفون الجزية